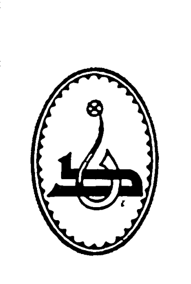


تيمورلنك

تأليف

العقيد محمّد أسد الله صفا

دار النفائس



تیمور لنگ

أعلام الحرب

(٤)

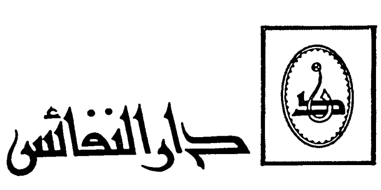


تيمورلنك

تأليف

العقيد محمّد أسد الله صفا

دار النفائس


للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية صفي الدين
ص.ب ١١/٦٣٤٧ أو ١٤/٥١٥٢
برقياً: دانفايسكو - ت ٨١٠١٩٤
أو ٨٦١٣٦٧ بيروت - لبنان

الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

تمهيد

وُلد تيمور بن طرقاي، المعروف في التاريخ الإسلامي باسم تيمورلنك ، أي تيمور الأعرج[1] ، في ٢٥ شعبان ٧٣٦هـ/ ٨ نيسان ١٣٣٦م ، في البلاد التي دعاها المؤرِّخون المسلمون الأوَّل باسم «بلاد ما بين النهرين» ، والواقعة ما بين نهر أمو داريا ونهر سير داريا . هٰذان النهران هما نهرا جيحون وسيحون بالنسبة إلى مؤرِّخي العرب والإسلام ، ونهر أمو وسير اليوم . أما وفاته فكانت في ١٩ شعبان ٨٠٦هـ/ ١٨ شباط ١٤٠٥م ، عن عمر يناهز السبعين عاماً .

تتوقف حدود إيران واللغة الإيرانية ، اليوم ، عند نهر أمو ، والشعوب القاطنة ما بعد هذا النهر ، حتى الحدود الصينية ، تتكلّم عدداً من اللغات التوركية[2] . وكان الفاتح جنكيزخان قد جمع هذه الشعوب وصهرها في تسمية سياسية واحدة ، هي المغولية . ولكن بعد أن تفككت الأمبراطورية المغولية ، وانفصمت عراها ، عادت كل فئة قومية إلى التسمِّي بأسماء قبائلها التاريخية ، وإلى التغنّي بتمايزها العرقي والحضاري . وهذه الفئات هي اليوم قسمان :

- حضر بثقافة إسلامية .
- وبدو رحّل .

دأب المؤرِّخون الأوروبيون والمسلمون على تسمية تيمورلنك بالفاتح التتري وقومه بالتتر ، وهذا خطأ ؛ فتيمورلنك لم يكن تترياً ، ولم يكن ليوجد تتر بعد جنكيزخان .

---

(١) نتيجة لإصابته بجرح في ساقه عام ١٣٦٥م.

(٢) ومن هذا الأصل تأتي اللغة التركية.

فالفاتح المغولي أباد التتر شعباً وسلطاناً في سِياق صعوده إلى القمة . وليس من الصواب كذلك أن ندعو تيمورلنـك ، كما يفعل البعض ، بالفاتح التركي ، لأنه كان مغولياً أكثر من كونه تركياً ، ولأن التسمية بالتركية لا تصحّ إلّا بالنسبة للسلجوقيين والعثمـانيين . ولكن لما كان الإيرانيون القدماء يطلقون لقب طور ، أي الشجاع ، على الأقوام القاطنة ما وراء النهر ، فإن أحسن تسمية لهذه الأقوام هي الطورانية وأرضهم بلاد طوران . وعلى هذا الأساس فإن تيمورلنـك ، بالنسبة للتاريخ ، هو الفتح الطوراني ، وعهده هو العهد الطوراني ، أو العهد التيموري .

إن تيمورلنـك نفسه مغولي ، وجنكيزخـان جـدٌّ له من ناحية أمّه المنحدِرة من صلب جنكيزخـان من غير زوجته الأولى بورتاي . وكان الفاتح المغولي قد وزع أمبراطوريته فقط بين أولاده من هذه الزوجة ، وهم جوشي ، جغطاي ، أوغوداي وتولي ، وأوصى بأن يكون أخلقهم دماثة ، أوغوداي ، خاقاناً من بعده، أي أمبراطـوراً على الجميع . وكانت بلاد ما وراء النهر من حصة جغطاي ، وعرفت البلاد من جراء ذلك باسم أرض جغطاي وسكّانها بالجغطائيين .

يتحدّث تيمورلنـك في مذكراته المكتوبة عن اتصال نسبه بجنكيزخـان . وهذا الأمر وارد كذلك في مذكرات حفيده الأمبراطور ببـر . وفيما يتعلّق بجنسـه كمغولي ، فهـو ينحدر من خان قبيلة برلاس ، وهذه القبيلة كانت تعود بأصولها إلى القبيلة الأسطورية «كوريدجين» ، وهي نفس القبيلة التي كان جنكيزخـان ينتسب إليها ، والتي أخذ منها التسمية المغولية ، بادىء الأمر لقبيلته ، ومن ثم لأمبراطوريته .

يعرف الأوروبيون تيمورلنـك باسم تامر لان . وكان شعاره «رستي روستي» ، وهو بالفارسية ويعني «الحقيقة هي السلامة» . وتيمورلنـك كان مسلماً ، ولكنه كـان يتقيّد بتعاليم الياسا ، شريعة جنكيزخـان اللادينية . وهناك من يقول إنه كان شيعياً ، إلّا أن الحقيقة أنه كان تارة شيعياً وطوراً سنيّاً ، أي مسلماً ذرائعياً يتخذ من الطائفية وسيلة إلى بلوغ مطامعه . لقد كان شيعياً عندما كان يرى مصلحة له في إرضاء جنده الخراساني ، وكانوا من الشيعة ، وكان سنيّاً فيما عدا ذلك .

بدأ حياته باسم تيمور . ولم يُعرف بتيمورلنـك ، أي تيمور الأعرج ، إلّا بعد أن ابتُلِيَ بالعرج نتيجة لجرح أثناء غارة له في سيستان عام ١٣٦٥م . وقد فقـد في تلك الغارة ، أيضاً ، أصبعين من يده اليمنى .

كان يحمل فقط لقب الأمير . والمؤرِّخون يأتون على ذكر أعوانه وقادة جيوشه بهذا

اللقب أيضاً . وكانت التقاليد تقضي بأن يكون الحكم لأحد أحفاد جغطاي ، ولذا عمل تيمورلنـك ، لمدة من الزمن ، من كل من «سيورغاتميش» ومحمود خان خاقاناً اسمياً ، محتفظاً لنفسه بالإدارة الفعلية والسلطة الكامِلة .

كانت عاصمته سمرقند. .

وقبره موجود إلى اليوم في هذه المدينة ، ويزوره كل وافد إليها .



مقدمة

حاول رجل ، منذ ما يقرب من ستة قرون ، أن يفرض نفسه سيِّداً على العالَم ، وكان ناجحاً في كل شيء أخذه على عاتقه . هذا الرجل هو الفاتح الطوراني تيمور بن طرغاي ، المعروف في تاريخ العرب والمسلمين باسم تيمورلنك ، وباسم تامرلان لدى المؤرِّخين الأوروبيين .

لم يكن ملكاً ولا سليلاً لبيت مالك . ولكن نسبه كان يتصل ، بتسلسل جانبي ، بالفاتح الشهير جنكيزخان . كان عند مولده ونشأته رجلاً قليل الشأن ، يملك بعض الماشية ، ويعيش على الإرعاء في تلك الأرض المولّدة للغزاة ، آسيا الوسطى . وقد نجح بكدِّه وتفكيره وعرق جبينه فكوّن حوله شعباً من كل مكان .

لقد تغلّب على معظم جيوش العالم في عصره ، واحداً بعد آخر ، يدمر المدن ويعيد بناءها على ذوقه وهواه . كانت القوافل تسير على طرقه متنقلة بين قارتين . وقد جمع تحت تصرّفه ثروات الأمبراطوريات وأنفقها كما أراد.

كان الناس ، منذ خمسة قرون ، يشيرون إلى أمبراطوريته باسم التتر أو تاتاريا ، وهذه تسمية خاطئة ، والتسمية الصحيحة هي الأمبراطورية المغولية التيمورية ، أو الأمبراطورية الطورانية .

لم تتعرّف أوروبا على تيمورلنك إلّا لماماً ، أما آسيا فقد عرفته جيداً ، لفخرها وذلها على السواء . كان يصفه الأعداء بأنه ذئب أشهب يأكل الأرض . وكان أتباعه يشيرون إليه بآسم الأسد الغضنفر والفاتح الذي لا يفشل ولا يُقهر ، وكان في الواقع كذلك .

تحدّث عنه الشعراء بلسان الوهم والخيال . أما المؤرِّخون فقد لاذ معظمهم

بالصمت حياله . ومن العسير أن نضع تصنيفاً لتيمورلنك ؛ فهو لم يكن من سلالة مالِكة ، ولكنه أسّس مثل هذه السلالة . وهو لم يكن مثل أتّيلا ، ملك الهياطلة ، لا يأتي إلّا بالخراب والدمار ، وإنما كان يبني من بقايا الأشياء مدناً في الصحراء ، من وحي خياله وتصميمه .

بنى تيمورلنك عرشاً لنفسه ؛ لكنه قضى معظم سني حياته على ظهر جواد . وهو عندما كان يبني ، فإنه لم يكن يتبع نمطاً سابقاً من فنّ العمارة ، بل كان يضع هندسة من تخيّله وتصوّره ، مستوحياً من قمة جبل ، أو من قبة منفردة ، كتلك التي رآها في دمشق قبل أن يحرق المدينة . هذه القبة المتضخّمة ، المتولِّدة عن تصوّر تيمورلنك ، غدت النموذج للتصميم الروسي ، وهي الإكليل في «تاج مهال» ، هذا الأثر الفنّي الرائع ، الذي بناه أحد أباطرة المغول في الهند ، أحفاد تيمورلنك .

في أوروبا ، في عصر تيمورلنك ، كانت جمهورية البندقية تعيش تحت حكم مجلس العشرة . وكانت حرب المئة سنة ، في فرنسا ، تتابع مسيرها خلال مجراها العقيم . وكانت المذابح تجري في باريس تحت أنظار الملك شارل السادس ، النصف مجنون . كانت أوروبا في طفولتها ، خارجة للتو من ظلام القرون الوسطى .

وكانت أوروبا تتطلّع إلى الشرق طلباً لِنِعم الحضارة : للبياضات وقماش النبطين والبهارات ، للحرير والحديد والفولاذ والخزفيات . وكان الذهب والفضة والحجارة الكريمة تأتي من الشرق . وقد غدت جمهوريتا البندقية وجنوه ، بفضل التجارة عبر البرّ ، دولتين غنيتين . وكان العرب ، في إسبانيا ، قد بنوا قرطبة وإشبيلية وقصور غرناطة . وكانت القسطنطينية نصف شرقية .

توجد اليوم ، عند إحدى تقاطعات الخط الحديدي المارّ عبر سيبريا ، مسلة حجرية تحمل على إحدى جوانبها كلمة أوروبا ، وعلى الجانب الآخر كلمة آسيا . هذه المسلّة ، لو كانت في أيام تيمورلنك ، لكانت قد وضعت على بضع خمسين درجة طول أبعد إلى الغرب ، عند ضواحي البندقية تقريباً . لم تكن أوروبا ، في ذلك الزمن ، لتزيد عن مقاطعة من آسيا ، مقاطعة من أسياد وعبيد ، حيث لم تكن المدن ، كقاعدة عامة ، لا أكثر من قرى أو مزارع صغيرة ، ولا شيء سوى دمدمة وتذمّر وبؤس .

كان الأوروبيون على اطّلاع بما يجري على المسرح الأوروبي في ذلك الزمن ، لكنهم لم يكونوا ليعرفوا شيئاً عن الرجل الذي ظهر ليبسط سيطرته على العالم . إن عظمة تيمورلنك ، بالنسبة لهؤلاء الأوروبيين ، بدت وكأنّها شيء غريب عن عالم

الأرض ، ورأوا في سلطانه شيئاً من عمل الشيطان . وعندما ظهر على أبواب بلدانهم ، سارع ملوكهم إلى إرسال الرسائل وإيفاد المبعوثين إلى تيمورلنـك العظيم ، أمبراطور منغوليا ، أو تاتاريا ، بمفهوم القوم في ذلك العصر .

ملك انكلترا ، هنري الرابع ، بعث يهنىء الفاتح المجهول لانتصاراتـه.. وأرسل ملك فرنسا ، شارل السادس ، آيات مديح بالمنتصر الأعظم والأمير المبدع تيمـور . وعمد تجّار جنوه الأذكياء إلى رفع علمه خارج القسطنطينية ، في حين كان الأمبراطور البيزنطي ، مانويل ، يستغيث به ويرجو مساعدته . أما الدون هنري ، ملك كاستيل ، فقد أوفد الفارس كلافيجـو إلى تيمورلنـك ، وقد وصـل هذا السفيـر إلى سمرقنـد ، وحظي بمقابلة تيمورلنـك وضيافته ، وعاد إلى بلاده ليرفع تقريره ، ويعرّف بمن كـان تيمورلنـك . وجاء في تقريره :

«ـ تيمورلنـك ، سيد سمرقند ، بعـد أن افتتح جميـع أرض المغول ، والهنـد ، وأرض الشمس[1] ، وبلاد خوارزم ، وبلدان فارس وميديا ، وأمبراطورية تبريز ومدينة السلطان. . وبعـد أن افتتح بـلاد الحريـر ، وأرض البوابـات ، وأرمينيـا الصغـرىٰ ، وأرضروم وبلاد الأكراد. . وبعد أن ربح بلاد الهند حرباً ، ودمّر مدينة دمشق ، وقهر مدن حلب وبابل وبغداد. . وبعد أن تغلّب على ممالك ومدن أخرى ، وربح معارك عديدة ، وحقّق فتوحات كثيرة ، بعد ذلك كلّه تحوّل ضد التركي بيازيد ، سلطان العثمانيين وأحد أعاظم الأسياد ، في هذا العالَم ، فقاتله ، وهزمه ، وأخذه أسيراً» .

هكذا كتب الفارس الاسباني كلافيجـو ، الذي حظي بالمثول أمـام تيمورلنـك ، ورأى في بلاط الفاتح ، في سمرقند ، أميرات من معظم العائلات المالِكة في العالَم ، وسفراء من مصر والصين .

لم يُعط تيمورلنـك مكاناً في تاريخ أوروبا ، ولا توجد في صفحات هذا التاريخ سوى انطباعات عابِرة عن الـرعب الذي أثـاره . أما بـالنسبة لسكّـان آسيا ، فـلا زال تيمورلنـك هو السيِّد الأعلىٰ . لقد أنقذ مجلس الكوريلتـاي ، عام ١٢٤١م ، أوروبـا الغربية من احتلال مغول جنكيزخـان . وأنقذت أوروبا ، مرة أخرى ، عام ١٤٠٣م ، بعد معركـة أنقرة وهزيمة السلطان العثمـاني بيازيـد ، بإسـراع تيمورلنـك عـائداً إلى سمرقند ، للاستعداد لغزو الصين .

---

(١) إيران وبلاد ما وراء النهر.

إن تيمورلنـك ، وقد مضى على وفاته زهاء ستة قرون ، كان الخاتمة في سلسلة الفاتحين العمالِقة : قورش العظيم ، الإسكندر ، جنكيزخـان ، تيمورلنـك . ليس لدى الأتراك العثمانيين مثيل له . وقد انتهى نابوليون إلى الفشل والعار ، وكذلك هتلر ، أما تيمورلنـك فقد أوجد أمبراطورية ، وخـرج رابحاً منتصـراً من كل حملة ، ومـات وهو يتحرّك باتجاه الصين ، آخر دولة كان لها ما يكفي من القوة للوقوف في وجهه ولو إلى حين .

ولكي يكون من الممكن أن نتفهم ما حاوله ذلك العملاق ، وما حقّقه ، يجب أن ننظر إليه كما عاش . ولكي نستطيع ذلك ، علينا أن نضع جانباً تواريخ أوروبا وسواها من الأقطار المعادية للفاتح ، وأن ننأىٰ بأبصارنا عن الحضارة المعاصِرة وتحاملها وتحيّزاتها ، ونتطلع إلى تيمورلنـك بأعين الرجال الذين كانوا في معيته . علينا أن نخترق حجاب الرعب ، وأن نذهب إلى ما وراء أبراج الجماجم البشرية ، إلى أعماق آسيا ، على طول الطريق الرئيسي المؤدِّي إلى أرض الشمس ، على طريق سمرقند .

علينا أن نعود إلى الوراء ، إلى العام الميلادي ١٣٥٥ ،

الموافِق للعام الهجري ٧٣٦ ،

وأن نبدأ بإعطاء صورة عن الأرض والناس .

والغاية الرئيسية من هذا الكتاب هي الناحية العسكرية خـدمة للعسكـريين الذين يسعون وراء المعرفة! .

الفَصل الأوّل

الأرض والناس

لمحة تاريخية ـ موجز جغرافي : الأرض ـ الماء والمناخ ـ تأثير الظـواهر الجغرافية .

[١]
لمحة تاريخية

تقع آسيا الوسطى ، كما يدلّ اسمها عليها ، في قلب القارة الأوراسية[١] ، بعيدة عن البحار الملاصِقة للكتلة القاريّة الضخمة . إنها بلاد جافّة ، وأرض معشوشبة ، أرض كـلأ ومرعى ، أرض سهول وصحاري ، لا يسكنها غير أولئك الذين خبروا طبيعتها ، واكتشفوا أماكن المياه فيها ، وعرفوا كيف يتناولون هذا الماء وفق احتياجاتهم .

كانت هذه الأرض ، منذ ما قبل التاريخ ، بمساحاتها الشاسِعة ، ممراً لحركة الناس والآراء بين الشرق والغرب . وفي حين أن غالبية الأقوام التي دخلت إلى هذه المنطقة كانت في طريقها إلى أوروبا ، أو جنوب آسيا ، فإن بعضها قد بقي في هذه الأرض ، وتبنّى طريقة العيش والحياة التي تفرضها طبيعة الأرض والمناخ .

وقد ظهرت ، منذ وقت مبكر ، في الألف الرابع قبل الميلاد ، مستوطنات ريفية ، شبيهة بتلك التي قامت على الهضبة الإيرانية ، على التلال السفحية ، عند ملتقى السيول الجبلية بالسهول ، وفيضانها لإرواء الأراضي الجافة الممتدة على ضفافها . ومع تقدّم المهارة في حفر الأرض ، والتحكم بقنوات الري ، بدأ الفلاحون يقيمون القرى عند النقاط المتوسطة لمجاري الأنهار التي كانت تفيض بمياهها على السهول ، وإلى جانب

(١) الأوروبية ـ الأسيوية .

الجداول والينابيع في أودية الجبال المرتفعة ، حيث كانت مصادر المياه .

وبدأت ، مع مرور الزمن ، تظهر وتنتشر سلسلة من المدن والواحات ، رابضة بين الحدائق والبساتين وحقول الحبوب ، ممتدة كالأصبع خلال جنوب وسط آسيا ، من دلتا نهر أموداريا (جيحون) إلى جنوب بحر أرال (بحر خوارزم) ، وحتى «لوب ـ نور» على حدود الصين . ونجحت بعثات الاستكشاف الصينية ، في القرن الثاني قبل الميلاد ، في افتتاح طرق للقوافل تربط الصين مع الهند وبلدان الغرب ، وكان من جراء ذلك أن قامت تجارة مزدهرة ، وعظمت مكاسب التجّار وأصحاب الحرف اليدوية ، في المدن الواحات ، الواقعة على طريق القوافل .

وكانت تقع ، إلى الشمال من حزام الواحات ، سهول معشوشِبة أكثر ملاءمة للمراعي منها للزراعة . في هذه السهول ، حوالي الألف الأول قبل الميلاد ، أخذ يبرز نمط حياة خاص ، نمط رعاة البداوة ، أو البداوة الإرعائية . وفي هذه الأثناء ، كان سكان الجنوب قد توصلوا إلى تدجين كثير من الحيوانات : غنم ، ماعز ، بقر ، خيل ، حمير وجمال ، لكن الحياة كلها ، لدى بدو الشمال ، كانت مركزة على الماشية ، وبخاصة الخيول التي كانت تمنحهم السرعة والحركية . كانوا يتحركون ، ببيوتهم المتنقِّلة ، من مرعى إلى مرعى ، تبعاً للمواسم ، يتغذون من اللحوم ومشتقات الحليب ، ويصنعون من الجلود صوفاً وأحذية ولباساً وغطاء ، ومن عظام الماشية كل مستلزمات الملجأ والملبس والتجهيز . كان هؤلاء البدو الرعاة يعيشون من مواشيهم ولأجلها ، باستقلال عن المستوطنين المقيمين ، الذين يزرعون الأرض اعتماداً على الأنهار وينابيع الأودية .

كانت الحدود ، بين الحقول المزروعة والسهوب ، وتبعاً لتقلّبات الظروف وتطورات الأحداث التاريخية ، دائِبة التغيير والحركة ما بين تقدّم وتراجع . وكان البدو ، في بعض الحالات ، ينقضّون على الواحات ، يدمِّرون العمران والمرافق وأنظمة الري التي تجعل الحياة في المدن ممكنة مثمرة .

استمر هذا النمط الأساسي لشكل الحيَاتَيْن ، الحضرية والبداوة ، قائماً لنحو ثلاثة آلاف سنة . وفي حين كان هذان الشكلان من الحياة يتعاقبان ، كانت أقوام عدة دائبة على الاجتياز إلى داخل آسيا الوسطى ، إما متوقفة لبضعة عقود أو قرون قبل أن تعاود الحركة ، أو باقية مقيمة لتندمج مع السكّان السابقين .

المؤرِّخ اليوناني المعروف ، هيرودوتس ، كتب وصفاً للرعاة البدو في ذلك الزمان . قال :

«ـ كان السيثيون (الشاقاص) يقيمون شمال البحر الأسود . وإلى الشرق بعيداً عن هؤلاء ، على ضفاف نهر سيرداريا (سيحون) ، مباشرة إلى الشرق من بحر أرال ، كان يقيم المساجيتيون . وإلى ما وراء المساجيتيين ، على ضفاف نهر سير داريا كذلك ، كان يقيم الصغديون[١] . كانت كل هذه العناصر من أصل أندو ـ إيريـان ، وقد انصهـرت بقاياها فيما بعد معاً ، لتشكِّـل شعب بارثيـا (أو بارصـا) ، وهـو التعبير القـديم لكلمة برص[٢] ، أي بلاد فارس» .

وإلى جنوب هذه المناطق القبلية ، كانت تقوم المـدن والقرى المحصّنـة لسكّان الواحات . وعلى ضفاف أمو داريا ، عند منتصف مجراه ، كانت توجد منطقة بكتريا[٣] ، وعاصمتها بكتـرا ، وهي اليوم الجـزء الشمالي من أفغـانستان . ويـوم غزا الإسكنـدر المكدوني هذه المنطقة ، كان لدى البكتريين حقول مزروعة بالأرز ، وهو زرع يستدعي سقاية شديدة . وكانت مدينة ماراكنـد ، أي سمرقند الحالية ، من جملة المدن المحصّنة التي واجهته . كما أن الصغديون ، الذين سكنوا ما بين النهرين ، أمو داريا وسير داريا ، كانت لهم أيضاً مواقع ومدن محصّنة . وكانت بلادهم تدعى قديماً سوكديانا ، وهي فيما بعد إمارة بخارىٰ ومنطقة سمرقند . وقد جاء الصغديون في الأصل من غرب سيبريا .

كوّنت القبائل الرحّل ، على مدى قرون عديدة ، تهديداً عظيماً للمقيمين من سكان القرى . وفي القرن الثالث قبل الميلاد ، قام أحـد خلفاء الإسكنـدر المكدوني ، من السلاجقة ، ببناء جدران عالية حول مدينة مرف[٤] ، وذلك لحماية المدينة والواحة من البدو . وكان هؤلاء البـدو قبائـل عدة ، ومعـظمهم من السيثيين (الشاقـاص) السابقي الذكر ، ويتكلّمون لغة هندو ـ أوروبية ، وقد دخلوا في التاريخ عبر الـوثائق اليـونانيـة والفارسية .

وكـان هناك بـدو آخرون ، جـاءوا أولاً من حدود الصين ، وفي مقـدمتهم قبائـل

---

(١) SAKAS.

(٢) PERSE.

(٣) BACTRA، والعاصمة بكترا هي اليوم مدينة بلخ في شمال أفغانستان.

(٤) MERV، مرو فيما بعد.

اليوئيشية ، مدفوعة غرباً من قِبل قبائل هيونغ ـ نو ، في القرن الثاني قبل الميلاد ، وقد استوطنت زمناً في قطاع المساجيتيين ، ثم انتقلت لتستوطن في منطقة بكتريا . ثم جاءت قبائل الهياطلة ، قريباً على أعقاب قبائل اليوئيشية ، في حركة متواصلة باتجاه أوروبا ، ومن خلالها قبائل أفتاليت هوني ، التي أخضعت الصغديين ، في القرن الخامس بعد الميلاد ، وهي في طريقها إلى اجتياح الهند .

وفي القرن السادس بعد الميلاد ، أخذت القبائل التوركية[1] تتدفّق على غرب آسيا الوسطى . بدأ التوغّل بالبشتاق ، الذين اقتطعوا لأنفسهم جميع الأراضي الواقعة بين نهري الفولغا والأورال . ثم جاءت قبائل الأوغوز[2] ، في القرن الميلادي التاسع ، فطردت قسماً من البشتاق من أراضي ما بين النهرين ، حيث استقر بعضها ، بينما تابعت الأكثرية حركتها ، جنوباً وغرباً ، إلى داخل إيران وأفغانستان وآسيا الصغرى . ثم جاءت ، بعد الأوغوز ، قبائل الكبتشاق ، في تنظيم اتحادي ، وقد شكّلت فروعها ، على ممر الزمن ، معظم سكان غرب آسيا الوسطى وأفغانستان . وكان المغول أول القادمين الجدد بعد هذه القبائل التوركية .

ففي الربع الأول من القرن الميلادي الثالث عشر ، غزا جنكيزخان ، أمبراطور المغول ، بلدان الغرب ، ووضع الأسس للسيطرة السياسية للمغول ولأبنائه من بعده : جوشي في جنوب روسيا ، جغطاي في غرب آسيا الوسطى ، وتولي في إيران وأفغانستان . وقد اجتذب المغول لجيوشهم الظافِرة كثيراً من القبائل التوركية، مما أدّى إلى تتريك المخاطبة لدى المغول الذين أقاموا في الغرب ، وإلى اختفاء اللغة المغولية من غرب آسيا الوسطى . ولقد استمرت ، باتجاه الغرب ، حركات ارتشاح مغولية لمدة قرنين وأكثر بعد جنكيزخان ، لكن عملية تتريك اللغة بقيت عامة مستمرّة . غير أن الثقافة الأدبية كانت إيرانية .

إن السكان الأوائل لآسيا الوسطى ، المستوطنين منهم والبدو الرحّل ، كانوا بِيضاً من فئة القوقازيين . ثم أخذت تظهر ، خلال الألف الأول قبل الميلاد ، جماعات بِسِمَاتٍ مغولية . لكن الشكل المغولي لم يبدأ بالظهور واضحاً ، لدى السكّان ، إلاّ في القرن الثالث عشر ، نتيجة لفتوحات جنكيزخان وما أحدثته من استيطانات مغولية . إن

---

(١) هي الأسرة القبلية الجذور، التي تشمل التركية والأذربيجانية والتركمانية والقيرغيزية والبشتاق والأوغوز والغور الخ . . .

(٢) قبائل التركمان العراقية في التاريخ الإسلامي.

السِمات المغولية : شعر مستقيم غير جعد ، وبروز عظام الوجه ، عيون مائلة مشدودة الأطراف ، لحىً نادرة ، هي قليلة في الشمال والشمال الشرقي ، وتخف تدريجاً مع الحركة نحو الجنوب والجنوب الغربي، وهي مفقودة كلية لدى قبائل الطاجيق، في الجبال الجنوبية الشرقية .

اختتمت جيوش جنكيزخان وخلفائه تحركات البدو الكبرى نحو غرب آسيا الوسطى ، وقد استمرت ما يزيد عن ألفي سنة . لكن القبائل البدوية واصلت تجوالها المضطرب ، داخل آسيا الوسطى ، بعدئذ قروناً عديدة . غير أنه لما أخذت الدولة المسكوفية ، في القرن الخامس عشر ، بالتوسّع جنوباً ، فقد تسبَّب ذلك في حدوث حركة تراجعية للعناصر التوركو- مغولية ، من إقطاعية جوشي ، بكر جنكيزخان . وكانت هذه الإقطاعية قد انقسمت إلى مجموعتين :

- المجموعة الذهبية[1] ، المتمركزة على ضفاف نهر الفولغا .

- والمجموعة الفضيّة ، المنتشرة شرقاً ، من بحر قزوين حتى جبال الأورال ، داخل سهوب ما يُعرف اليوم بقزاخستان وبأجزاء أخرى من سيبريا الجنوبية .

ومع اشتداد الضغط المسكوفي وتصاعده على المجموعة الذهبية ، فقد اضطرت هذه إلى الانتقال إلى مواطن المجموعة الفضيّة .

وبينما كانت هذه الأحداث جارية ، قام أبو خير (١٤١٣ - ١٤٥٩) ، وهو رئيس لإحدى فروع المجموعة الفضية ، وخليفة لِجَدٍ له يدعى يزبك ، بمحاولة لبسط نفوذه وسيطرته على السهوب الشمالية ، لكن دون نجاح . بَيْدَ أن حفيده ، شيبان خان ، استطاع إخضاع مدن وقرى الواحات في تركستان . وكان من حصيلة هذا الظفر أن صار اسم يزبك يُطلق على جميع الأقوام التي تتكلّم التركية ، في الواحات الجنوبية . أما بدو السهوب الشمالية ، الذين حافظوا على استقلالهم ، فقد اكتسبوا اسم قازاق ، بمعنى الرجل الحر . وفي عام ١٥٨١م ، قام الزعيم القازاقي أرمال ، بتوجيه من الروس ، باجتياز جبال الأورال ، كخطوة أولى نحو احتلال سيبريا ، كردّ على تعدّيات بعض القبائل ، في جنوب هذه البلاد ، على تجّار الفرو من الروس .

وكانت حركة أخيرة ، لم تعمر طويلاً ، من جانب الأويرات مغول الغرب ، بريادة قبيلة جونكار ، في القرن السابع عشر ، عندما أسّس هؤلاء المغول ، لأنفسهم ، دولة

---

(١) GOLDEN HORDE أو الهوردة الذهبية.

باسم جونكاريا (منغوليا الخارجية) ، في القسم الشرقي من آسيا الوسطى . وفي أوائل القرن الثامن عشر ، نتيجة لحروب مع الصين ، ومع مغول الخلخا من سكان منغوليا ، قامت جماعات من الأويرات بافتتاح ممرّ لمرورها عبر الأراضي المعشوشبة ، في غرب آسيا الوسطى ، حتى نهر الفولغا، حيث صاروا يعرفون فيما بعد باسم كالموكس . وقد تسببت هذه الهجرة الجديدة بتنحية وانزياح قبائل أخرى على نفس الاتجاه . وقد تأتّى عن قيام دولة جونكاريا وتوسعها شرقاً ، أن صغرت مساحة أراضي الرعي ، التي كانت متوفِّرة قبلئذٍ لبدو غرب آسيا الوسطى ، كما حدَّ التوسع الروسي من جانبه ، في ذات الوقت ، من حجم المراعي في نواحي أخرى .

وفي مستهل القرن الثامن عشر ، عمل تقدّم الاستيطان الروسي ، البطيء المضطرد ، على تضييق مناطق القازاق (أو القوزاق) ، في السهوب ، من ناحيتي الشمال والغرب ، وعلى دفع هؤلاء إلى التراجع إلى مناطق القاراكولباك[1] والتركمان والأوزبك . وفي عام ١٧١٨م ، أقيمت قلعة روسية في ناحية سيميبلا تينسك ، فتم بذلك تأسيس حزام من القواعد الروسية والمستوطنات الأمامية ، على طول نهر إرتيش ، بدءاً من أومسك على الحدود السيبرية . وكذلك تأسست ، في الغرب ، مستوطنة روسية عام ١٧٣٦م ، وهي مدينة أورنبورغ ، التي تحوّل اسمها ، فيما بعد ، إلى أورسك ، في جبال الأورال الجنوبية . وتتابع بناء المستوطنات الروسية ، فكانت مستوطنة أورنبورغ الجديدة ، عام ١٧٤٢م ، على نهر سمارا ، وعرفت فيما بعد باسم شكالوف ، وقد أقيمت كمرساة وقاعدة لسلسلة من القلاع المؤدِّية إلى بحر أرال وبحر قزوين .

وفيما يتعلّق بالقبائل الإيرانية والتركية والمغولية ، التي سكنت غرب وسط آسيا عصوراً عدّة ، فقد بقي بعضها في مكانه ليندمج بالتالي مع السكان السابقين ، وانطلق الباقون في اتجاهات مختلفة . وقد صارت هذه الأقوام ، في نهاية المطاف ، تركية اللغة ، وصنفت نفسها بتأثير التكيف مع البيئة الجغرافية والثقافية المحيطة بمناطق سكنها ، متوزعة هكذا إلى جماعات عرقية ، بتسميات قد تأتّت عن خليط خاص من مميزات قبلية وظروف تاريخية .

وكان يجري باستمرار ، طوال زمن يربو على ألفي سنة ، ارتشاح قبلي باتجاه

---

(١) القلابك السود.

الواحات . وباستيطان هؤلاء البدو في القرى والمدن بصورة مستقرّة ، فقد تبنّوا بالتدريج ثقافة هذه الواحات . وهكذا ، وبالرغم عن تحركات بدوية مضطربة ، وانتفاضات دورية عنيفة ، فإن المعالم الأساسية للثقافة في آسيا الوسطى حافظت على طبيعتها دون كبير تغيير .

كان البدو الرحّل يشغلون الصحاري والأراضي المعشوشِبة . وكان سكان القرى والمدن ، في الجنوب ، يزرعون الحقول والبساتين التي أخصبها الري المنتظم ، ويتعاطون كذلك حرفاً يدوية وممارسات تجارية كانت واسطة إلى ربط الواحات مع البلدان والثقافات في آسيا الجنوبية والشرقية.

وبينما كان يجري اجتذاب العناصر القبلية إلى عالم الثقافة في الواحات ، كانت الواحات بدورها تتأثّر بالآراء والتقنيات لدى الجوار من أصحاب الحضارات التقليدية . فمنذ ما قبل التاريخ ، كان أقوى تأثير ثقافي لأقرب جار ، أي لإيران . كان هذا التأثير بارزاً قوياً في نواحي الاقتصاد ، أوجه الحكم ، الحياة العائلية ، الفنون والدين . إن الإسلام ، على سبيل المثال ، دخل الواحات في غضون قرن من الزمن ، عقب دخوله إلى إيران . وإن ثقافة الواحات ، المتأثِّرة بفضلات القبائل من أهل السهوب ، وبالعلاقات التجارية مع أقطار أخرى ، كانت لها خصوصيتها المتميزة ، لكن خصوصية تتوفر فيها العناصر الإيرانية إلى حدٍ كبير.

[٢]
الأرض

لن يقتصر هذا العرض على المنطقة الصغيرة التي نشأ فيها تيمور ، بل سيتعدى إلى بلاد ما وراء النهر بكاملها ، وهي البلاد التي حلّت فيها القبائل التوركية المختلفة التسميات ، والتي كوَّن أحفادها المجتمع الذي أشرنا إليه باسم المجتمع الطوراني ، أو مجتمع الأتراك الجغطائيين.

أطلق اليونانيون القدماء ، وكذلك الأوروبيون اليوم اسم «ترانس ـ أكسيانا» على بلاد ما وراء النهر . وهذا الاسم مشتق من اسم «أكسوس» لنهر أمو داريا . وقد اقتصرت بلاد ما وراء النهر ، بعد الفتح المغولي ، على المناطق القريبة من نهر أمو داريا ، وهي مناطق الصغد وفرغانة والشاش وخوارزم والأراضي الواقعة عند المجرى الأعلى لهذا النهر . أما

بقية المناطق فقد أطلق عليها اسم تركستان ، وهي كلمة فارسية وتعني أرض الأتراك ، وتمتد إلى ما وراء نهر سير داريا.

تسير الحدود ، في جزء منها ، مع شواطىء نهر سير داريا حتى مصبّه في بحر أرال ، ويمتد خط الحدود بعد ذلك حتى مدينة أوترار ، الواقعة عند التقاء نهر آريس بنهر سير داريا ، مارّاً بمدينة «أوليا ـ أتا» في جبال «تيان ـ شان» ، وثم بمدينة إسفيجاب ، الواقعة على نهر آريس السابق الذكر ، وهو أحد روافد نهر سير داريا . وتقوم جبال هندوكش على الحدود الشرقية ، ثم يمتد خط الحدود ، بعد ذلك ، حتى هضبة بامير ، ومن هنا ينطلق شمالاً إلى وادي فرغانة مارّاً بجبال تيان ـ شان . وتتكوّن الحدود الغربية والجنوبية من بحر أرال وصحراء كيزيل ـ كوم وصحراء قره ـ كوم . هذه الحدود تحيط بأرض تبلغ مساحتها (٧٥٠) ألف كيلو متر مربع تقريباً ، وهي بمثابة حوض مغلق ردمته الرواسب والمجروفات الهابطة إليه من المرتفعات المحيطة.

تقسم بلاد ما وراء النهر ، جغرافياً إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم يشمل الشمال وغرب البلاد ، وهو صحراء مقفرة واسعة تعرف باسم كيزيل ـ كوم ، أي الرمل الأحمر.

٢ ـ وقسم يتألّف من مرتفعات جبلية ويقع في الجنوب والشرق.

٣ ـ وقسم يقوم محصوراً بين القسمين السابقين ، ويتألّف من مجموعة من الأودية والواحات الخصبة ، وهو المنطقة الحضرية من البلاد.

تبلغ مساحة الجزء الصحراوي أكثر من نصف المساحة العامة ، ومعظمه بحر من الرمال الحمراء اللون ، تعصف فيه الرياح ، وتنتشر التلال ، وتنتقل فيه الكثبان من مكان إلى آخر بفعل الرياح . وتقع إلى جنوب صحراء كيزيل ـ كوم صحراء أخرى هي صحراء قره ـ كوم ، عبر نهر أمو ، وتتميز عن الصحراء الأولىٰ بلون رمالها الأسود وبانخفاض سطحها.

يتصل القسم الثاني مباشرة بالجبال الممتدة إلى الصين ، وبالجبال الممتدة إلى الهند . وهذه الجبال ، بوجه عام ، هي سلاسل التوائية ، تتجه من الشرق إلى الغرب بشكل متوازٍ ، تفصل بينها أودية الأنهار . وأهم هذه الكتل الجبلية جبال تيان ـ شان ، التي تشرف سفوحها على بحيرة «إيزيك ـ كول» ، ومعناها البحيرة الدافئة بسبب أن

مياهها لا تتجمد شتاء . وكانت طرق التجارة ، بين الصين وآسيا الغربية ، تمرّ جنوب هذه البحيرة.

ينبع من سفوح جبال تيان ـ شان نهر شو ، الذي ينتهي إلى بحيرة سومل ـ كول الصغيرة ، الواقعة جنوب بحيرة إيزيك ـ كول . وقد قامت في حوض نهر شو دولة الأتراك القرخانيين (قراخيتاي) ، التي كانت نهايتها على يد جنكيزخان ، في أوائل القرن الميلادي الثالث عشر . وتنحدر الروافد العليا لنهري أمو داريا وسير داريا من السفوح الغربية لجبال تيان ـ شان ، وتتغذى هذه الروافد من ثلوج القمم عند ذوبانها.

وإلى جنوب جبال تيان ـ شان ، وموازياً لها ، تقوم جبال ألتاي ، ويقع بين هاتين الكتلتين سهل فرغانة الخصب . وتتوزع كتلة جبال ألتاي باتجاه الغرب ، إلى ثلاث سلاسل هي ، من الشمال إلى الجنوب: جبال تركستان ، وجبال زرفشان ، وجبال حصار.

أما القسم الأرضي الثالث من بلاد ما وراء النهر ، الواقع بين قسمي الصحراء والجبال ، فهو وادٍ يبلغ متوسط عرضه حوالي (١٥٠) كيلو متراً ، وأهم أجزائه منطقة الصغد في حوض نهر زرفشان . وهذه المنطقة خصبة غنية نضرة ، ومدنها الرئيسية بخارىٰ وسمرقند . وإلى جنوب حوض الصغد يقوم حوض ثانٍ لعدد من الروافد أهمها نهر كشقداريا ، ومن مدنه كيش ونسف . وقد وُلد تيمورلنك في الوادي الأخضر ، وهي قرية تقع في جوار كيش . وقد دعيت كيش ، فيما بعد ، باسم «شهري ـ سيز» ونسف باسم «قارشي».

وإلى الشمال الشرقي من حوض الصغد ، يقع وادي فرغانة الخصب ، القائم بين جبال ألتاي جنوباً ، وجبال تيان شمالاً . هذا الوادي سهل منبسط وتسقيه روافد جبلية كثيرة ، وطوله (٣٣٥) كيلو متراً تقريباً . ومن مدنه: أنديجان ، خوجند وأوزكند . ويقوم إلى الشمال الغربي من وادي فرغانة حوض وادي الشاش ، عند منعطف نهر سير داريا نحو الشمال . وتحدّ هذا الوادي ، من ناحية الشرق ، سفوح جبال تيان ـ شان المغطاة بالمراعي ، ومن ناحية الغرب صحراء كيزيل ـ كوم ، ويخترقه نهر سير داريا ، ومن أشهر مدنه: طشقند ، بناكت وأوترار.

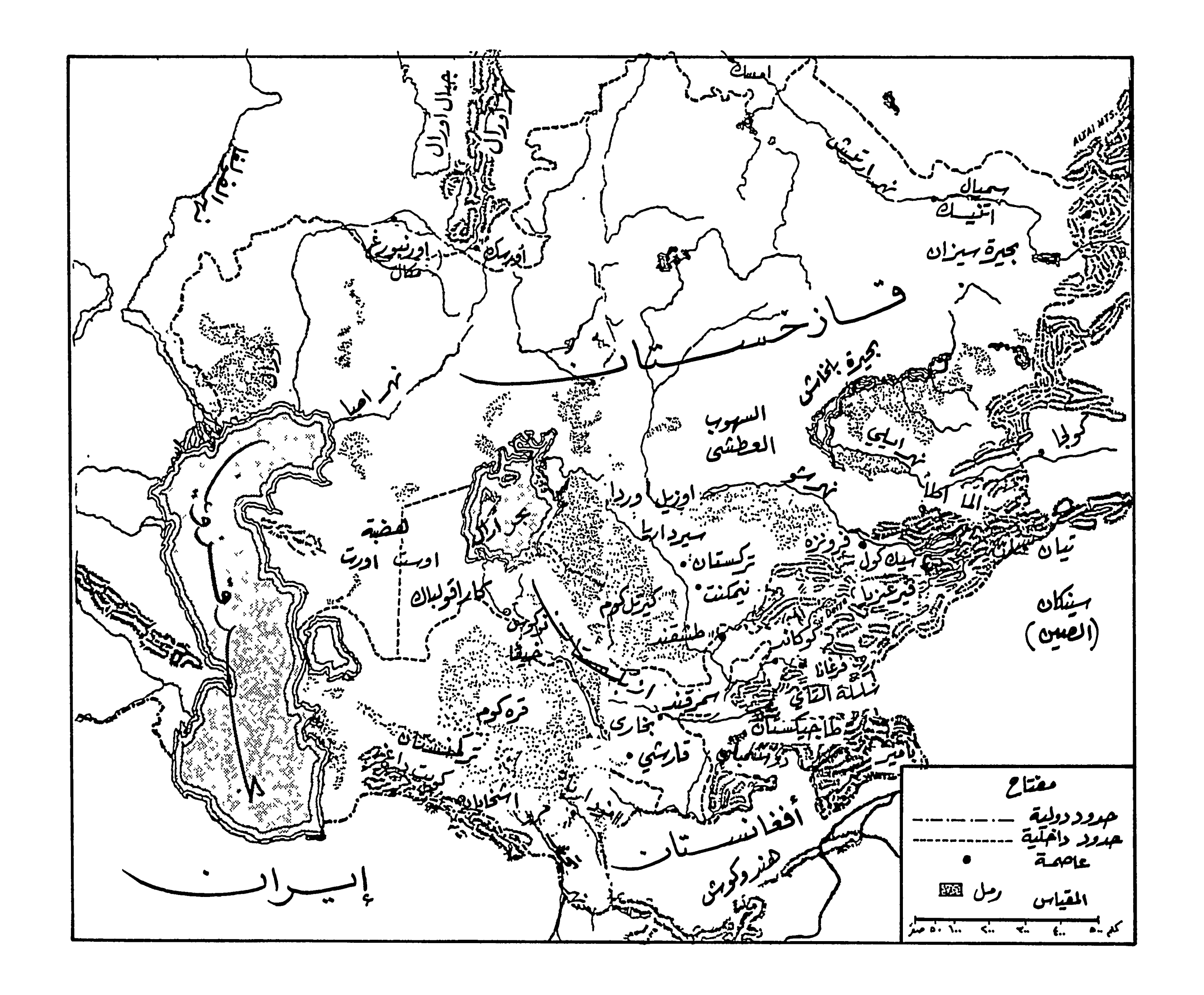
[٣]
المناخ والمياه

بلاد ما وراء النهر بعيدة عن البحار . وهذا البُعد يجعلها بمنأى عن المؤثّرات البحرية . والمسطحات المائية القريبة من البلاد ضئيلة المساحة ، ولا تلعب لذلك دوراً هاماً في تلطيف المناخ . غير أن الجبال العالية ، الممتدة في جنوب البلاد وشرقها ، تحتجز بعض الرطوبة من الرياح القادمة من المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط . وبلاد ما وراء النهر مفتوحة في بعض أجزائها ، من جهة الشمال ، أمام الرياح القطبية القادِمة عبر سيبريا ، مما يجعل المناخ بارداً جداً في فصل الشتاء ، ويؤدِّي إلى تساقط الثلوج بغزارة ، ويجمِّد مياه الأنهار . وقد تنخفض الحرارة ، في بعض المناطق الجبلية ، إلى (٣٠) درجة مئوية تحت الصفر . يبدأ الثلج بالتساقط من شهر كانون أول إلى أواخر شهر شباط . والانتقال من برودة الشتاء إلى حرّ الصيف يقع بصورة مفاجِئة . والحرارة في شهر أيّار مرتفعة ، وقد تصل ، في بعد المناطق ، إلى نحو (٥٠) درجة مئوية . وتستمر الحرارة مرتفعة حتى شهر أيلول.

تمتاز الرياح الصيفية بسرعتها التي قد تبلغ أحياناً (٩٠) كيلومتراً في الساعة ، وتكون عادة محمّلة بالغبار والرمال ، ضارّة بالنباتات ، جافة ، تعبث بعنف بتضاريس الأرض الصحراء ، ناقِلة الكثبان من مكانٍ إلى آخر.

تأتي الأمطار ، من جهة الغرب والجنوب الغربي ، بفعل الرياح القادِمة من البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي . والأمطار قليلة بصورة عامة ، ويبلغ معدّلها ، في معظم المناطق ، ١٢٥ مم ، وهي تهطل في فصل الصيف ، فتساعد النباتات في وجه الحارة المرتفعة.

إن بلاد ما وراء النهر حوض مغلق . وتنتهي مياه هذا الحوض إلى بحر مغلق أيضاً هو بحر قزوين . ويمثِّل نهر أمو داريا ، وسير داريا ، مع روافدهما ، الثروة المائية الرئيسية ، ويليهما في الأهمية نهرا الصغد وكشقداريا . يبلغ طول نهر أمو داريا (١٨٥٠) كيلومتراً ، وسير داريا (١٥٠٠) كيلومتر . والأول أقل غزارة وعمقاً ، ولذا فهو أقل فائدة من سير داريا.


قازخستان
إيران
أفغانستان
بحر قزوين
بحر آرال
بحيرة بلخاش
بحيرة سيزان
السهوب العطشى
هضبة اوست اورت
قره كوم
قيزيل كوم
تركستان
سيرداريا
طشقند
سمرقند
بخارى
خيفا
قارشي
طاجيكستان
قيرغيزيا
كولجا
سينكان (الصين)
هندوكوش
نهر اميا
نهر ايلي
نهر ارتيش
جبال اورال
مفتاح
حدود دولية
حدود داخلية
عاصمة
رمل
المقياس

ينبع أمو داريا من هضبة بامير ، ويتجه من الشرق إلى الغرب ، وروافده كثيرة أهمّها وأطولها نهر كيزيل ـ صو ، أي النهر الأحمر ، ويأتي من جبال ألتاي . وهذا النهر يدعىٰ أيضاً وخش ـ آب . وبعد أن يتجاوز مدينة ترمذ ، يعبر منطقة صحراوية لا روافد له فيها ، ويخرج منها من مضيق بين جبلين ، وعرضه (٦٠) متراً في بعض الأماكن . يندفع النهر من هذا المضيق بهدير هائل ، ثم يختفي تحت الرمال لمسافة (٣٥٠٠) متر . ويتفرع في مجراه الأدنىٰ إلى عدة فروع ، لينتهي آخر المطاف إلى بحر أرال ومنه إلى بحر قزوين.

وينبع نهر سير داريا من الأجزاء الشمالية لجبال تيان ـ شان ، ويسير بعد ذلك متعرِّجاً نحو الغرب والجنوب ، ثم ينعطف غرباً ويلتقي برافده «قره ـ داريا» الآتي من جبال فرغانة ، المطلّة على هذا الوادي . يتكوّن ، من التقاء النهرين ، مجرىً مائي عريض يخترق وادي فرغانة من شرقه إلى غربه ، ويكون بعرض (١٣٠) متراً عند مدينة خوجند . وبعد اجتيازه لهذه المدينة ، يرسم النهر منعطفاً كبيراً نحو الشمال ، ماراً بمنطقتي إيلاق والشاش ، ويصبّ فيه هنا عدد من الروافد منها نهر شرشاك . وفي الجزء الأخير من مجراه يتحوّل نحو الشمال الغربي ، ليدخل في منطقة صحراوية يخسر فيها الكثير من مائه بسبب التبخّر الناجِم عن ارتفاع الحرارة ، وينتهي إلى بحر أرال.

[٤]
أثر الظواهر الجغرافية

تحتل بلاد ما وراء النهر موقعاً متوسطاً بين الصين وآسيا الوسطى وآسيا الغربية ، وبذلك كانت بوابة يمرّ منها عالم الصين وآسيا الوسطى إلى عالم آسيا الغربية . وقد التقت على أرضها العناصر البشرية والنماذج الحضارية لِكِلاَ العالمين . ومما ساعد على أن يكون هذا الالتقاء شديداً ، ومؤثِّراً ومستمراً ، أن طبيعة البلاد تحتوي على مناطق تسمح لكل من هذين العالَمين بالاحتفاظ بعاداته المتوارثة وتقاليده الحضارية.

ففيها المناطق الخصبة ، الزراعية الوفيرة المياه ، التي تمكِّن القادمين من آسيا الغربية من الاستمرار على حياتهم القائمة على الزراعة والاستقرار . وفيها الصحاري والبراري التي توفِّر المراعي ، والتي تمكِّن العناصر البدوية ، القادِمة من قلب آسيا ، من أن تستمر على حياة البداوية والتنقّل والرعي التي اعتادت عليها . ومما ساعد على سهولة الاحتكاك بين العالمين أن أراضيهما كانت متجاورة ولا حاجز طبيعي بينها ، وتجعل

الانتقال من عالم الحضارة إلى عالم البداوة سهلاً ميسوراً . كان هذا واضحاً في العصر التيموري . وكان المجتمع مقسوماً إلى فئتين:

- القبائل التي تمثِّل عنصر البداوة.

- وسكان المدن والقرىٰ والواحات ، الذين يمثِّلون العنصر المستقرّ.

إن التنوع والتعقيد ، في مظاهر الحياة البشرية ، إضافة إلى ظواهر طبيعية جغرافية غير ثابتة ولا مستقرّة ، لتفسّر لنا جانباً آخر من جوانب الحياة البشرية في هذه البلاد . فالهزّات الأرضية ، التي تنتاب البلاد من وقت لآخر ، والأثر التدميري العنيف للرياح الهوجاء ، والتغييرات المناخية المفاجئة ، كل ذلك أعطىٰ سكّان الصحراء طبيعة التغيير والتنقّل وعدم الاستقرار ، وطبعهم بالقسوة والجَلَد وحبّ المغامرة . إنه عالم براري مقفرة ، عالم حذر وترقّب وعدم ثقة ، وعالم ينعدم فيه الأمن وتسري فيه الإشاعات بسرعة البرق.

وحياة الصحراء ، وما تتطلبه من قوة جسدية ، ومهارة في الفروسية ، ومعرفة بكل أنواع الأسلحة ، ولَّدت لدى أصحابها شعوراً بالزهو والخيلاء ، وحملتهم على الاعتقاد بأنهم أرفع منزلة من المُزَارِع وساكن المدينة ، وأن الفضائل الإنسانية ، متمثِّلة بالرجولة والشجاعة ، مقتصرة عليهم.



الفَصل الثاني

خلاصة تاريخية

الحكم العربي ـ بعد الحكم العربي ـ البابوية وسياستها الشرقية ـ الحالة السياسية في أوروبا ـ العالم الإسلامي: المماليك ـ المغول ـ العثمانيون ـ الجلائريون ـ المظفريون ـ الكرتيون ـ السربداريون ـ التركمان ـ الهند ـ الصين.

[١]
الحكم العربي

دام الحكم العربي ١١٨ سنة (٨٧ ـ ٢٠٥هـ/ ٧٠٦ ـ ٨٢٠م) . كانت موجة الفتح العربي ثاني موجة لبلاد ما وراء النهر ، من جهة الغرب ، بعد حملة الإسكندر الكبير . وقد أخرج الفتح العربي هذه البلاد من دائرة نفوذ الأتراك الشرقيين ، وأحدث تعديلاً واضحاً في عناصر السكّان ، بما رافقه ، أو تلاه ، من هجرات للعناصر العربية والفارسية . ورافق ذلك انتشار الإسلام وتراجع العقائد الدينية الأخرى . وقد اصطدم العرب ، عند قدومهم إلى هذه البلاد ، بالصغد الذين كانوا يسكنون الأودية الخصبة ، وبالأتراك الذين كانت لهم السيادة على البلاد.

كان الفتح العربي بطيئاً ، بسبب وعورة البلاد ومقاومة الصغد والأتراك ، وكذلك بسبب ما كان ينشب أحياناً من خلاف بين القوّاد والحكّام العرب . بدأ الفتح العربي في العصر الراشدي ، وبلغ ذروته في العصر الأموي ، واقتصر على أودية الصغد وفرغانة والشاش ، وغالبية سكّانها من الصغد ، وكانوا أكثر تحضّراً من غيرهم . وقد أقام العرب في هذه الأودية على الدفاع ، إلى أن استلم الفرس السامانيون حكم البلاد في القرن الميلادي التاسع ، القرن الهجري الثالث.

[٢]
بعد الحكم العربي

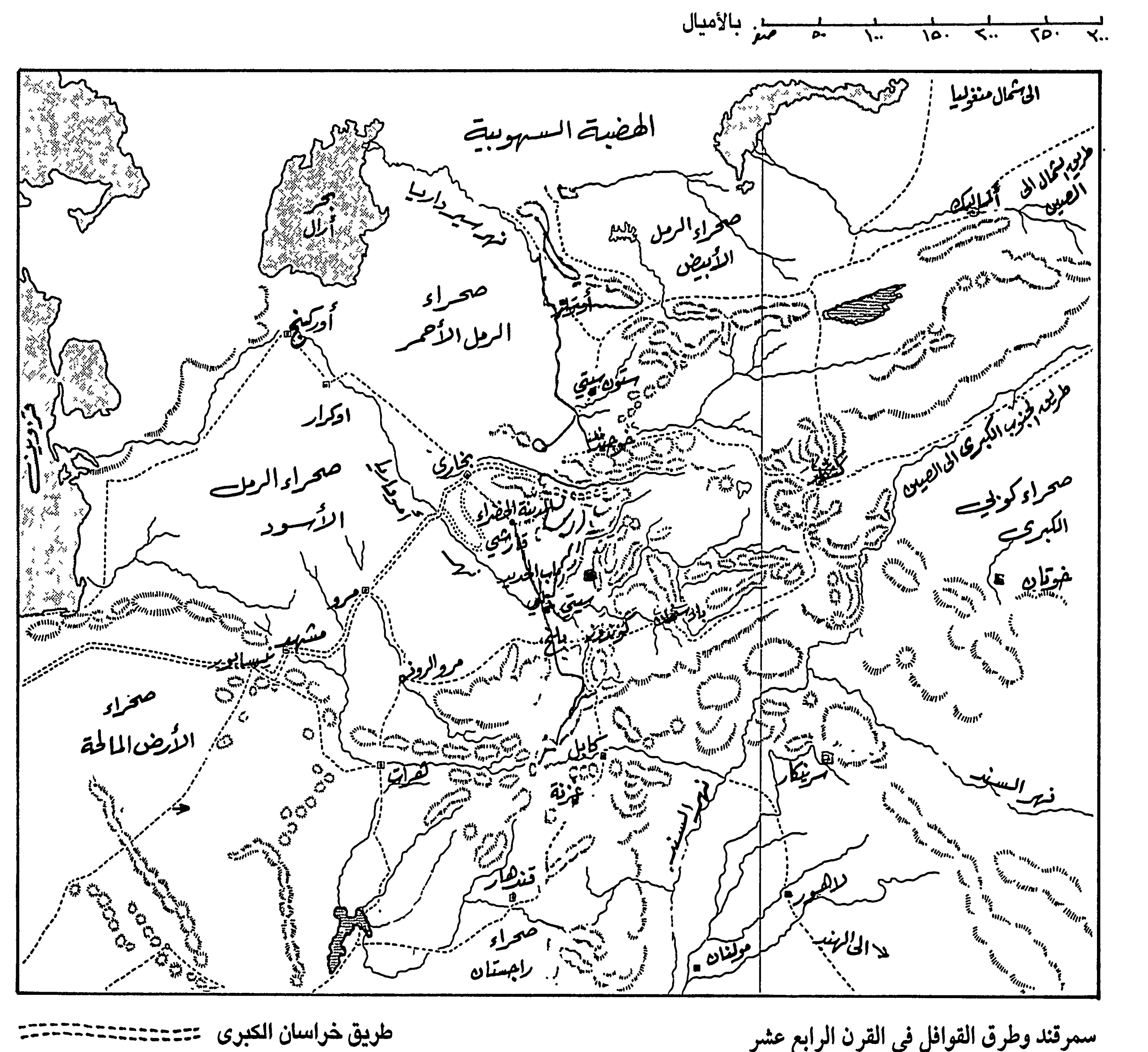
تعاقب على حكم البلاد ، بعد العرب ، الفرس والأتراك والمغول . وقد حكم الفرس والسامانيون خلال القرنين الميلاديَّين التاسع والعاشر ، من مطلع القرن الهجري الثالث إلى نهاية القرن الرابع . كانت البلاد في أول الأمر جزءاً من الدولة الطاهرية ، ثم الدولة الصفارية ، ثم أصبحت كياناً سياسياً مستقلاً تحت حكم السامانيين.

ثم جاء القرخانيون (قره ـ خيتاي) ، عام ٩٩٨م/ ٣٨٩هـ ، فاستولوا على البلاد ، وأنهوا حكم السامانيين والسيادة الفارسية ، مبتدئين عصر السيادة التركية الشمالية . وقد استمرت سيطرة القرخانيين حتى عام ١٢٠١م/ ٥٩٧هـ ، عندما انتزع الأتراك الخوارزميون منهم حكم البلاد.

وفي مطلع القرن الميلادي الثالث عشر ، جاء المغول إلى بلاد ما وراء النهر ، بقيادة جنكيزخان ، وصارت البلاد جزءاً من أمبراطورية عظيمة يحكمها المغول . وبعد وفاة جنكيزخان ، كانت بلاد ما وراء النهر من نصيب ولده جغطاي ، وصارت تُعرف منذئذٍ بأنها جزء من بلاد جغطاي . وكانت خانية جغطاي ، حتى العصر التيموري ، تابعة للخان المغولي الأعظم ، الذي كان مقرّه أول الأمر في قره ـ كوروم في منغوليا ، ثم في الصين منذ ولاية قبلاي خان.

وقد انقطع نفوذ الخان الأعظم على بلاد جغطاي مع وصول الخان الجغطائي «دو ـ وا» إلى الحكم ، ١٢٧٤ ـ ١٣٠٦م . وقد نقل هذا الخان عاصمته إلى مدينة ابتناها في فرغانة ودُعِيت أنديجان . أما ابنه ، الخان كبك ، فقد انتقى لنفسه منطقة تقع بجوار مدينة نسف ، في حوض نهر كشقداريا ، وبنىٰ هناك قصراً أطلق عليه اسم قارشي ، وهو الاسم الذي يُطلق على مدينة نسف حتى اليوم.

وجاء بعد كبك ابنه ترماشين ، ١٣٢٦ ـ ١٣٣٤م/ ٧٢٧ ـ ٧٣٥هـ . وقد اعتنق الإسلام وأطلق على نفسه اسم علاء الدين ، ونظراً لخروج هذا الخان عن التقاليد المغولية وشريعة الياسا ، فقد قام المغول ضده ، فالتفّوا حول أحد أبناء عمومته ، وأعلنوا الثورة عام ١٣٣٣م/ ٧٣٤هـ . وهرب علاء الدين إلى بلخ بقصد اللجوء إلى غزنة ، لكنه اعتُقِل من قِبَل أحد أقربائه ، وأُعِيد إلى قارشي حيث قُتل ودُفن هناك ، عام ١٣٣٤م . وكان ذلك قبل ولادة تيمورلنك بسنتين . وأعيدت بعد ذلك عاصمة الخانية إلى ألماليك ، في حوض نهر إيلي.



طريق خراسان الكبرى

سمرقند وطرق القوافل في القرن الرابع عشر

[٣]
البابوية وسياستها الشرقية

كانت أوروبا ، في القرن الميلادي الرابع عشر ، لا تزال تحلم باستعادة النفوذ الذي كان لها في الشرق أثناء الحروب الصليبية . ولما كانت الأوضاع السياسية السائدة في أوروبا آنذاك لا تساعد على استئناف الحملات الصليبية إلى الشرق ، لذا عمدت البابوية ، التي كانت لا تزال تبدو وكأنّها تتزعّم النشاط السياسي في أوروبا ، منذ قيام الأمبراطورية الجنكيزخانية ، إلى اكتساب المغول إلى جانبها ، وَسَعَتْ إلى تحويلهم إلى المسيحية للاستفادة منهم ضد العالم الإسلامي.

نشطت البعوث البابوية إلى بلاط الخان الأكبر في قره ـ كوروم ، وإلى بلاط الخانات الإيلخانيين في إيران . واستقبل البابا في روما سفراء هؤلاء المغول . وكثرت الإرساليات الكنسية التبشيرية إلى إيران ووسط آسيا والصين . وقد حققت الكنيسة نجاحات في بادىء الأمر ، لكنها لم تلبث أن جُوبِهت بصعوبات منعتها عن متابعة نشاطها . فقد انهارت ، عام ١٣٦٨م/ ٧٧٠هـ ، أسرة «يو ـ وان» المغولية الحاكِمة في الصين ، والمعروفة بتسامحها الديني ، وحلّت محلّها أسرة مينغ ، وكانت معروفة بكرهها للأجانب ، مما حدَّ من نشاط الكنيسة . كما أن انتشار الإسلام في إيران الإلخانيين ، وثم في قلب آسيا ، قطع الطريق على هذا النشاط في هذه المناطق . وكذلك فإن تطور المفاهيم السياسية والدينية في أوروبا لم يعد يمكِّن البابوية الكاثوليكية من ممارسة دور قيادي ، كما فعلت في الحروب الصليبية ، أضف إلى ذلك أن الحكّام الأوروبيين كانوا غارقين في الحروب والخلافات الإقليمية.

[٤]
الحالة السياسية في أوروبا

كانت الأمبراطورية الجرمانية المقدّسة منهمِكة بالمجادلات حول تقوية السلطة الأمبراطورية أو القضاء عليها . وكانت حرب المئة عام ، بين فرنسا وإنكلترا ، تستأثِر باهتمام الفرنسيين والإنكليز ، وما كانوا ليستمعوا لنداءات البابوية من أجل مدّ يد العون للدويلات الصليبية في قبرص ، وإزمير ورودوس.

وكانت الممالك المسيحية المتعدّدة ، في إسبانيا ، تسعى لإخراج ما تبقّى من المسلمين في تلك البلاد . وقد أقام ملوك قشتالة وأراغون علاقات وديّة مع المغول ،

ومع التيموريين فيما بعد ، وأرسلوا بعثات دبلوماسية لهذا الغرض.

وكانت روسيا مقسّمة إلى إمارات متنازِعة ، وجميعها تخضع لسيطرة ونفوذ الجماعة الذهبية والجماعة الفضية . وكان أمير موسكو لا يُمارس سلطاته إلاّ بعد الحصول على مرسوم التنصيب من خان المغول المقيم في عاصمته سراي ، على ضفاف الفولغا . وفي نفس الوقت كان البروسيّون والليتوانيون يفِدُون على الأراضي الروسية من جهة الغرب.

وكانت هناك أمبراطورية بيزنطة في القسطنطينية ، وأمبراطورية طرابزون البيزنطية على سواحل البحر الأسود . وكانت هاتان الدولتان في المراحل الأخيرة من الضعف والإنحطاط . كانت أملاك الدولة العثمانية الفتيّة تحيط بهاتين الأمبراطوريتين المنفصلتين ، وكان أباطرة القسطنطينية دائبين في مساعيهم للحصول على مساعدة الدول الأوروبية الغارِقة في مشاكلها وخِلافاتها الخاصة.

وكانت مملكة أرمينية الصغرى ، في منطقة كيليكيا ، قد انهارت أمام هجمات المماليك ، عام ١٣٧٤م/ ٧٧٦هـ . وقد لعبت هذه الدولة ، في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي ، دوراً هاماً في سياسة العالم الإسلامي ، وكانت حليفة مخلصة للمغول وللدول الصليبية التي كانت قائمة على السواحل السورية.

وكان الصليبيون لا يزالون في إزمير وقبرص ورودوس . وقد ازدهرت مملكة قبرص كمحطّة تجارية بين أوروبا والشرق ، ولعبت دوراً هاماً في سياسة الشرق الأوسط ، ضد الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى ، وضد المماليك في سورية ومصر.

[٥]
العالَم الإسلامي

أ ـ المماليك:

كانت دول العالم الإسلامي عديدة . وكانت دولة المماليك أقدم هذه الدول ومن أقواها ، وتضمّ مصر وسورية والحجاز . وكان الخليفة العبّاسي يقيم في عاصمتها في القاهرة ، منذ سقوط بغداد في أيدي المغول بقيادة هولاكو . كان الحكم بيد المماليك الأتراك ، ومن أعظم سلاطين هؤلاء كان السلطان محمد الناصر بن قلاوون ، ١٢٩٣ ـ ١٣٤١م . وقد خاض هذا السلطان حروباً طاحنة ضد المغول الإيلخانيين[١] ، وأجبرهم

---

(١) دولة المغول في إيران وأفغانستان والعراق وآسيا الصغرى السلجوقية.

روسيا وأوربا الشرقية أثناء العصر المغولي

على إبرام الصلح والامتناع عن مهاجمة الأراضي السورية.

وفي عام ١٣٨٢م ، قام برقوق ، أحد أمراء المماليك الشراكسة ، بالوثوب إلى السلطة ، فأنهىٰ بذلك حكم المماليك الأتراك ، وتلقَّب بالسلطان الناصر . وكان وابنه ، الناصر فرج ، معاصرين للفاتح تيمورلنك موضوع هذا الكتاب.

ب ـ مغول الجماعة الذهبية[1]:

كانت الجماعة الذهبية ، تحت حكم أحفاد جوشي الابن البكر لجنكيزخان ، تحكم روسيا وشمال شرق العالم الإسلامي منذ الفتح المغولي ، في بداية القرن الميلادي الثالث عشر . كانت الحدود الجنوبية لهذه الخانية تصل إلى سواحل بحر قزوين الشمالية الغربية ، وجبال القفقاس وسواحل البحر الأسود الشمالية . وكانت هذه الحدود تفصلها عن دولة المغول الإلخانيين ، في إيران والعراق وآسيا الصغرى السلجوقية . وكانت الحدود الشرقية لهذه الخانية تصل حتى المجرى الأعلى لنهر إيرتيش ، وحدودها الغربية تتجاوز نهر الفولغا.

وقد دأب حكّام الجماعة الذهبية على الإغارة على أملاك أبناء عمومتهم الإلخانيين ، عبر القفقاس وشمال أذربيجان . وقد تحالفوا مع دولة المماليك ضد الإلخانيين ، وتبادلوا السفراء مع القاهرة ، وقاموا مع هذه الأخيرة بضغط مشترك على الدولة البيزنطية . واستمرّ خانات الجماعة الذهبية ، من أحفاد جوشي ، يحكمون في هذه الخانية حتى مطلع العصر التيموري ، عندما كانت الدولة الإلخانية تلفظ أنفاسها الأخيرة، عقب وفاة سلطانها أبي سعيد . وفي العصر التيموري انقسم حكّام الجماعة الذهبية على أنفسهم ، وفرّ أحدهم المدعو توقتميش والتجأ إلى تيمورلنك ، الذي قدّم له المساعدة إلى أن استولى على عرش الخانية لشخصه.

جـ ـ بعد الدولة الإلخانية:

١ ـ العثمانيون:

توزعت أملاك الدولة الإلخانية ، بعد سقوطها ، إلى عدد من الدول كان أبرزها وأبقاها الدولة العثمانية . كانت هذه الدولة ، في الأصل ، إمارة صغيرة تابِعة لسلطنة سلاجقة الروم ، في منطقة الحدود ، بين هذه السلطنة وبين أملاك البيزنطيين . وقد استطاع مؤسِّسها عثمان ، وابنه أورخان ، خلال النصف الأول من القرن الميلادي الرابع

---

(١) أو الهوردة الذهبية.

عشر ، أن يتوسعا على حساب السلاجقة والبيزنطيين والإمارات التركية الأخرى ، القائمة آنذاك في آسيا الصغرى . وقد افتتح أورخان عصر الحروب في أوروبا.

٢ ـ الجلائريون:

ينحدر الجلائريون من أسرة الشيخ حسن جلائري ، وأصله من قبيلة جلائر المغولية . وقد قامت الدولة الجلائرية في بغداد وتبريز ، على أنقاض الدولة الإيلخانية . كان الشيخ حسن يرتبط بالمصاهرة مع العائلة الإيلخانية المالِكة ، وحاول ، في مرحلة ضعف هذه العائلة ، أن يستولي على الحكم . ولما فشلت مشاريعه انتقل إلى بغداد ، عام ١٣٣٩م ، حيث أعلن استقلاله فيها ، وخلفه ابنه أويس ، الذي نجح فضمّ تبريز إلى أملاكه . ونشأ ، بعد موت أويس ، خلاف على الحكم بين ولديه حسين وعلي ، فاستغلّ ابنه أحمد الفرصة واستولىٰ على السلطة ، عام ١٣٨١م . والسلطان أحمد هذا كان من أشدّ خصوم تيمورلنك ، وقد حاول جاهداً أن يتصدّى للغازي الطوراني عند زحفه على العراق ، عام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م.

٣ ـ المظفريون:

أسّس هذه الدولة مبارز الدين محمد ، وهو عربي الأصل ، وكان أحد رجال الإدارة في الدولة الإيلخانية . بدأ عهده بالاستيلاء على مدينة يزد في فارس ، واتخذها عاصمة له ، ثم نقل العاصمة إلى شيراز ، عام ١٣٥٣م . وقد عاشت دولته وهي على تنافس على النفوذ مع الدولة الجلائرية . وعند ظهور تيمورلنك ، كان الخلاف على أشدّه بين أفراد هذه العائلة ، فاستفاد تيمورلنك من ذلك ، ونجح فقضى على هذه الدولة ، وضمّ أملاكها إلى أملاكه.

٤ ـ الكرتيون:

تنحدر عائلة آل كرت من السلاطين الغوريين ، قبل ظهور جنكيزخان . وقد استمرت تَحْكم ، بعد الغزو الجنكيزخاني ، في هرات وما حولها من خراسان الشرقية ، بموجب قرار من الخاقان مانكو ، حفيد جنكيزخان وشقيق هولاكو . وحكمت باستقلال داخلي أثناء العهد الإيلخاني . وفي أواخر أيام هذه الدولة ، أعلن معزّ الدين حسين آل كرت ، عام ١٣٣٢ ـ ١٣٧٠م ، استقلاله عن الإلخانيين . وكان من ألمع شخصيات هذه الأسرة ، ولعب دوراً هاماً في أحداث مطلع العصر التيموري.

٥ ـ السربداريون:

عندما ثار آل كرت وأعلنوا استقلالهم ، نشبت ثورة أخرى في خراسان الغربية ،

بقيادة خواجـه عبد الرزاق ، وكان ابناً لأحد التجار ، ويزعم أنه من نسل الإمام علي بن أبي طالب . عرفت هذه الدولة باسم السربدارية ، وانتهت بالخضوع إلى تيمورلنـك ، عام ١٣٨١م.

٦ ـ التركمان :

التركمان فرع من الغُزِّ الأتراك ، الذين هاجروا بآتجاه الغرب . وقد دُعوا بالتركمان بعد إسلامهم ، ونزلوا منذئذ في وادي الفرات الأعلىٰ ، وفي منطقة ديار بكر . لم يلعب هؤلاء القوم دوراً بارزاً في أيّام المغول ، لكنّهم أسّسوا ، في بداية العصر التيموري ، دولتين دُعيت إحداهما باسم «آق ـ قيونلو» ، أي الشاة البيضاء ، وحكمت منطقة الفرات العليا . ودعيت الدولة الثانية باسم «قره ـ قيونلو» ، أي الشـاة السوداء ، وحكمت في أذربيجان وجنوب بحيرة «وان» . كانت العلاقات بين هاتين الدولتين سيئـة في أغلب الأحيان. وقد أيّدت دولة الشاة السوداء دولة المماليك في سورية ومصر ، ووقفت دولة الشاة البيضاء إلى جانب تيمورلنـك.

وبناء على ما تقـدّم ، فإن الفـراغ الذي أعقب زوال الـدولة الإلخـانية ، وتعـدد الدويلات التي قامت على أنقضاها ، وتنازعها فيما بينها ، كل ذلك كان مؤاتياً لمجيـء تيمورلنـك فيقضي على هذه الدويلات ، ويضم أملاكها إلى أمبراطوريته.

د ـ الهند :

استولت عائلة آل تغلق على الحكم في دلهي ، عام ١٣٢١م ، حالَّة محل دولـة الخليجيين الأفغانية الأصل ، واستمرت تحكم حتى القرن الميلادي الخامس عشر . وقد نشطت هذه العائلة في نشر الإسلام بين الهنود ، ومحاربة البراهمة ، مما أدّىٰ إلى قيام كثير من الثورات ضدها ، وخاصة في عهد محمد تغلق . وكان مولد تيمورلنـك ، عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م في أيام هذا العهد.

هـ ـ الصين :

أسقط الصينيّون ، عام ١٣٦٨م ، عائلة يو ـ وان المغـولية ، التي أسّسهـا الخان الأعظم قبلاي ، حفيد جنكيزخـان ، عام ١٢٧٦م/ ٦٧٥هـ . وقد جاءت إلى الحكم بعد ذلك أسرة مينغ ، التي اشتهرت بعدائها للأجـانب وللنشاط الكنسي التبشيـري . وسعت هذه العائلة إلى إعادة بسط نفوذ الصين على المناطق الموجودة خارج الجدار ، بصـورة اتحاد فـدرالي بـزعامـة الصين . وقد أدّت هـذه السياسـة إلى الاصطدام مـع تيمورلنـك.



الفصل الثالث

الوضع السياسي الداخلي في بلاد ما وراء النهر عند ولادة تيمور

غموض في تاريخ هذه الحقبة ـ قازان خان ـ قازغان صانع الملوك ـ إغتيال قازغان ـ تغلق تيمور خان ـ المجتمع في ذلك العصر.

[١]
بعد ترماشين

هناك شيء من الغموض في تاريخ بلاد ما وراء النهر بعد مقتل ترماشين ، عام ١٣٣٤م . فلا يُعرف بالتأكيد من تولّى الحكم بعد هذا الخان ، ولا قرابته من هذا الأخير . غير أن الشيء المتفق عليه هو أن العاصمة الجغطائية نقلت إلى ألماليك على نهر إيلي ، في وسط آسيا . وكانت العناصر المسيحية النسطورية والعناصر الكاثوليكية التبشيرية قوية النفوذ والنشاط في هذه المدينة ، مما أدّىٰ إلى اشتداد الحركة الرجعية المقاومة للإسلام ، وإلى اشتداد النشاط التبشيري للكنيسة.

إلّا أنه في حوالي العام ١٣٤٠م ، قامت ثورة ضد المعادِين للإسلام ، بقيادة أمير مغولي من نسل أوغوداي يُدعىٰ خليل.اندلعت الثورة في خراسان ، بمساعدة من الملك الخراساني معزّ الدين آل كرت . ونجح خليل في ثورته ، وطارد خصومه وأعداءه حتى الجدار الكبير ، ثم قفل راجعاً إلى سمرقند واتخذها عاصمة له.

غير أن العناصر الوثنية ، في المناطق الشرقية من البلاد ، ثارت ضد سياسة خليل الإسلامية ، فانقسمت الدولة على نفسها إلى قسمين: قام خان وثني في المناطق الشرقية حول بحيرة إيزيك ـ كول ، وبقي خليل خاناً على بقية البلاد . ورفض معزّ الدين حسين آل كرت أن يعترف بالتبعية لخليل ، وأعلن الحرب عليه . لم يستطع سلطان خراسان

هذا أن يستولي على شيء من بلاد ما وراء النهر . ولكن ابن بطوطة يقول إن السلطان حسين تمكّن من أسر خليل وأخذه معه إلى خراسـان .

[٢]
قازان خان

في عام ١٣٤٢م ، تولى قازان ، أحد أحفاد جغطاي ، حكم البلاد ، وبدأ تاريخ بلاد ما وراء النهر بالوضوح منذئذٍ . ونجح قازان خان في صدّ حسين آل كرت وردّه على أعقابه . وكان قازان قد بدأ حياته أميراً في وادي نهر كشقداريا ، ولم يبرز على المسرح السياسي إلّا بعد أسر خليل وخلوِّ الميدان أمامه من كل منافس ، وكان آخر خان هام من نسل جغطاي.

حاول قازان خان تقوية السلطة المركزية ، فاصطدم بالأمراء الأتراك ، الذين كانوا يشكِّلون طبقة أرستقراطية عسكرية ، وينزعون إلى الاستقلال عن السلطة المركزيـة . وكان لهؤلاء الأمراء حقّ نقل سلطاتهم وإقطاعاتهم إلى أولادهم ، وحقّ مشاركة الخان في الغنائم ، والمساهمة في انتقاء الخان الجديد عند شغور المنصب.

كان كل أمير يحكم إقطاعة تنزل فيها قبيلته ، وكانت أهم هذه الإقطاعات إقطاعة جلائر ، في ضواحي مدينـة خوجنـد ، وإقطاعـة برلاس في حـوض نهر كشقـداريا ، وإقطاعة كـوتشين في الحوض الأعلى لنهـر سير داريـا ، وإقطاعـة إرلات جنوب نهـر أمو داريا ، في شمال أفغانستان حالياً.

[٣]
قازغان صانع الملوك

تـزعّم الأمراء النـاقمين على قازان خـان أحـدهم ، وكـان في الأصـل من أسـرة متواضعة ، وينتمي إلى إقطاعة كوتشين (أو قاوجين) ، وهي إقطاعة كان الخان ينتقي منها حرسه الخاص . وكان اسم هذا الزعيم قازغان ، وكان شجاعاً جريئاً ، ويحسن استغلال الأحداث ، بارعاً في عقد التحالفات واكتساب الأنصار.

أُعلنت الثورة عام ١٣٤٥م ، وجرت معركة بين الطرفين كان الثوّار فيها خاسرين ، لكن قازان خان لم ينجح في القضاء على الثوّار رغم هزيمتهم . وقام قازغان بمحاولة

ثانية بعد سنة ، وجرت معركة ثانية بالقرب من كيش . وقد فاز الثوّار هذه المرة ، وأُسِر الخان وَوُضِع في السجن حيث قُتل بعد سنتين من ذلك.

وضع الثوّار على عرش الخانية أميراً من نسل أوغوداي ، وأقسموا له يمين الطاعة . واعتبر الخان الجديد بما حدث لسلفه ، ولذا ترك مقاليد الحكم لقائد الثورة قازغان . توفي هذا الخان ، أو قُتل ، بعد عامين من ولايته ، وخلفه أحد أحفاد جغطاي ، وهم أصحاب السلطة الشرعية . كان اسم الخان الجديد بويـان قولي ، وبقي خـاناً عشـر سنوات ، كان قازغان أثناءها الحاكم الفعلي للبلاد . وقد ازدهرت بلاد ما وراء النهر في عهده ، واتسعت حدودها ، وامتدت من السند وخراسان إلى أقصى حدود تركستان شمال سير داريا ، واستقلت تماماً عن القسم الشرقي من خانية جغطاي.

[٤]
اغتيال قازغان

أغار قازغان ، عام ١٣٥٧م ، على خراسان ردًّا على غارة حاكم هرات ، حسين آل كرت ، قبل ١٤ عاماً . وقعت معركة شمال هرات ، وفرَّ حسين من المعركة ، وحُوصِرت عاصمته ، وانتهى الأمر باتفاق على فكّ الحصار عن المدينة ، وعودة قازغان إلى بلاده ، شرط أن يأتي حسين آل كرت كزائر إلى سمرقند ، بعد شهرين من ذلك.

وفعلاً قدم حسين إلى سمرقند حيث استُقْبِل بحفاوة ، وحلّ ضيفاً على قازغان . ولما حاول بعض زعماء القبائل أن يعتدوا عليه طمعاً بأمواله ، أعاده قازغان فوراً إلى بلاده .

وخلال عملية صيد ، عام ١٣٥٨م ، اغتِيـل قازغـان من قِبل زوج ابنتـه ، قتلك تيمور . وخلف قازغان ابنه عبد اللّه . لكنه كان صغير السن ، ولا خبرة له بالسياسـة والحكم . ونتج عن ذلك ، عام ١٣٦٠م ، أن ثار كل من حاجي بـرلاس زعيم قبيلة برلاس ، وبايان سلدوز زعيم قبائل أندوخود وسبورغان ، وتلفَّت عبد اللّه حوله فلم يجد مِنْ نصير ، فهرب إلى أنديراب في جبال هندوكش ، حيث أقام حتى وفاته.

[٥]
تغلق تيمورخان

حلّت الفوضى في البلاد ، بعد فرار عبد اللّه ، واختلّ الأمن . وأخذ أصحاب العسكر يتقاتلون فيما بينهم ، وسارت الأحوال من سيء إلى أسوأ . ورأى حاكم القسم الشرقي من خانية جغطاي أن الفرصة قد سنحت ليعيد توحيد شطري البلاد . كان اسمه تغلق تيمور ، أحد أحفاد جغطاي بن جنكيزخان ، وكان في الثامنة والثلاثين من العمر ، وأثبت مع الأيام أنه قوي الشخصية وحاكم قدير ، وقد اعتنق الإسلام وعمل على نشره بين أتباعه المغول.

زحف تغلق خان على بلاد ما وراء النهر ، عام ١٣٦٠م ، فاحتلّ البلاد بكاملها ، وبذلك عادت خانية جغطاي موحّدة بشطريها . وقد أحدث هذا الزحف اضطراباً وذعراً لدى أمراء ما وراء النهر ، فأسرع بعضهم إلى الدخول في طاعة الغازي ، وتوارىٰ آخرون عن الأنظار ، وكان تيمور (تيمورلنك) من جملة من دخل في خدمته.

وبينما كان تغلق خان في بلاد ما وراء النهر ، نشبت ثورة ضده في مغولستان ، فأسرع عائداً لمعالجة هذا الموقف ، تاركاً البلاد لتعود مرة أخرى إلى الفوضى كما كان الحال قبل قدومه . وخلال هذه الفترة ، برز الأمير بيازيد الجلائري ، متحالِفاً مع حاجي برلاس ، واتخذ من سمرقند عاصمة له.

لكن غيبة تغلق خان لم تطل؛ فقد قضى بسرعة على الثورة في مغولستان ، وتحرّك من جديد عائداً إلى بلاد ما وراء النهر ، متوغلاً حتى سمرقند ، عام ١٣٦١م . وكان من جراء ذلك أن قتل بيازيد جلائر مع بعض أنصاره من الأمراء الآخرين . أما حاجي برلاس ، فقد هرب إلى خراسان . وبعد أن استتب لتغلق خان الأمر في جميع بلاد ما وراء النهر ، عيَّن ولده إلياس خواجا حاكِماً على البلاد ، واضعاً تحت تصرّفه قسماً من الجيوش التي كانت معه ، ثم قفل راجعاً إلى عاصمته ألماليك.

كان إلياس خواجا قليل الخبرة ، فترك لأعوانه ، ولرجال الإدارة من المغول ، واسع المجال لاستغلال نفوذه ، وأخذ هؤلاء يعيثون في الأرض فساداً . ولما كثرت مظالمهم ، وبقيت شكاوى الناس ضدهم دون فائدة ، اندلعت ثورة بقيادة الشاب تيمور بن طرقاي ، تيمورلنك فيما بعد.

[٦]
المجتمع

كان المجتمع في بلاد ما وراء النهر ، بعد الإعصار المغولي ، وما تبعه من نزوح ، لمن سلم من السكان القدماء ، ومن قدوم قبائل بدوية وثنية ، مغولية وتركية ، في مطلع العصر التيموري ، مؤلَّفاً من مغول وأتراك ، ويعرف بالمجتمع الجغطائي.

وكان الطاجيق والأتراك عنصرين متمايزين في العصر التيموري ، وكان هناك عداء وحذر وخصومات ومشاكل بين الفريقين . وكان هذا الحال استمراراً لنزاع قديم متبادل بين الطورانيين والإيرانيين . كان الزواج إحدى محاولات الاتصال بين العنصرين ، وكان الجمال الطاجيكي لافِتاً لأنظار الأتراك الجغطائيين.

وسكان منغوليا ، الباقون على عاداتهم وتقاليدهم ، كانوا يُعرفون باسم الجتا ، وكانوا شديدي العداء للإسلام . وعلى الرغم من أن الحركة المعادية للإسلام لم تدرك نجاحاً تامّاً في بلاد ما وراء النهر ، فإنها مع ذلك ، تركت آثارها على المجتمع الجغطائي الحديث الإسلام ، والذي كان في دور التكوين . كان إسلام السكان المسلمين سطحياً ، وقد ظل هؤلاء متمسِّكين بعاداتهم ، ولا سيما فيما يتعلق بشريعة الياسا . لقد أخذوا من الإسلام مظاهره السطحية ، ولم يستطعْ رجال الدين ، في بخارىٰ وسمرقند ، أن يوصلوا مفاهيم الإسلام وروحه إلى هؤلاء الناس.



الفصل الرابع

تيمور بن طرقاي

أصل تيمور ـ ميلاده وطفولته ـ الرجال ذو الخوذ وأصحاب العمائم ـ تيمور الشاب.

[١]
أصل تيمور

يُوجد غموض في أصل تيمور . في النقش على شاهدة قبره ، في سمرقند ، جاء أن نسبه يلتقي مع نسب بطله جنكيزخان عند جد واحد هو تومان خان . ويمضي تسلسل النسب على الشاهدة إلى أن يصل إلى امرأة حملت بولدها ـ الجد الثالث عشر لتيمور ـ من نور دخل عليها من أعلي الباب ، وتمثل لها بشراً ، وذكر أنه من أبناء علي بن أبي طالب.

وهناك مصدر رسمي ، هو مذكّرات تيمور . لقد جاء في هذه المذكرات ، بخط تيمور ، أو إملائه ، عن والده طرقاي ، أن نسبه يرتقي إلى يافث بن نوح ، الذي كان يلقَّب بأبي الأتراك . وكان على عرش تركستان ، عند ظهور الإسلام ، أحد أحفاد يافث ، ويدعى تومان خان ، وكان قد رزق بولدين توأمين هما قجولاي وقابول ، وقد أشير إليهما أيضاً على النقش السابق الذكر . ولما بلغ قجولاي مبلغ الرجال ، حلم ذات ليلة برؤية نجمين يلمعان في صدر أخيه قابول . وعندما قصّ حلمه على أبيه ، بادر هذا إلى الاجتماع بأركان دولته ، ليقرِّروا بأن تكون الخانية ، من بعد تومان خان ، في أعقاب قابول ، وأن تكون الوزارة والقيادة في أسرة قجولاي ، الابن الثاني . وقد نقش هذا القرار على صفيحة معدنية ، وحُفِظ في خزائن الملك.

ويتابع طرقاي حديثه ، وفقاً لما جاء في مذكرات تيمور عن أبيه ، «أن قراجار ، أحد أجدادهم ، كان أوّل من اعتنق الإسلام من أسلاف تيمور ، وهو الذي جاء بقبيلته برلاس

إلى سهل كيش ، في وادي نهر كشقداريـا . وقال إن قـراجار هـذا هو الجـدّ الزابـع لتيمور . أما جدّ تيمور المباشر ، أي والد طرقاي ، فهو بـركل ، الـذي كان أوّل من انسحب من منصبه العسكري في دولة أبناء جغطاي بن جنكيزخـان ، ليتفرّغ إلى إدارة أملاكه في منطقة كيش ، موطن قبيلة برلاس . وكان قراجار الحاكم الحقيقي لخـانية جغطاي ، وكان صهراً لجغطاي بن جنكيزخـان نفسه ، ولذلك حمل لقب كوركان ، أي صهر الملوك» .

ليس هناك من سند يؤيِّد هذا القول أو يدعمه ، وربما يكون قد وضع لإضفاء السمو والعظمة على الأصول التي انحدر منها تيمور تبريراً لاستيلائه على السلطة في عيـون الطورانيين . ومن المرجّح أن القصد ، من وراء ربط تيمور ببيت يعتبر من أعرق البيوت الإسلامية برباط النسب ، كان تعزيزاً لمكانة تيمور في نـظر رعايـاه المسلمين ، دون الخروج على شريعة الياسا المغولية ، التي كانت قد نصّت على وجوب معـاملة أبناء علي بن أبي طالب بالرعاية والاحترام[1] .

كانت والدة تيمور تدعى تكينة خاتون ، ونسبها ينتهي إلى جنكيـز ، وفقاً لـرواية للمؤرِّخ عربشاه نقلاً عن كتاب فارسي . وقد ألمح تيمورلنـك ، في إحدى رسائله إلى السلطان العثمـاني بيازيـد ، قبل أن يغِيـر على بلاد هـذا الأخير ، بـأنه سليـل أسـرة الإيلخانيين ، التي كانت تحكم إيران ، والتي يرجع نسبها إلى هولاكو حفيـد الفاتِـح المغولي الرهيب ، جنكيزخـان .

[٢]
ميلاده وطفولته

يأتي المؤرِّخون على ذِكر هذه الحقبة بشكل مقتضب . ولكن مذكرات تيمورلنـك تعطي إيضاحات كافية عن هذه المرحلة . فهو يقول في مذكراته إنه وُلِد في الخامس والعشرين من شهر شعبان ، ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م ، في ضواحي مدينة كيش ، في قرية «خواجه إيلغار» . وكلمة تيمور تعني الحديد . ويروي تيمـورلنـك ، عن لسان والـده طرقاي ، إنه بعد ولادته حمله أبواه إلى بيت أحد رجال الدين ليتلقّى البركة منه . ولما دخـلا عليه كان يتلو ، بصوت عالٍ ، هذه الآية من القرآن الكريم :

---

(١) تيمورلنـك، دكتور مظهر شهاب، صفحة ١٠٧، نقلاً عن المقريزي.

﴿ **أأمنتم مَنْ في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور** ﴾[1].

ولمّا توقّف الملاَّ[2]، وقبل أن يسألاه شيئاً، قال:

ـ لقد سمّينا ابنكما تيمور.

التحق تيمور بمدرسة الملاَّ علي بك عندما بلغ سن السابعة. وقد تعلّم هنا كتابة الحروف العربية. ويقول في مذكراته إنه كان متفوّقاً على أقرانه، وميّالاً للسيادة والزعامة.

كانت مدينة كيش تُعرف بالمدينة الخضراء، وكانت من أحبّ الأماكن إلى نفس تيمور. وكان بيت أبويه مكوّناً من خشب ومن طين غير مشوي، تحيط به ساحة مسوَّرة، وحديقة داخل الجدار. وكثيراً ما كان يخيِّم قرب البيت، لقضاء الليل، رجال ملتحون يلبسون أثواباً حريرية برّاقة، ويفترشون سجاد النوم، ويتحدثون عن القوافل والأحداث، ودائماً عن الحروب، وكثيراً ما كان الطفل تيمور يسمعهم يردّدون:

ـ الطريق أمام المرء واحدة لا غير!.

نشأ مع أمثاله من الأولاد، وترعرع بين الخيول، وتسابق مع الخيول المطهَّمة في مروج البرسيم، عبر طريق سمرقند. كان يطيل التحديق بالأسلحة، ويتساءل مراهناً عن مدى مضاء الحدّ القاطع للحسام وهو في غمده، وعن معنى الكسر في قضيب الرمح.

وكان يصطاد، مع أمثاله، الثعالب وطيور السمّن بالأقواس، ويلعبون لعبة الحرب هجوماً ودفاعاً، في حين تنام الكلاب وترعى الخيول. وكان تيمور دوماً هو القائد، ولم يكن معه، في هذه الألعاب الحربية، أكثر من ثلاثة رفاق أو أربعة. كان يلعب بجدّ ورصانة، وما كان ليضحك قطّ. وكان أحسن خيّال بين رفاقه. وعندما كبر ورفاقه، وأُعْطوا سيوفاً ونِبالاً للصيد، فإنه سريعاً ما تفوّق في استعمال هذه الأسلحة.

ولربما كانت جدّيته ورصانته نتيجة لحياة الوحدة في البيت؛ فقد ماتت والدته وهو صغير، وكان أبوه، وهو رئيس سابق في قبيلة برلاس المغولية، يمضي معظم ساعات يومه مع السادة أصحاب العمائم الخضراء، ممن زاروا مقدّسات الإسلام، واكتسبوا البركة والقداسة من جرّاء ذلك. وكان للغلام صقوره، وكلابه ورفاقه، لكن لم يكن في

---

(١) الآية ١٦ من سورة الملك.

(٢) وتعني المعلّم، وكذلك رجل الدِّين.

البيت سوى خادمين ، ولم تكن الخيل لتملأ نصف الإسطبل . فالأب لم يكن أميراً حاكِماً ، ولم يكن ليطمح إلى منصب أو زعامة.

كان الغلام ينطلق على ظهر جواده هائماً ، كثير الجلوس على القمم ، يتابع بأنظاره حركة القوافل على طريق سمرقند . وكانت تنطلق ، على هذا الطريق ، مواكب خيّالة من أثرياء الفرس ، ومعهم نساؤهم يحيط بهن حرّاس مدجّجون بالسلاح . كانت النساء ، في هذه المواكب ، محجّبات ، بخلاف النساء المغوليات اللواتي لم يعرفن الحجاب في ذلك الزمن . وكان تجّار من العرب ، طوال القامة ، خفيفو اللحم ، يواكبون قوافل من الخيول ، مع حمولات من موشَيات الحرير والمطرّزات من الصين ، ومن الحرير الخام والسجاد من أنوال الشمال . وكانت تمرّ أيضاً على الطريق ، خلال الغبار الأصفر ، قوافل العبيد ، ومتسوّلون مع عصيٍّ وطاسات ، ورجال مباركون يبحثون عن مريدين.

وأحياناً كان يأتي يهودي مع بغاله ، أو هندي نحيل يروي قصصاً عن لصوص أفغانيين . كانوا ينصبون خيامهم عند الغسق ، بين الحيوانات ونيران المطابخ التي تنبعث منها رائحة الروث ونبات الشيح الطيّب الرائحة . وكان تيمور يبرك على عقبيه خارج حلقتهم ، مصغياً إلى أحاديثهم عن الأسفار وعن عالَم سمرقند . وعندما كان والده يؤنّبه لجلوسه مع رجال القوافل ، فإنه كان يجيب:

ـ إن طريق المرء واحد لا غير!.

[٣]
الرجال ذوو الخوذ وأصحاب العمائم

كان الوادي ، وكلّ من فيه ، إرثاً لقبيلة برلاس ، لكن القبيلة لم تكن مالِكة للوادي إلّا بقدر ما كان باستطاعتها الاحتفاظ به ، والدفاع عن كرومه ومروجه ومراعيه . كان أفراد القبيلة طوال القامة ، ضخام الأجسام ، ينحدرون من الشاقاص (السيثيين) ، أو من الأتراك كما يقول بعضهم . وقد اكتسبوا التسمية المغولية بعد أن انضموا للعمل تحت راية جنكيزخان ، وحاربوا مع ابنه جوشي في صفوف الجماعة (الهوردة) الذهبية ، في روسيا والقرم.

كان جنكيزخان قد جعل من قبائل منغوليا وتركستان أسياداً على آسيا وأوروبا الشرقية . وكان البرلاس رجال حرب كأجدادهم ، وقليل منهم من كان يموت تحت سقف

خيمته . وكانوا لا زالوا محتفظين غريزياً بالمهارة في المحاربة الصحراوية كما كان أسلافهم من قبل.

كانوا مغرمين بالصيد بواسطة الصقور ، وكانوا مهرة في استعمال القوس والنشّاب المزدوج الرأس ، يصيدون الطيور وحيوانات الغاب . وكان لحم الصيد طعامهم المفضّل ، وكذلك عجز الجمل . كانوا يأكلون من حلَّة عامة ، يتحلّقون حولها جثواً على السجّاد ، وأصابعهم تحمل الطعام إلى الأفواه.

كانوا يعجبون بالفروسية العربية . وكانوا ، كعرب البادية ، دائمي الضجر والتبرّم ما لم يكونوا على ظهر الجواد . كانوا أرستقراطية حرب ونزال ، ويعتبرون مصاهرة التجّار والمزارعين ضارّة بعنصرهم ومحطة له . وكانوا لا يحسنون تجارة ولا صناعة ، وكانوا لذلك فقراء وفي طريقهم إلى الإفلاس والخراب.

كانوا كرماء إلى حدّ غير معقول ، وعلى مقدار عظيم من العناد والقسوة البالِغة . كانوا يبيعون ممتلكاتهم أو يرهنونها للإنفاق على ولائمهم . كانت الضيافة طبيعة فيهم ، وكانت أفنية دورهم محشورة دائماً بعابري السبيل ، في حين كانت أغنامهم مواظبة على السير إلى داخل الحلّة.

وكان يعيش في وادي المدينة الخضراء أناس من غير فبيلة البرلاس . كان هناك مزارعون إيرانيون ، يعملون بصبر وأناة في الحقول والمزارع ، ويروون الأرض بمياه الأقنية وأخاديد الري . وكان هناك السرتيون سكان المدينة ، يجلسون في الأكشاك في ميدان السوق ، ويصغون إلى القرّاء يرتّلون من آيات القرآن كتاب اللّه الكريم . كانوا يعتمِرون العمائم ، ويتّبعون شريعة الإسلام ، بينما كان الرجال ذوو الخوذ يعملون بشريعة الياسا ، شريعة جنكيزخان.

ومما كان يزيد في سوء أحوال قبيلة البرلاس ، ولا يعمل شيئاً لإصلاح أوضاعهم أنهم كانوا بلا زعيم . فطرقاي ، الذي سبق وكان رئيساً للقبيلة ، كان رجلاً وديعاً ، ممتلئاً بكرامته وشرف مقامه ومحتده . كان قد استمع كثيراً لدروس الفقهاء ، وأصغى مقتنعاً لشروحاتهم وتفاسيرهم ، ثم راح يعيش منعزلاً كناسك ، ضيفاً على إحدى التكايا . وقد قال لابنه تيمور:

ـ هذه الدنيا ليست بأفضل من إناء ذهبي مليء بالعقارب والثعابين. . أنا متعب منها وكاره لها! .

وكان من عادة طرقاي ، كسواه من الآباء ، أن يحاضر ابنه في ماضي أجداده وأمجادهم ، وهم الذين كانوا أسياداً على الجبال المطلّة على صحراء كوبي . كان يحدّثه عن الأميرات الصينيّات ، اللواتي كنّ يرسلن كزوجات لخانات الصحراء ، مع عربات محمّلة بالحرير والعاج المصنّع . وكان يروي له أيضاً قصصاً عن احتفال هؤلاء الخانات بالنصر ، وعن شربهم لحليب الأفراس في جماجم أعدائهم وقد بُطِّنَتْ بصفائح من الذهب الخالص . وكثيراً ما كان يقول:

ـ هكذا كان الحال يا بنيّ ، إلى أن جاء جنكيزخان ليقود المغول إلى احتلال العالَم . كان هذا مكتوباً في لوح القدر . ولما جاء ملاك الموت إلى جنكيزخان ، زائِراً غير مرغوب فيه ، عمد الفاتح إلى تقسيم أمبراطوريته بين أولاده الأربعة ، الذين كانوا من أمّ واحدة هي زوجته الأولى بورتاي . وكانت هذه الديار ، التي نعيش فيها ، من نصيب ابنه جغطاي . وقد انصرف أولاد جغطاي وأحفاده إلى الخمر والنساء والصيد ، واضطروا مع مرور الزمن إلى الانسحاب إلى الجبال في الشمال . وهناك يعيش الخان منذ وقت طويل ، منصرفاً إلى الحفلات والصيد ، تاركاً الحكم في سمرقند إلى السيِّد الملقّب بصانع الملوك . وأنت تعرف الباقي . . .

وكان يعود ليستطرد ويقول:

ـ ولكني أودّ ، يا بنيّ ، أن لا أراك تحيد عن صراط شريعة اللّه التي جاء بها رسوله ، نبيّنا محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام . احترم السادة الفقهاء ، وآسع إلى نيل بركة الدراويش . خذ العزم والقوة من أركان الشريعة الأربعة: الصلاة ، الصيام ، الزكاة والحج . هذه وصيتي إليك! .

وهكذا رحل طرقاي عن هذه الدنيا ، تاركاً وحيده لمصيره . ولكن رجال التكية كانوا قد عرفوا بوجود الصبي . وذات يوم كان تيمور جالساً عند إحدى زوايا الردهة ، يقرأ سورة من القرآن ، ومرّ به متعمّم أبيض الشعر ، فسأل تيمور عن اسمه ، فقال هذا وهو يهبّ واقفاً:

ـ أنا تيمور.

تطلّع سليل الرسول إلى الصبي ، وأمعن النظر في وجهه ، وقال:

ـ أيِّد دائماً دين الإسلام ، وتكون بخير وأمان . .

فكّر تيمور في هذا القول ملياً ، وكانت النتيجة أن أعرض لبعض الوقت عن

المشاركة في البولو ولعب الشطرنج ، وكانا تسليته المفضّلة . وكان من عادته ، عندما يلتقي بدرويش جالساً في الظلّ ، على طريقه ، فإنه كان ينزل عن حصانه ، ليسأله البركة . لم يكن يقرأ بسهولة ، ولذا اقتصر جهده على سورة كريمة واحدة ، إلى أن أتقن استظهارها عن ظهر قلب.

في هاتيك الأيام ، وقد بلغ السابعة عشرة من عمره ، كان كثير التردّد على المساجد ، مستمِعاً إلى دروس الأئمة والفقهاء . وفي رواية أن أحدهم ، ويُدعىٰ الملاّ زين الدين ، أبصر بالفتى يوماً ، فناداه إليه ، ليعطيه قلنسوته الخاصة ، وحزاماً من الشال ، وخاتماً مرصّعاً بحجر من العقيق الأحمر . كان زين الدين هذا ثاقب الفراسة ، خبيراً بطبائع البشر وأحوال الدنيا ، ويتحلّى بكثير من مؤهلات الزعامة . وكان تيمور يتذكّر دائماً عينيه الحادّتين ، وصوته الرزين ، وربما هديّته أيضاً.

كان الحاج برلاس الزعيم الوحيد الباقي في قبيلة برلاس ، وكان عمّاً لتيمور ، أخاً لأبيه ، ولا يُرىٰ إلاّ نادراً في المدينة الخضراء . كان قد أدّىٰ فريضة الحج إلى مكّة المكرّمة ، ولم يكن ليهتم بتيمور ، ابن أخيه ، أو يسأل عنه . وكان كثير الوساوس والظنون ، متهوِّراً ودائم الكآبة . وقد سارت أمور القبيلة تحت زعامته إلى أسوأ ما يمكن أن يكون ، وتحوّل معظم الوجهاء والبارزين في القبيلة للعمل في خدمة الأمراء والملوك . وإلى هناك ذهب أيضاً تيمور ، بعد أن بلغ سنّ العشرين.

[٤]
تيمور الشاب

تيمور ، ابن العشرين ، هو الآن شاب وسيم ، حسن السمعة وغير مرتبط بعمل . وكان قد ورِث عن والده عدداً من الماشية وبعض العبيد . كان قويّ الجسم ، بهيّ الطلعة ، جميل القوام ، عريض الأكتاف ، طويل القامة . وكان رأسه كبيراً ، مستقيم الوضع والتوازن على كتفيه ، عريض الجبهة ، بعينين سوداويين تتحركان ببطء وتتطلّعان إلى الآخرين بصراحة وبطريقة مباشرة . وكان عريض عظام الوجه ، كبير الفمّ حسّاسه . وكان في ذلك كل الدلائل على الحيوية والهمّة العالية . كان فتىٰ قليل الكلام ، عميق الصوت ثاقبه . وكان لا يرتاح إلى الغباوة والكلام الفارغ ، ولم يشعر طوال حياته بميل أو تقدير للهزل والمزاح.

كانت الضيافة ، في العصر الأول للإسلام ، فريضة تؤدّىٰ عن طيب خاطر ، وتردّ

عيناً . وكان الطورانيون كثيري التطواف والتجوال ، وكان تيمور يُستقبل ضيفاً مكرَّماً في كل خيمة وكل فناء ، بدءً من سمرقند حتى بلدان الشمس في إيران وأفغانستان.

كان قد تجمّع حوله بعض الرفاق ، وكانوا يذهبون للصيد متحرِّكين مئات الأميال ، خلال دروب الجبال ، أو سيراً على حدود الصحراء ، وسلاحهم مقتصر على سيف وقوس صيد خفيف . كان يلتقي ، في هذه المناسبات ، بعرب في مخيّمات القوافل ، فيتحدّث معهم ، وينزل في ضيافتهم . وكان الجبليّون ، الذين يغسلون رمال الأنهار بحثاً عن جسيِّمات الذهب ، يروون على مسامعه أساطيرهم ، وأخبار خيولهم ، وثرثرة نساء القبائل الأخرى . وكان يلعب الشطرنج مع رؤوساء القوافل ، ومع شيوخ القبائل في حصونهم.

وجاءه ذات يوم من قال له:

ـ إن صانع الملوك يسأل عنك!.

أحصىٰ تيمور ما كان يملكه. . وزّع الأغنام إلى قطعان ، وعهد بكل قطيع إلى راعٍ يتقاضىٰ لقاء أتعابه ربع اللبن والزبدة والصوف . وتصرف بالطريقة ذاتها لما يتعلق بالماعز والجمال . ولم يكن هناك شيء آخر.

أخذ تيمور لنفسه أحسن خيوله . واختصّ بخدمته غلاماً كان قد وُلد في بيت العائلة ويُدعىٰ عبد اللَّه . ركب يتبعه خادمه ، واتجه جنوباً ، يسير عبر السفوح والوهاد ، في طريقه إلى أمو داريا ، النهر الكبير . كان تيمور مغامِراً ، وهو الآن في الطريق للالتحاق بمغامرِين ولا من يملك عليهم . وكان ذلك عام ١٣٥٦م.

الفَصْل الخَامِس

عند قازغان صانع الملوك

سالي سراي ـ زواج تيمور ـ اغتيال قازغان ـ بعد اغتيال قازغان.

[١]
في سالي سراي

كان قازغان قد سمع به وبعث في طلبه ، وقد استقبله عند قدومه بقوله :

ـ لقد استعضنا ، هنا ، عن الأديان بالأخوَّة ! .

عيَّنه قازغان في حاشيتهِ ، وغمره بالهدايا . كانت العيون مفتّحة عليه ، تراقبه وتتابع حركاته لتحكم على كفاءته كفارس خيّال ، وعلى مهارتـه في استعمال الحسـام أثناء الغزوات والخصومات ، وعلى فمه لتحصي عليه فلتات اللسان.

كـان هناك ، في سـالي سراي ، ألفـان من المغامـرين ـ نبلاء ، فتيـان وفرسـان متمرِّسون ـ يخيّمون في الغابات . لم يفكّر أحد منهم في إفادة تيمور بشيء . كان عليه أن يجد كل شيء بنفسه ولنفسه . وهذا ما فعله.

وذات يوم أغار قوم على الخيول واستاقوها من مراعيها، واستدعى قازغان تيمور وقال له :

ـ خذ معك جماعة من الشباب وانطلق لاسترجاع الخيول.

كان الغزاة فرساناً من أقوام الغرب ، وكانوا يجمعون المنهوبات ويوزِّعونهـا رزماً لتنقل على ظهور الخيول المسروقة . وعندما أبصروا بالقوة المطارِدة لهم ، توزّعوا إلى فريقين ، فريق بقي مع خيول القافِلة ، وفريق تحوّل إلى مواجهة المطارِدين . وأراد رفاق تيمور أن يبدأوا بمهاجمة قافلة الحيوانات ، فرفض تيمور قائلاً :

ـ إذا نحن تغلّبنا على الفريق المقاتِل ، فسيعمد الفريق الثاني إلى الهرب نـاجِياً بنفسه .

صمد المُغِيرُون بعض الوقت ، وتبادلوا بضعة جروح بالسيوف مع الرجال أصحاب الخوذ ، لكن سريعاً ما أردكـوا أنهم أضعف من مطارديهم ، فخـارت عزائمهم وولّـوا مُدبرين ، وهكذا فعل الفريق المكلّف بحراسة المنهوبـات . وعاد تيمـور مع الخيـل ومخلّفات المُغِيرِين . وقد أثنى قازغان على البرلاسي الشاب ، وكافأه بأن أعطاه كنانته الخاصة . وكانت هذه الحادثة مناسبة لأول معركة حقيقية يخوضها تيمور . ومنذ ذلك الحين أخذ قازغان ، صانع الملوك ، يهتمّ بابن طرقاي ويشمله برعاية خاصة . وقال له يوماً :

ـ أنت سليل الكوريدجين ، القبيلة البديعة . ولكنك لست تورا[١] .

كان تيمور قد عرف ذلك من أبيه . وكان يعلم أن جغطاي بن جنكيزخـان قد أُعطي كل هذه البلاد ، بما في ذلك أرض الأفغان ، حتى سلسلة الجبال العظيمة . وبعد مضي مئة عام ، حلّ الضعف والفساد بـالأولاد النازِلين مبـاشرة من صلب الفـاتح المغـولي الكبير ، فضعفت قبضتهم على إرثهم ، وصارت القبائل مستقلّة في أقاليمها ، وانسحب الخانات إلى الشمـال متفرّغين للصيـد والخمرة ، وانتهىٰ بهم الأمـر بحيث صاروا لا يظهرون في ضـواحي المدينـة الخضراء إلّا للسلب والنهب ، وإلّا للحصـول على ما يستهويهم بدعوى القضاء على ثورة أو عصيان .

وكان قازغان ، كتيمور ، لا ينحدر من صلب جنكيزخـان من ناحية الوارثِين للملك بعده ، أي ليس من صلب أولاد جنكيزخـان من زوجته الأولى . كان مِقداماً جريئاً ، عادلاً مستقيماً ، نابغة في عقد المحالفات وإرضاء الأعوان ، وقد نجح ففرض احترامه على القبائل البرمة المتقلّبة . وكان أعور نتيجة لإصابته بسهم في إحدى عينيه . وقـد كرّس نفسه ، بعد نجاح انقلابه ، للصيد ولا يلجأ للحرب إلّا عند الضرورة . لم يكن ليعتمـد واثقاً على دعم قبـائل المغـول له ، ورأى في تيمـور ابناً لـزعيم سابق لقبيلة البرلاس ، وقد يكون من ورائه العون الكبير عند الحاجة .

وكان في سالي سراي ، في بلاط صانع الملوك ، أمراء وقوّاد كثيرون ، وكان لكل منهم مصالحه الخاصة . كانوا يقدّمون الهدايا للجالس الاسمي على عرش الخانية ،

---

(١) التورا هو المنحدر مباشرة من صلب جنكيزخـان.

ويتظاهرون أمامه بالولاء ، لكنهم اشتركوا جميعاً في ثورة قازغان الناجحة . وكان دهاء قازغان وحده هو الذي يبقي أعنة السلطة في يده.

ولاحظ قازغان أن تيمور يحظى بمحبة الفرسان الصناديد وتقديـرهم ، من أُولئك المحـاربين الذين اكتسبـوا لأنفسهم السمعة والشهـرة . كانـوا الرؤوس الجـامحـة في القبائل ، يذهبون إلى الحرب ذهابهم إلى وليمة ، وقد اتّخذ ابن طرقاي مكانه بينهم كما لو كان الأمر حقاً له ولا جدال فيه . كان يرافقهم في الغارات ، ويعود معهم ليجلسوا على سجّاد قازغان ، وكلّهم ثناء على شجاعة تيمور وإقدامه.

كان يبدو أن هناك ، في طبيعة تيمور ، شرارة من الحماس الخالص تـدفعه إلى المغامرة وتطلُّب الأخطار . ولكن الأهم من ذلك أن تيمور ، عند الأزمات ، يبقى هادئاً مفكّراً. إنه مولِّد للطاقة وباعث على العمل الفاعِل، كما كان يقول عنه الصناديد. وكانت حيويته البدنية المستفيضة تساعده على القيام بالركوبات الطويلة وبقاء الليالي العديدة يقِظاً نشِطاً . كانت لديه مؤهلات للقيادة كثيرة ، وكان يحب أن يقود . وكان شديد الثقة بنفسه ، شاعراً بكامل قوّته.

[٢]
زواج تيمور

خطر لقازغان ، بعد مدة ، أن يُعطي لتيمور زوجة . اختار له إحـدى حفيداتـه ، وكانت سليلة لعائلة مالِكة في خراسان . وفي هذا الاختيار دليل على ما كان لتيمور من تقدير ومعزّة لدى صانع الملوك . كان اسم العروس أولجاي توركان آغا ، وكانت آية في الحسن والجمال ، واحتفل بالزواج عام ٧٥٧هـ.

رزق تيمور من زوجته صبياً دعاه جهانكير . وقد منحه هذا الزواج شيئاً من الامتياز وزاد من قدره في عيون أقرانه . وقد منحه قازغان لقب بيك ، وعيّنه قائداً للألف . وكان من المتوقع أن يستمر تيمور في الصعود نحو القمة في خدمة صانع الملوك ، لولا أن حدث خلاف بين هذا الأخير وبين أمراء الجيش ، خلاف كـان من نتائجـه أن اغتيل قازغان ، وأن عادت الأحوال بتيمور ، نوعاً ما ، إلى نقطة البداية.

[٣]
اغتيال قازغان

أتينا في المقطع رقم ٤ ، من الفصل الثالث ، على تفاصيل الحدث الذي أدّىٰ إلى اغتيال صانع الملوك . لم يكن تيمور موجوداً في الصيد عندما وقع الاغتيال . وعندما علم بالحادث ، أسرع راكِباً إلى حيث يوجد الجثمان ، فنقله عبر النهر ، ودفنه في الغابة جنوب مدينة سالي سراي.

وثم ، ودون أي تفكير بنفسه ومستقبله ، عاد فعبر أمو داريا دون إبطاء ، وانطلق جنوباً للانضمام إلى ضباط صانع الملوك الذين كانوا يطاردون القاتل ورفاقه عبر الجبال . إن من أقدم التقاليد لدى المغول أن من واجب المرء أن لا ينام مع قاتل قريبه تحت سماء واحدة.

لم يكتب للقتلة أن يعيشوا بعد فعلتهم طويلاً ، فقد لحق بهم المطارِدون وقتلوهم . وبعد أن تمّ ذلك أسرع تيمور عائداً إلى واديه ليجد أن الأمور قد تغيرت أثناء غيابه ، وأن الوضع السياسي قد تحوّل إلى نظام جديد.

[٤]
بعد اغتيال قازغان

العادة في آسيا أنه عندما يموت حاكم ، ملك أو دكتاتور ، فباستطاعة ابنه أن يخلفه إذا كان الوالد الراحل قد خلَّف وراءه دولة قوية منظّمة ، وكان الابن جديراً بالسيطرة عليها والاحتفاظ بها لنفسه . وإذا لم يكن الابن كذلك ، فإن أحسن ما يمكن أن يحدث هو قيام مجلس استشاري من كبار المتنفّذين في البلاد لكي يعمل على انتخاب حاكم جديد.

ولكن كثيراً ما كان يقع تنازع بالقوة على السلطة ، ويكون الفوز لصاحب العقل الأدهىٰ والذراع الأقوى . والمثل السائر لدى المغول يقول: إن اليد التي تستطيع الإمساك بالسيف هي وحدها التي تستطيع الإمساك بالصولجان.

قام ابن قازغان بمحاولة قصيرة الأمد لاستلام أعنّة السلطة في سالي سراي ، لكن سريعاً ما نفض يده وراح ملتجئاً إلى الجبال ، مفضلاً الحياة بأمن وسلام على حياة مجد وجاه محفوفة محاطة بالمخاطر والمؤامرات . وبرز على الأثر كل من حاجي برلاس

والأمير بايان سلدوز ، وقد قَدِما إلى سمرقند يدّعيان السيادة على البلاد . وكان تيمور مكروهاً من كليهما معاً.

كان بايان سلدوز مدمناً على تعاطي الخمرة ، لا يصلح لحكم البلاد ، وضعيفاً لا يصلح لمواجهة الأزمات ، كما كان حاجي برلاس قليل الاكتـراث بمستقبل البـلاد . ونتيجة لذلك فقد انسحب أمراء كثيرون إلى حصونهم ليحشدوا محـاربيهم ، وليقيموا مستعدِّين ليدافع كل منهم عن ممتلكاته وليغير على أملاك جيرانه . لقد عادت حليمة إلى عادتها القديمة ، وكان ذلك نقطة الضعف التقليدية لدى المغول والأتراك ، بعدما يقرب من ١٥٠ عاماً على وفاة جنكيزخـان . إنه التنازع من أجل السيطرة.

كان معظم رجال قبيلة برلاس قد انضموا حول حاجي برلاس بعد موت طرقاي ، وقد ساروا معه الآن إلى سمرقند . ووجد تيمور نفسه ، في المدينة الخضراء ، معزولاً مع نفر من الرفاق والأتباع المخلصين . وقد قام بجهود لتوحيد صفـوف بعض الأمراء الذين كان قد عرفهم في بلاط قازغان ، لكن دون نتيجة ، وحاول أن يحسِّن علاقاته مع بايان سلدوز وحاجي برلاس ، ولكنه لم ينجح.



الفصل السادس

تيمور وتغلق تيمور خان

ظهور الخان الكبير على المسرح ـ حاجي برلاس ـ تيمور يقابل الخان ـ تيمور أميراً على بلاد ما وراء النهر ـ عودة الخان تغلق تيمور.

[١]
الخان الكبير على المسرح

كان تغلق تيمور خان ، في جغطاي الشرقية ، يراقب ، من وراء جباله ، تطور الأحداث في بلاد ما وراء النهر ، أي في الشطر الثاني السابق من جغطاي . لم يكن قد نسي بعد ما وقع من عصيان ضده منذ جيل مضى . وقد شجعته حالة الفوضى والاضطراب ، التي سادت في سمرقند وسالي سراي ، بعد اغتيال قازغان ، على القدوم بنفسه ، عام ١٣٦٠م ، على رأس جيش لجب ، منقضّاً على بلاد ما وراء النهر كسباع الطير على حصان قد سقط إلى غير قومة . وقد بدأت مع هذا الحدث مرحلة جديدة من حياة تيمور ، وكان سنّه يومئذٍ ٢٤ عاماً.

قابل أمراء العساكر ورؤساء القبائل زحف الخان الكبير بالتراجع أمام الخطر المشترك ، وهرب قسم كبير منهم إلى خارج البلاد ، ومن ضمنهم حاجي برلاس ، باستثناء الأمير بيازيد جلائر ، الذي كانت عاصمته خوجند على طريق الجيش الزاحف ، والذي سارع عائداً إلى مدينته وقومه ، ليستقبل الخان بالهدايا وبإعلان خضوعه وانقياده.

[٢]
حاجي برلاس

ظهر حاجي برلاس ، في هذه المناسبة ، كعادته ، سريع الإنفعال ولا يثبت على رأي . استدعى مقاتلي القبيلة من مدينة قارشي والمدينة الخضراء ، وحشدهم بقصد

القتال ، ثم غيَّر رأيه بخصوص المقاتلة ، وأرسل خبراً إلى تيمور يعلمه بانسحابه وقومه وحاشيته باتجاه هرات ، في جنوب أفغانستان . كان قد أخذ يشعر بنموٍّ شعبية تيمور بين شباب القبيلة ، وبازدياد المعجبين منهم بجرأته وكفاءته يوماً بعد يوم ، وأراد لذلك أن يعيده إلى جانبه وأن ينسيه ما كان منه من جفاء وعداء ضدّه . ولكن تيمور لم يكن راغباً في التخلّي عن المدينة الخضراء وتركها مفتوحة على طريق الشماليين . وقد أرسل إلى عمه يقول:

- اذهب أنت إلى حيث تشاء ، أما أنا فإني سأركب قاصداً بلاط الخان! .

استمرّ هروب الأمراء والرؤساء أيّاماً ، جنوباً على طريق سمرقند ، مع نسائهم وأفضل خيولهم . وبقي آخرون عازمين على البقاء مع ممتلكاتهم ، وقد أثّر فيهم هدوء تيمور ومتانة أعصابه ، فهرعوا إليه يبايعونه على الولاء والطاعة ، مطالِبين هكذا بحمايته . ولكنه لم يرد شيئاً من ذلك . فأصدقاء ساعة الحاجة ، كما كان يردّد ، ليسوا أصدقاء حقيقيين ، كما أن حشداً كبيراً من المحاربين والأتباع قد يعطي للخان سبباً صالحاً لتبرير هجوم ضد مثل هذا الحشد.

[٣]
تيمور يقابل الخان

بدأ تيمور باتخاذ بعض التدابير . قام أولاً بإرسال زوجته مع طفلها إلى بلاط أخيها في أفغانستان ، ثم قصد مستشاره الروحي ، الحكيم الملاّ زين الدين ، وتحدّث معه خلال الليل . لا يُعلم ما جرىٰ بين الإثنين ، إلاّ أن تيمور شرع ، عقبَ ذلك ، بتجميع أفضل ممتلكاته المنقولة - خيول سباق ، سروج مرصّعة بالفضة ، ذهب ومجوهرات - ووضعها في مكان أمين ، مكان ربّما كان زين الدين قد عيّنه له.

وفجأة ظهر مغول الشمال . ظهرت الطلائع الكشّافة على خيول جبلية شعثاء ، مثقلة بالأسلاب والمنهوبات . وقد استقبلهم تيمور بودٍّ ، وسخىٰ في إكرامهم ، وعمل قدر المستطاع على تلبية طلبات قائدهم وإشباع جشعه . وقد حمل هذا القائد وضبّاطه بالرشوة على عدم التورّط في أعمال السلب والنهب ، وأعلمهم بأنه متوجّه إلى مقابلة الخان.

وصل تيمور إلى مقرّ الخان . كانت الأرض مفروشة بقطعان الخيل والجمال ، وبينها خيام اللباد تملأ السهل . كان الهواء يتلاعب ويعبث بشعر ذنب الخيل الطويل في

رأس الأعلام والرايات ، ويثير غبار الروث اليابس لمختلف ما كان في ذلك المقرّ من أنواع الحيوانات.

كان تغلق ، الخان الكبير ، جالساً على بساط من اللباد تحت الراية الكبيرة . كان مغولياً عريض الوجه ، نافِر عظام الوجنتين ، بعينين مراوغتين ولحية خفيفة . وكان شخصاً موسوساً ظنوناً، نهاباً بارعاً، ومقاتلاً عنيداً. وعندما ترجّل تيمور عن جواده، أمام أعين حشد كبير من نبلاء الجات[1] ، وجد نفسه في حضرة رجل كان صورة طبق الأصل عن أجداده.

وكما هي العادة ، في مثل هذه الأحوال ، قام تيمور بفروض وطقوس التحية والسلام والاحترام الواجِبة لأميره ، وقال:

ـ يا أبي ، يا مليكي ، يا سيِّد الجيش ، أنا تيمور قائد رجال البرلاس ، من المدينة الخضراء! .

أُعجب الخان أول كل شيء بجرأة تيمور ، وببهاء درعه المطعّم بالفضة . لقد تفاخر تيمور متبجحاً عندما أدّعى أنه قائد محاربي البرلاس ، وكان هؤلاء في ذلك الوقت هاربين مع حاجي برلاس . ولكن الظرف لم يكن لأنصاف الحلول ، زد على ذلك أن هداياه للخان كانت فاخرة ثمينة . وكان من الواضح ، حتى لعيون البدو البخلاء الطمّاعين ، أنه لم يحتفظ بشيء لنفسه . ونما لدى الخان إحساس بالميل إليه.

وقال تيمور:

ـ كنت أودّ ، يا أبانا ، لو كان الكثير بيدي لأضعه عند أقدامك . ولكن ثلاثة كلاب من ضبّاطك قد أشبعوا شراهتهم من حوائجي وأمتعتي! .

لقد كان ذلك منه إبداعاً خالصاً . وأخذ تغلق خان يفكِّر ، ويتساءل في دخيلته ، عن مقدار الثروة التي راحت من يده . وانتهى من تفكيره وتساؤله بأن أرسل سعاة على عجل مع أمر إلى الضباط الثلاثة المسيئين بأن يعيدوا ما أخذوه . وقال وهو يعني أولئك الضبّاط:

ـ نعم إنهم ثلاثة كلاب ، ولكنهم كلابي . وإن شراهتهم هي واللّه كشعرة على مقلتي ، أو شظية في لحمي.

---

(١) اسم يُطلق على مغول الشمال.

لـو سبق لمكيافيللي أن عـرف أولاد السهوب هؤلاء ، لـربما كـان قد ألّف كتـاباً جديداً . كان الخداع والمخاتلة مآثر لديهم ، والدسيسة فناً رفيعاً . كانوا جنساً محارِباً ، غير أن المحاربة كانت عملهم منذ الأزل ، ولذا فإنهم كانوا لا يلجأون إلى السلاح إلاّ كحلّ أخير . واكتسب تيمور لنفسه عدداً من الأصدقاء في مخيّم الخان.

وتحدّث مغول الشمال فيما بينهم ، مردّدين:

ـ إن أمراء سمرقند مشتّتون الآن كطير السمّن تحت ظلال الصقر . وتيمور هنا لوحده فقط . إنه رجل حكيم ويجب أن نكتسبه ونحكم من خلاله.

لم يفعلوا شيئاً بهذا المعنى في الحال؛ ذلك لأن الضباط الثلاثة ، الذين سبقت الإشارة إليهم ، وقد اعتقدوا أن الخان سيسلبهم كل ما يملكون ، على سبيل العقاب ، قرّروا لذلك أن يتّحدوا ، فرفضوا الانصياع إلى أمر الخان ، وأخذوا طـريقهم باتجـاه أوطانهم ، ينهبون ويسلبون في سياق ذلـك . وعند وصـولهم إلى الحدود الشمـالية ، أخذوا يجمعون جيوشاً ، ويثيرون الفتن في غياب الخان.

وعلم تغلق بذلك فاغتاظ وتردّد ، واستشار تيمور ، وكان هذا على ما بـدا واسع الحيلة ، وقد ارتأى أن يرجع الخان إلى الشمال على عجل . وقال له باحترام وتهيّب:

ـ يا أبانا ، إنك لن تُواجه هناك بسوى خطر واحد . أمّا هنا فإنك ستتعـرض إلى خطرين: خطر أمامك ، وخطر خلفك.

اقتنع الخان برأي تيمور ، فانسحب عائداً إلى بلاده للقضاء على العصاة . وعمد ، قبل انسحابه ، فعيّن تيمور قائداً برتبة تومان ـ باشي ، أي قائداً لعشرة آلاف ، وأعطاه لذلك ختماً رسمياً ووثيقة ملكية برتبته وسلطته.

[٤]
تيمور أميراً على بلاد ما وراء النهر

أنقذ تيمور واديـه ومدنـه من التدميـر ، وصار ، بتعيين من الخـان ، رئيساً لقبيلة البرلاس ، قبيلته . وقد ذاع صيته وصارت له شعبية كبيرة للدور الذي لعبه في حمـل الخان المغولي على الانسحاب . وقد شملت السلطة ، التي منحها تغلق لتيمور ، جميع بلاد ما وراء النهر . ولكن ما أن زال الخطر المشترك حتى عاد الأمراء في البـلاد إلى خصوماتهم بنشاط ومرح . وكانت الأعوام الثلاثة التالية صورة متعدِّدة الألوان والأشكال من الأحداث والتطوّرات.

عاد عمّ تيمور ، حاجي برلاس ، من منفاه ، ليتحالف مجدداً مع رئيس قبيلة جلائر بايزيد ، وقرّرا أن يتخلّصا من تيمور بقتله . ولم يكن لدى تيمور من الوسائط الكافية ما يمكنه من العمل لفرض سلطته بموجب صلاحيات منصبه الجديد . وقد رفض بايزيد جلائري أن ينفِّذ أوامر تيمور ، وزادت الأحوال سوءاً بعد عودة حاجي برلاس من خراسان وتحالفه مع بايزيد . واستطاع الحليفان أن ينتزعا منطقة كيش من تيمور.

وبتأييد من حاجي برلاس ، أعلن بايزيد جلائري نفسه حاكماً على البلاد ، ثم أرسل الحليفان إلى تيمور دعوة لحضور اجتماع معهما للتداول في أمور البلاد ومشاركتهما الحكم . ويظهر أن تيمور قد وثق بأقوالهما ، فتحرك مع أنصاره إلى حيث كانا يعسكران في ضواحي مدينة كيش . وقد استقبله بايزيد لدى وصوله بحرارة ، وأخذ بيده وأدخله إلى الخيمة العامة ، ثم قال:

- إننا سنجري محادثات سريّة والوقت قصير ، فلنذهب إلى الخيمة الخاصّة . وسار أمامه كمن يرشده إلى الطريق . ولما دخلا الخيمة الخاصّة ، رأى تيمور سجّادة مفروشة في ناحية ، وعليها غطاء من لبّاد ، وقد جلس حاجي برلاس على أحد جوانبها ، وسارع بايزيد فجلس على الجانب المقابل ، تاركاً مكان الوسط ليجلس عليه تيمور ، بينه وبين حاجي برلاس . وقد خُيِّل لتيمور ، فور أن أبصر بالسجّادة وغطاء اللباد وطريقة جلوس الحليفين ، أن في الأمر مكيدة ، وأن هناك بئراً تحت المكان المعدّ لجلوسه . وللحال تظاهر بأن رعافاً قد حدث في أنفه ، فأخرج منديله ووضعه عليه ، وأسرع خارجاً من الخيمة الخاصّة إلى الخيمة العامّة حيث كان أنصاره ، وكلّهم مسلّحون ، وغادر الجميع عائدين إلى مكان نزولهم.

وبعد وقت من فشل هذه المؤامرة للتخلّص من تيمور ، دبَّ الخلاف بين الحليفين ، فانسحب بايزيد جلائري إلى مدينة خوجند في الشمال ، في حين تحرّك حاجي برلاس، مع أنصاره، إلى المدينة الخضراء، مواطن تيمور، للاستيلاء على الوادي.

لم يكن تيمور مستعداً للتخلّي والإنسحاب ، خاصة وبحوزته الآن صكّ من الخان وبضعة آلاف من الجنود تحت تصرّفه ، فسارع وحشد جنده وأتباعه ، واشتبك جيش ابن الأخ في قتال ضد جيش العمّ ، على طريق سمرقند . وسريعاً ما انفكّ حاجي برلاس عن القتال وراح منسحباً من الميدان باتجاه الحاضرة الكبيرة . واغتبط تيمور وانطلق إلى المطارَدة ، ولكنه فوجىء ، في اليوم التالي ، بتخلّي أتباعه عنه وانضمامهم إلى جانب العمّ ، الذي نجح فأطمعهم بالعودة إلى صفوف القبيلة.

انسحب تيمور إلى مدينة ترمذ ، الواقعة على نهر أمو داريا ، حيث وجد نفسه مضطرّاً إلى التحالف مع شقيق زوجته ، الأمير حسين ، وكان هذا قد جاء مع قبائله الجبلية والأفغانية من منطقة كابل . غير أن تيمور كان لا يثق بهذا الأمير ويخشىٰ من نفوذه ، ولذا كتب إلى الخان تغلق يستحثّه على العودة إلى بلاد ما وراء النهر ، ويصف له الحالة التي وصلت إليها البلاد ، وظلم الأمراء لعامّة الناس ، واضطرار هؤلاء إلى مغادرة أوطانهم التي غدت مقفرة من السكان . وفي هذه الأثناء كان القتال مستمرّاً بين القبائل وأصحاب العسكر ، في جميع الأنحاء تقريباً ، إلى أن ظهر الخان الكبير فجأة ، «كحجر يقع بين العصافير».

[٥]
عودة الخان تغلق تيمور

تحرّك تغلق تيمور ، من عاصمته ألماليك ، في أيّار ١٣٦١م . كان مزاج الخان ، هذه المرة ، أشدّ مرارة وقسوة . لقد قرّر أن يستعيد كل شيء ، وبدأ فأعدم بايزيد جلائر . وهرب حاجي برلاس مع أنصاره جنوباً ، لكن ليُقتل ، بعد ذلك ، على يد قطّاع الطرق . وصمد الأمير حسين واشتبك مع الجيش المغولي الشمالي في الميدان ، وكان أن هُزم في نهاية المعركة ، وراح ناجياً بنفسه ، هارباً في طريقه إلى خراسان . أما تيمور فقد بقي في بيته ، في المدينة الخضراء ، وقد خَلت الساحة من منافسين محليين أقوياء ضدّه ، وتعزّزت مكانته في قبيلة برلاس بعد هروب حاجي برلاس ومقتله.

أرسل الخان يستدعي تيمور إليه . وللحال عمد هذا إلى جمع الهدايا والأموال من وجوه البلاد وزعماء القبائل لتقديمها إلى الخان إنقاذاً للبلاد ، وحماية للسكان ، وصيانة للأملاك من الإحراق والإتلاف على يد جيش مغول الجتا ، مغول الشمال . وتقدّم تغلق خان بنفسه هذه المرة إلى داخل البلاد للقضاء على ثورة في بدخشان ، ثورة اندلعت بتدبير الأمير حسين حفيد قازغان وشقيق أولجاي زوجة تيمور . وكان حسين هذا قد نجح ، بعد قضائه على نفوذ ابن عمّه عبد اللّه بن قازغان في سمرقند ، فأسّس إمارة في بلاد الأفغان شملت كابل وبلخ وكوندوز . ولما حاول أن يوسِّع في أملاكه شمالاً إلى ما وراء النهر ، سار إليه تغلق خان بنفسه ، وأجبره ، بعد معركة جرت بالقرب من باب الحديد جنوب سمرقند ، على الفرار والرجوع إلى خراسان . وأتبع الخان انتصاره بعملية تأديب واسعة وقاسية ، خلال ربيع وصيف عام ١٣٦١م.

عاد الخان إلى سمرقند في الخريف ، وهنا أمر بقتل زعيم آخر هو بايان سلدوز ، الذي كان قد حاول ، في وقت سابق ، أن يفرض نفسه حاكماً على البلاد . وهكذا صارت بلاد ما وراء النهر بكاملها تحت حكم المغول من جديد . وأعلن الخان ابنه إلياس خواجه نائباً عنه في حكم البلاد ، ووضع تحت تصرّفه جيشاً بقيادة الجنرال بيكجيك ليسهر على تأمين الطاعة له . وعيّن الخان تيمور أميراً على منطقة سمرقند تحت إشراف الأمير إلياس خواجه والجنرال بيكيجيك . وقد احتجّ تيمور لدى الخان لوضعه تحت سلطة الشماليين ، فذكّره تغلق بالعرف المعمول به بعد جنكيزخان ، وهو أن يكون الحكم بأيدي المنحدِرين من جنكيز وزوجته الأولى بورتاي ، وأن على المنحدرين من أولاد جنكيز الآخرين أن يطيعوا ويخدموا بإخلاص . وهذا العرف ما هو إلاّ تأكيد وتطبيق للإتفاق الذي كان قد تمّ بين كابول ، الجدّ الأعلى لجنكيزخان ، وتغلق خان ، وبين شقيقه قجولاي الجدّ الأعلى لتيمور.

الفَصلُ السَّابِعُ

ثورة تيمور ضد تغلق خان
٧٦٣ - ٧٦٦هـ/ ١٣٦٢ - ١٣٦٥م

الجنرال بيكيجيك - انتفاضة - المتطوِّف الجوّال - التركمان.

[١]
الجنرال بيكيجيك

حاول تيمور ما وسعه أن يتعايش مع الظروف المستجدّة ، ولكنه ما لبث أن رأى أنه يُعامل بشيء من عدم الاهتمام من قِبل الحاشية المغولية المتغطرِسة ، التي كانت تحيط بإلياس خواجه . وكان من أبرز هذه الحاشية الجنرال بيكيجيك ، الذي أخذ يعيث في سمرقند كبلد محتلّ مفتوحٍ ، ينهب ويخرِّب على هواه . وكان الأمير إلياس خواجه قليل الخبرة ، عاجزاً عن كبح تصرفات هـذا القائـد ومنعه وقـوّاته عن التعـرّض للفلاحين والسكان بالسوء والأذى . وكان تيمور يرفع إلى تغلق خان تقارير حـول هذه الأعمـال ويستحثّه على التدخّل لوضع حدّ لها ومعاقبة المسؤولين.

وحدثت أعمال مغولية ألهبت مشاعر الناس ، كاختطاف النساء والاعتداء على رجال الدين . وأخذ الملاّ زين الدين ، الناطِق باسم الفقهـاء ، يجهر بصـوته في الجـوامع احتجاجاً على هذه التصرفات . وعمد تيمور فأرسل خطاباً إلى الخان يتظلّم فيه من هؤلاء العسكريين والموظفين اللصوص النهّابين ، ولكن الشكوىٰ لم تأتِ بنتيجة.

[٢]
انتفاضة

وجاءت الأخبار إلى تيمور يوماً بأن المغـول قد اختـطفوا مئـة من بنات سمـرقند العذارىٰ ، واستاقوا عدداً من رجال الدين للبيع في سوق الرقيق ، فتوجّه على الفور إلى

مقابلة إلياس خواجه والجنرال بيكيجيك ، ليطلب منهما أن يتدخّلا لإطلاق سراح المختَطَفِين . ولما لمْ يلقَ أُذناً صاغية ، ثارت ثائرته فجمع أتباعه وانطلق شمالاً يحرِّر بالقوة كل أسير يُصادفه . وأرسل إلياس خواجه يخبر أباه بأن تيمور ثائر ويسعى لقتله والإستئثار بحكم البلاد . وصدر أمر الخان بالقبض على تيمور وإعدامه.

وكان هناك من أنبأ تيمور بأمر الخان قبل أن يصل إلى مراجع التنفيذ ، فألقى تيمور بالسياسة والدبلوماسية عرض الحائط ، وفرّ ملتجِئاً إلى أحد الجبال في جنوب سمرقند . وبنتيجة ذلك فقد ظهر أمام الملأ بأنه نصير للمظلومين ومدافع عن كرامة رجال الدين.

[٣]
المتطوّف الجوّال

أقام تيمور في الجبال ، مع زوجته وبعض الرفاق ، ثمانية أيام إلى أن جاءه رجل من قِبل شمس الدين كيلال ، أحد رجال الدين في كيش ، يحمل إليه رسالة تشجيع ونصيحة بالتوجه إلى خوارزم ، للانضمام إلى شقيق زوجته ، الأمير حسين ، الموجود الآن في هذه المنطقة . وكان حسين يقيم متشرِّداً في خوارزم بعد هزيمته في ممر باب الحديد على يد تغلق خان ، وهو كما تقدّم حفيد قازغان ، ولذا فالعمل معه يعطي تيمور وثورته نوعاً من الشرعية . ويقول تيمور ، في مذكراته ، إن حسيناً هو الذي أرسل إليه ، عام ١٣٦٢م ،يعرض عليه التحالف. وبما أنه لم يلتحق به إلى الجبال عدد كافٍ من الأنصار يمكّنه من العمل الثوري بفائدة وفاعلية ، لذا قرر المضيّ إلى خوارزم.

كانت تفصله عن خوارزم صحراء ممتدة غرباً ، قفراء جرداء . وعبر الرمال الحمراء ، التي تثيرها هبّات الريح الساخنة وترفعها في سحاب خفيف من الغبار ، وعلى هذه السهوب الصلصالية ، أخذ تيمور طريقه إلى خوارزم . كانت زوجته أولجاي معه ، وكذلك نفر من الأتباع الذين اختاروا أن يواجهوا معه الشدّة وشظف العيش . كانت معهم خيول محمَّلة ببعض الدروع والأسلحة وبعض النثريات كأثر من ثروة . كانوا يذهبون من بئر إلى بئر ، إلى أن عثروا على الأمير حسين عند أحد الآبار.

كان هذا الأمير أيضاً طريداً شريداً ، وكان رجلاً صلب العود عنيداً بخيلاً ، وعلى شجاعة كافية . كان في كابل ملكاً ، وكانت غايته الأولى أن يسترجع مُلْكَه . وكان ، في سرّه ،-يرى نفسه متفوِّقاً على تيمور الذي كان يصغره سنّاً ، ولكنه كان يقدِّر ويعترف

بكفاءة تيمور العظيمة للكفاح والصراع . وكان تيمور ، من جهته ، لا يستطيع أن يفهم الداعي إلى بُخل حسين وطمعه ، إلاّ أنه كان سعيداً بوجوده كحليف . كانت أولجاي العروة التي تربط بين الاثنين ، وكانت امرأة شجاعة ، تقابل الشدّة وضنك العيش بالمرح والبسمة ، ولا تشكو من التعب والحرمان . وكان حسين يصطحب معه إحدى زوجاته ، دلشاد آغا ، وكانت آية في الحسن والجمال.

كان هؤلاء الأربعة يناقشون الوضع كل مساء . وكان معهم الآن ستون رجلاً ، على خيول قوية ، وقد أجمعوا ، آخر الأمر ، على السير غرباً ، قاصدين طرق القوافل والمدن الكبيرة القائمة على مقربة من بحر خوارزم ، الذي هو بحر آرال الآن . قادهم حسين إلى واحة خيفا ، حيث اجتمعوا بحاكم المنطقة ، توكيل بهادور ، عارضين عليه الاشتراك معهما في الثورة ضد مغول الجتا ، ولكن هذا الحاكم لم يكتفِ برفض غرضهما فحسب ، بل وسعى للغدر بهما واعتقالهما ، ثم بيعهما للمغول ، وبناء على ذلك فقد أسرعا بمغادرة المكان.

لم تكن الواحة ، بعد ذلك ، محلاً آمناً لهاربين مشرّدين ، فغادراها باتجاه أوركنج ، المدينة الثانية في منطقة خوارزم . وتعقبهما توكيل بهادور بألف من فرسانه . وبعد معركة جرت عند سفح أحد تلال الصحراء ، تمكّن حسين وتيمور من الإفلات والفرار من مطارديهما ، وذلك بعد أن قُتل كل أتباعهما تقريباً ، وكاد حسين يُقتل في المعركة لولا أن أنقذه تيمور من الموت بحركة جريئة ، واضطرّت دلشاد آغا ، زوجة حسين ، أن تتخلّىٰ لزوجها عن الحصان الذي كانت تمتطيه بعد أن قُتل حصانه ، وشاركت أولجاي ، زوجة تيمور ، ظهر حصان واحد . وتوغل الجميع في الصحراء ، ولم يكن قد بقي معهم حيّاً من الأتباع الستِّين سوى ثلاثة أفراد فقط.

[٤]
التركمان

ضرب تيمور ورفاقه في الليل على غير هدى . ومع طلوع الفجر ، وجدوا أنفسهم ، بطريق الصدفة ، عند بئر وحوله ثلاثة من رفاقهم ، ثلاثة بلخيين كانوا قد هربوا من المعركة مشياً على الأقدام . وبينما كان الآخرون نياماً ، كان تيمور وحسين يستعرضان الموقف . واتفقا بالنتيجة على الافتراق تجنّباً لاحتمال اكتشاف أمرهما ، ثم تمدّدا للنوم بعض الوقت.

كان لدى الجميع سبعة رؤوس من الخيل ، ولكن مع ظهور أول نور للنهار ، عندما أفاقا من نومهما القصير المضطرب ، وجدا أن البلخيين الثلاثة قد ذهبوا آخذين معهم ثلاثة خيول . اقتسم تيمور وحسين الخيول الأربعة الباقية ، ومضى حسين وزوجته ، بعد أن اتفق مع تيمور على اللقاء ثانية ، إذا أمكن ، في خراسان . كان مع تيمور الآن زوجته أولجاي وخادمه عبد اللّه ورأسان من الخيل . خُصِّص حصان لركوب أولجاي ، وحمِّل ما بقي من متاع على الحصان الثاني ، وانطلق الثلاثة يدرجون خلال الرمال ، تيمور ماشياً على قدميه وخلفه عبد اللّه يجرّ حصان المتاع.

لم يكن معهم طعام . وبعد مسير بضع ساعات ، أبصرا عن بُعد بعض رعاة الماعز ، فتحوّلا إلى ذلك الاتجاه ، ليشتريا عدداً من الماعز ، بادئين بذبح رأس واحد وشوي شيء من لحمه ، وحمل الباقي مؤونة للطريق . واستفسر تيمور من الرعاة عمّا إذا كان هناك درب يؤدِّي إلى خارج الصحراء ، فأرشدوه إلى طريق قائلين إنه يؤدِّي إلى بعض أكواخ يسكنها تركمان.

تبع تيمور وصحبه ذلك الدرب ، فأدّى بهم إلى عدد من الأكواخ التي بدت وكأنّها مهجورة . دخل تيمور إلى كوخ ليتفحّصه ، وما كاد يفعل حتى تعالت الصيحات حوله . كان التركمان مجتمعين لسببٍ ما في أحد الأكواخ ، وقد ظنّوا أن تيمور ورفيقيه هم من اللصوص ، فهجموا وقد بيّتوا الشر والأذى . وقف تيمور وعبد اللّه أمام المهاجمين وقد أشهرا سيفيهما ، وأولجاي خلفهما في الكوخ . لم يكن معهما نبال ، فألقيا بقوسيهما جانباً ، وتقدّم تيمور للقاء المهاجِمين . وبحركته هذه وضحت صورته للمهاجمين ، فعرفه زعيمهم ، وكان سبق له أن رآه في المدينة الخضراء ، فأوقف جماعته ، وتقدّم منفرداً ليعانق الطوراني الشاب وهو يهتف دهشاً:

ـ أي واللّه ، إنه ، يقيناً ، سيِّد ما وراء النهر!

تحلّق التركمان ، وهم أناس هزالىٰ ، بألبسة من جلود الخراف ورائحة كريهة ، حول تيمور يسألونه الصفح عمّا بدا منهم ، ثم ذبحوا خروفاً وأقاموا عليه وليمة . أكل الجميع من القدر المشترك ، بينما تجمّع أطفال القبيلة وكلابها على مقربة ينتظرون دورهم إلى ما سيبقى في القدر من طعام وعظام.

في صباح اليوم التالي ، قبل الحركة ، أعطى تيمور لزعيم التركمان هدايا ثمينة كانت عبارة عن ياقوتة نفيسة وثوبين مرصعَيْن باللآلىء . وقابل التركمان هذا الكرم بتقديم ثلاثة من أحسن خيولهم لتيمور ، مع دليل ليرشدهم إلى طريق الجنوب.

[٥]
الأسر في ماخان

ضربوا في الصحراء مدة ١٢ يوماً ، بحثاً عن طريق خراسان ، والقرية الأولى ، التي بلغوها ، كانت خرائب مهجورة . وقد اقتضى اللجوء إلى حفر الأرض طلباً للماء ، واستعملت الخرائب مأوى لإراحة الخيل.

وتعرّضوا في هذا المكان إلى كارثة؛ فقد شاهدهم رجال من قبيلة مجاورة ، فجاءوا وأخذوهم أسرى إلى شيخهم ، وكان يدعى علي بك ، واسمه الكامل «علي جون غرباني» ، وكان تركمانياً . وقد رأى أن يستفيد من القبض على تيمور ، فاستولى على كل ما كان معه ، وأودعه وزوجته في زريبة للبقر ملأى بالهوام والحشرات . أقاما في الزريبة ٦٢ يوماً ، وكان الوقت نهاية فصل الجفاف ، حيث حرّ الجو عذاب لا يُطاق . وقد أقسم تيمور بعد ذلك أن لا يحتفظ في السجن بأي كان ، بريئاً كان أو مجرماً.

شرع علي يبحث عن أحسن السُبل للمساومة على أسراه مع مغول الجتا . وعلم أخ له ، وكان فارسياً ورئيساً لقبيلة ، بما كان جارياً ، فكتب إلى أخيه وقبيلته ، ناصحاً ومحذِّراً من مغبة التدخّل بين مغول الخان وبين سيّد المدينة الخضراء ، وأرسل مع كتابه هدايا إلى تيمور.

نزل علي بك عند نصيحة أخيه ، بعد وقت طويل من التردّد والإحجام ، فأخلى سبيل سجنائه ، لكن على كره منه ، وقد احتفظ بالهدايا ، ولم يقدّم لتيمور وأولجاي وعبد اللّه سوى حصان هزيل كئيب المنظر وجمل أجرب.

وأولجاي ، ذات الجدائل السوداء ، لم تقابل تتابع كل هذه النكبات بغير الابتسام . وكانت تقول لزوجها مردّدة:

ـ ليست هذه نهاية الطريق!.

الفصل الثامن

جمل وحصان

في سمرقند خفية ـ مع حسين في قندهار ـ في سيستان.

[١]
في سمرقند

كان الفصل خريفاً ، وقد بدأت الأمطار تهطل . والتقى تيمور ، في مكان ما عند نهر أمو داريا ، ببعض محبّيه فاختار منهم خمسة عشر مرافقاً ، وحصل على خيول من شيخ قبلي صديق ، وهكذا صار بوسع أولجاي أن تركب في محفّة.

أخفى تيمور زوجته في بعض الضواحي ، وعبر أمو داريا يقصد سمرقند ، ونجح فدخل المدينة ليلاً دون أن يشعر به أحد ، عند صلاة المغرب . أقام في هذه المدينة طيلة (٤٨) يوماً ، ومغول الجات منتشرون فيها ودائبو البحث عنه . كان ينزل في بيت أخته «قتلغ توركان» ، ويذهب في الليل إلى الخانات ليلتقط الأخبار . وكان يزور خفية بيوت أصدقائه ، تراوده فكره بترؤس انتفاضة فجائية في المدينة.

لقد خاطر بحياته دون فائدة . لم يكن من المستطاع عمل أي شيء ضد سلطة الخان في ذلك الوقت؛ فمغول الشمال يُحْكِمون قبضتهم على المدينة . ورغم أنهم كانوا يعتدون على الناس ويفرطون في أعمال السلب والنهب ، فإنهم كانوا يُعتبرون الممثّلين الشرعيين المحسوسين لسلطة جُنكيزخان ، وكانوا علاوة على ذلك منتصرين . وكان الزعماء وشيوخ القبائل ، حول سمرقند ، معتادين على السير خلف زعيم عسكري . كانوا رجال حرب ولا يفكّرون كثيراً بسوى ذلك ، وكل رجل يستطيع أن يثيرهم ، ويضبطهم ويعطيهم طعم الانتصار وثماره ، فإنهم سيكونون أوفياء له. ولكن الأوضاع السائدة لم تكن مشجّعة ؛ فإلياس خواجه محكم قبضته على بلاد ما وراء النهر ،

وعلى أفغانستان كذلك ، وحسين حفيد قازغان مُشرَّد هـارب ، وأمير مغـولي يقيم في قصره في كابل . ولم يكن ليُرى بعد أي أمل في السير وراء الفتى تيمور.

عرف بعض العامة ، من أهالي سمرقند ، بـوجود تيمـور في مدينتهـم ، وأخـذت الألسن تتناقل أخباره . وجاء من يحذّره من أن وجوده معروف من المغول . ورأى أخيراً أن يرحل ، فخرج من المدينة ليلاً متوجِّهاً إلى المدينة الخضراء ، ومنها إلى أمو داريا حيث عبر إلى الضفة الجنوبية ، ونزل في إحدى القرى القريبة من النهر.

أقام تيمور في ذلك المكان شهراً يستجم ويخطط . وأخذ الأنصار يوافونه إلى القرية يوماً بعد يوم ، إلى أن بلغ عددهم ألف رجل . وكانوا من فئات اجتماعيـة مختلفة ، وكانت نسبة كبيرة منهم من قبيلة برلاس . كان الجامع بينهم الطموح وحبّ المغامرة وكره الحكم المغولي . وكانت تعقب التحاق كل جماعة من هؤلاء بمعسكر تيمور ، عادة ، حفلات ترحيب وأفراح، فيقوم تيمور باستقبال القادمين وتحيتهم فرداً فرداً ، موزِّعاً عليهم هدايا من أشيائه الشخصية ، فيُعطي إلى أحدهم ، مثلاً ، حمّالة سلاحه ، وإلى آخر نطاقه ، ويهدي إلى ثالث قلنسوته . وكان سرور تيمور عظيماً عندما التحق به اثنان من أبطال قبيلته ، يدعى أحدهما إلشي بهادور والثاني جوكو برلاس.

ومـع ازدياد أتبـاعه بـالتدريـج ، أخذ تيمـور يعـاني من مشـاكـل تـأمين الـطعـام والتجهيزات . وبعد أن استشار خلصاءه ، قـرّ الرأي على التوجه للاجتماع مع الأميـر حسين ، صهر تيمور ، في قندهار ، في أفغانستان . وعندما غادروا المكان كان الفصل آخر الخريف ، وكانت الثلوج تكسو رؤوس الجبال.

[٢]
إلىٰ قندهار

كانت الطريق تنساب متعرِّجة بين الجبال ، نزولاً وصعوداً ، وكانوا مرغمين ، أحياناً كثيرة ، على شق طريقهم خلال ثلج يعلو حتى الركب . وقد تعرّضوا لأكثر من مرّة إلى غـارات أفغانيين كـانوا يجهلون مَنْ يُهـاجمون ، وخـرج تيمور ورفـاقه ، بنتيجـة هذه الغارات ، أغنى مما كانوا عليه . عبروا القمم لجبـال هندوكش ، على علو ١٢ ألف قدم ، وتدحرجوا وتسلّقوا في حركتهم على الطريق الجرف المؤدِّي إلى وادي كابل ، وكان عليهم أن يدوروا حول المدينة.

اشتروا من القرى خيولاً وغنماً ، واستلموا درب قندهار ، وكان السير عليه سهلاً هيِّناً لخلوه من الثلج تقريباً . وعند وصولهم إلى الأودية السفلىٰ وجدوا الأمير حسين في انتظارهم ، مع جيش كان صنواً لجيش تيمور نوعياً ، لكن أكثر عدداً . وبلغ عدد قوات الحليفين ستة آلاف رجل.

[٣]

قتال في سيستان

أمضوا بقية فصل الشتاء يستريحون من وعثاء السفر . ونشبت، عام ١٣٦٣م ، ثورة في سيستان ضد حاكم المنطقة جلال الدين محمود ، فبعث هذا يستنجد بحسين وتيمور ، ويتعهد بدفع مال لقاء هذه المساعدة ، ووافق الحليفان على هذا الطلب.

وعندما غدت الطرق سالكة نوعاً ما ، تحرّك حسين وتيمور إلى ميدان القتال ، ليقتحما معظم معاقل الثوّار الحصينة . ولكن حسين وجنده أخذوا يسيؤون إلى السكان ، فيسلبون القرى ويشغلونها بحاميات مقيمة . وكانت نتيجة هذه التصرفات أن ندم جلال الدين محمود على تعاونه مع هذين المغامرين ، وفضّل أن ينزل عند رغبات رعاياه الثائرين ، مقابل أن يقفوا معه ضد قوات حسين وتيمور.

تحرّك حاكم سيستان ليلاً ، خفية عن حليفي الأمس ، لينضم بقوّاته إلى قوّات الثائرين . وفي المعركة ، التي نشبت بين الطرفين ، أُصيب تيمور بسهم في يده فكسر عظمها ، وأصابه سهم آخر في رجله ، ولكنه لم يشعر بمبلغ خطورة جراحه إلاّ بعد انتهاء القتال . وقد مُني السيستانيون بالهزيمة ، وغنم حسين وتيمور غنائم وأتباعاً نتيجة لانتصارهم.

ثم افترق الحليفان؛ فتوجه حسين يقصد الشمال مع قوّاته ، وبقي تيمور في التلال ، في مكان يُدعى أرصوف ، في جوار بلخ ، مضطراً إلى الإخلاد للهدوء مدة من الزمن ، لمعالجة جراحه ، وقد لحقت به زوجته إلى هذا المكان ، وكانت سنّه يومئذ ٢٨ عاماً . وقد تسبّب له السهم في رجله بعرج دائم ، ومنذئذٍ صار أعداؤه يدعونه باسم تيمورلنك ، أي تيمور الأعرج.

وفي أرصوف شرع تيمور يعيد تنظيم قوّاته ، ويعدّها للقتال . وكانت هذه القوّات في تزايد مستمر بما كان يلتحق بها من عناصر جديدة ، نظراً لاستمرار المغول على

طغيانهم في ما وراء النهر ، وهجرة السكان المتزايدة من جراء ذلك إلى خراسان ، عبر أمو داريا .

وسعى تيمور ، تأميناً لحاجات جنده من الطعام والعتاد ، إلى مدّ نفوذه في المناطق المجاوِرة ، مع الحرص على عدم الإضرار بمصالح السكّان المحليين ، ولا سيّما المزارعين . ولما أنس هؤلاء بتيمور وجنده أخذوا يجلبون إلى معسكره ما تنتجه مزارعهم من محاصيل ويتلقون أثمانها بكل أمانة .

الفَصلُ التَاسِع

معركة عند الجسر الحجري
ومعركة قبي متن

الانتقال من أرصوف ـ معركة الجسر ـ معركة قبي متن ـ كابل شاه ـ عـودة إلياس خواجه ومعركة تحت المطر.

[١]
الانتقال من أرصوف

كان الأمير حسين ، مُغالياً في تفاؤله وتقدير قوّته ، وقد اشتبك ، متحـرِّشاً ، مـع أقرب جيش لمغول الشمال ، فتلقّى ضربة زلزلت كيانه وبعثرت قوّاته ، وقد فعل ذلك ضد رأي تيمور . وترتب على هذا الأخير ، من جراء ذلك ، أن يغادر أرصوف ووجهته الشمال ، ليلمّ شعث أتباع حسين ويكتسب أنصاراً جدداً . وكانت يده لم تشفَ بعد ، بحيث كان لا يستطيع التعاطي مع سلاحه وعنان الحصان في آن واحد.

تحرّك مع جماعته الصغيرة مُنْقَبِض النفس ، لاجئاً إلى الصيد من أجل الطعام . وكان مُعسكراً ينتظر حسين ، قرب أمو داريا الأعلى ، عندمـا عثر عليه بعض أنصاره . كانت خيمة تيمور منصوبة على حافة جدول ، وقد أقام هنا عدة أيام ينتظر ، وقد عيل صبره ، وحال ضجره وقلقه بينه وبين النوم . كان يتمشى ، ذهاباً وإياباً ، على ضفاف الماء ، مرغِماً نفسه على السير على رجله المصابة التي لن تعرف أبداً الشفاء التام .

وذات يوم ، مع بزوغ الفجر ، قام تيمور فتوضأ وبدأ صلاة الفجر . وعندما انتهى من صـلاته ونهض واقفـاً ، أبصر بخيّـالـة مسلّحين يمـرّون على الجـانب الآخـر من الجدول ، على مرمىٰ قوس أو أدنى من ذلك . كانوا قادمين من جهة بلخ . وهذه المدينة هي الآن معقل قوي لمغول الشمال . أيقظ تيمور رجاله من نومهم ، وطلب أن يؤتىٰ بحصانه.

امتطى جواده ، وانطلق بمفرده للتعرّف على الغرباء . وعندما أبصر به هؤلاء ، توقّفوا محدّقين به على نور الصباح الخافت ، فناداهم :

ـ من أين أنتم آتون ، وإلى أين تذهبون؟

ـ نحن خدم الأمير تيمور ، وقد جئنا نبحث عنه . إننا لم نعثر عليه حتى الآن ، وقد تناهى إلى سمعنا أنه قد غادر قمرود في طريقه إلى هذا الوادي .

لم يتعرّف تيمور على صاحب الصوت ، ولا استطاع أن يميّز شيئاً من معالم رفاقه . قال :

ـ إنني أيضاً واحد من خدم الأمير ، وأنا حاضر لأقودكم إليه .

قبلوا عرضه ، وطلبوا منه أن يتقدّم ليتعرّفوا عليه . كانوا ثلاثة من رؤوس الأفخاذ في قبيلة البرلاس ، ومعهم ثلاث كتائب من الخيّالة . وعندما رأوا أنه ضالتهم ، ترجلوا عن خيولهم ، وانحنوا يقبّلون ركابه . وترجّل هو بدوره ، ولم يستطع أن يمنع نفسه من توزيع هدايا عليهم على الفور: خوذته إلى أحدهم ، حزامه إلى آخر ، ومعطفه إلى ثالث . جلسوا سوية ، وجيىء بلحم الصيد ، وأُعِدّ الطعام . تقاسموا الزاد والملح ، وسريعاً ما تأكّد تيمورلنك من ولائهم .

[٢]
معركة الجسر

كان جيشه يبلغ الآن حوالي خمسة آلاف فارس . وجاءته كشّافته تخبر بأن جيشاً مغولياً مؤلّفاً من تومانتين ، عشرين ألف خيّال ، بقيادة الجنرال بيكيجيك ، يتحرّك على الطريق جنوباً ، قادِماً من المدينة الخضراء[١] ، وأنه يعيث وينهب على هواه ، مدمِّراً كل شيء يعترض سبيله .

كان مغول الجات[٢] ينهبون ، جرياً على عادتهم ، خاصة وهم الآن يواجهون قوة محلية تقف ضدهم في الميدان . وقد اجتاحوا ترمذ شمال النهر ، وانضم إليهم عدد من الأمراء المحليّين ، ممن تعهد بعضهم لإلياس خواجه بأن يسلموه تيمور وحسين مكبلين بالحديد .

---

(١) قارشي .

(٢) مغول منغوليا الباقون على عاداتهم وتقاليدهم .

كان تيمور يعتقد أن القبائل المحلية ، المقيمة عبر نهر أمو داريا ، مستنكرة ، ولا شك ، لأعمال هذا الجيش المغولي ، وقد تنضم إلى جانبه في المعركة القادمة ، ولكن المغول هم على الجانب الثاني الشمالي من النهر ، وعليه أن يعبر لمقاتلتهم.

الجنرال بيكيجيك قائد عسكري قدير ، وهو يحرّك قوّاته على الضفة الشمالية لتغطية جميع نقاط العبور الممكنة ، وإن محاولة للعبور ، في مثل هذه الظروف ، كانت تبدو كمستحيلة ، ولكن تيمور عَبَرَ . أمضىٰ شهراً يتحرّك على طول النهر ، وبيكيجيك يتابعه ويتحرّك على موازاته على الضفة الأخرى . واستمرت هذه المناورة إلى أن ضاق مجرى النهر وضحلت مياهه . وتوقف تيمور عند جسر من الحجر.

الجيش المغولي ، المتفوِّق في العدد والتجهيزات والوضع النظامي ، لم يكن في وارد العبور للقاء تيمور على الضفة الجنوبية . وقد عسكر هذا الأخير على مقربة من الجسر ، متظاهراً بالتحدّي وعدم المبالاة . وفي غضون إحدى الليالي ، أفرز خمسمئة خيّال ، بإمرة ضابطين يعتمد عليهما ، أحدهما ياوره مؤاوي ، والثاني هو الأمير موسىٰ ، وهو ضابط قدير ومن أتباع الأمير حسين.

ترك تيمور هذه المفرزة لحراسة المعسكر والجسر ، وركب وبقية جيشه وانطلقوا في جنح الظلام ، ليعبروا النهر عند نقطة على مقربة من معسكر مغول الجات ، وليتابعوا السير دون توقّف إلى ما بعد هذا المعسكر ، إلى داخل تلال كانت تشكِّل نوعاً من نصف دائرة مواجهة للنهر.

وباكتشاف المغول لآثار العبور الليلي ، عرف بيكيجيك أن قوة كبيرة قد عبرت النهر وصارت في مكانٍ ما خلفه . وكان واضحاً أن المعسكر التيموري عند الجسر باقٍ على حاله ، ولا ينتقص منه شيء . وكانت خطة تيمور أنه إذا هاجم المغول الجسر والمعسكر القائم عنده ، فإن على مؤاوي وموسىٰ أن يقاوما ويصمدا ، في حين يقوم تيمور بالانقضاض على المغول من خلفهم.

واستشمَّ بيكيجيك الخطر ، فبقي ساكناً طوال النهار . وفي الليل عمد تيمور إلى توزيع قوّته إلى جماعات صغيرة على المرتفعات ، على شكل نصف دائرة باتجاه العدو ، آمراً كل جماعة أن تُشعل عدداً من النيران.

وكان لمرأى هذه النيران تأثيره المنشود على المغول ، فأسرع بيكيجيك وقوّاته بمغادرة مواقعهم قبل الفجر ، في حركة تراجعية نحو الشمال ، برتل المسير . وجمع

تيمور كل قوّته ، وأخذ ينقض على العدو ، في هجمات جانبية من يمين ويسار . وكانت حصيلة هذه الهجمات أن أفلت الزمام من يد الجنرال المغولي ، فدبّت الفوضى في صفوف جنوده ، وانطلقوا متقهقرين وتيمور على الأعقاب ، يطاردهم دون هوادة.

وقدِم الأمير حسين في هذه الأثناء ، لينضم إلى تيمور مع عدد كبير من الأتباع ، وكلّه استعداد ، كعادته ، لإعطاء النصح والإرشاد . وما لبث أن قال:

ـ إنه لتخطيط سيء أن نطارد قوّات مهزومة! .

فأجاب تيمور:

ـ إن العدو لم يهزم ولم يدمّر بعد. .

واستمر على المطاردة.

[٣]
معركة قبي ـ متن

انسحبت قوات المغول باتجاه كيش(١) ، لتعسكِر في قبي ـ متن ، على بُعد ٢٤ كيلو متراً من كيش ، بين كيش وسمرقند . وقد ترتب على تيمور أن يتحرّك بسرعة ، بعد أن اكتشف العدو ضآلة قوّاته . كان معه الآن زهاء أربعة آلاف من الفرسان ، فاتجه بهم نحو باب الحديد . وبينما هو في الطريق ، اختار من قوته (٦٠٠) فارس ، وجعل قيادتهم لأحد أقربائه ، وهو سليمان برلاس ، وأمرهم بالتقدّم إلى كيش . ولما بلغ هؤلاء ضواحي المدينة ، أخذوا يطوفون حول المدينة وهم يسحبون على الأرض أغصان الأشجار المورقة ، مثيرين بذلك غباراً كثيفاً ، مما حمل حاكم المدينة المغولي على الاعتقاد بضخامة عدد المهاجمين ، فترك كيش مع جنده على عجل.

ولما بلغ تيمور ضواحي كيش ، قادماً من باب الحديد ، وجد الأمير حسين بانتظاره هناك مع قوّاته . ووجد الحليفان متسعاً من الوقت للتوجه إلى ضريح الشيخ شمس الدين ، في كيش ، ليقسم كل منهما ، أمام القبر ، على تبادل الإخلاص والتعاون ، ثم أسرعا مع قوّاتهما إلى موقع قبي ـ متن ، حيث كان يحتشد المغول . وكان أنصارهما في تزايد مستمر ، بعد أن أخذ المجندون ، من أهل البلاد في جيش المغول ، بالفرار

---

(١) شهري ـ سيز اليوم.

والالتحاق بقوات الأميرين المتحالفين.

كان إلياس خواجه واثقاً من الفوز هذه المرة نظراً لتفوقه في العدد والتجهيز ، ولكن المعركة ، التي دارت ، تحولت ضده هذه المرة أيضاً ، واستطاع تيمور أن ينتزع الفوز بفضل الهجمات التي كان يقودها بنفسه . وانتهت المعركة بأسر إلياس خواجه نفسه ، مع أغلب قـواده ، ومنهم بيكيجيك.

عامَل تيمور خصمه إلياس خواجه باحترام وأطلق سراحه ، واحتفظ بالقوّاد الآخرين في الأسر . وهناك من يقول بأن إلياس خواجه فرّ من الأسر ، وربما كان تيمور نفسه هو الذي ساعده على الفرار لئلا يكون الاحتفاظ به أسيراً دافعاً إلى مجيء مزيد من قوّات مغول الجات إلى بلاد ما وراء النهر ، وتعريض البلاد إلى مزيد من أعمال التنكيل . وكان تغلق تيمور خان قد توفي أثناء ذلك ، فأسرع إلياس خواجه إلى العاصمة «ألماليك» لاستلام العرش مكان أبيه قبل أن يحلّ به أحد المغتصبين الطامعين.

أعقبت النصـر في قبي ـ متن حفلات وولائم . وأثنـاء الاحتفالات جيء بـالقواد المغـول الأسرى ، ومعهم بيكيجيـك الذي كـان أشدّهم عـداء لتيمـور ، فـأمـر هـذا بإكرامهم ، ثم عرض عليهم الانخراط في صفوف قوّاته ، ولكنهم لم يقبلوا ، فأطلق سراحهم . ويبدو أن تيمور كان يهدف ، من وراء ذلك ، إلى كسر حدَّة العداء لدى المغول ، لكي لا يجد هؤلاء أنفسهم مضطرّين لتوجيه جيوش أخـرى فيما إذا أُسيئت معاملة القوّاد الأسرى.

وكان تيمور قد أصدر الأمر إلى بعض قوّاته بالتقدّم إلى سمرقند ، واندفع هو مع باقي القوات والأمير حسين نحو الشمال . وكانت قوّات مغول الجتا تحتشد على الضفاف الجنوبية لنهر سير داريا ، في نواحي خوجند ، فلما علمت بتقدّم قوات تيمور وحسين ، عبرت النهر مبتعدة نحو الشمال . ودخل الحلفاء سمرقـنـد ، وعند وصـول تيمور إلى المدينة خرج سكّانها إلى الضواحي لاستقباله.

[٤]
كابل شاه

بعد أن زال خطر مغول الجات عن بلاد ما وراء النهر ، عادت إلى الظهور خلافات الأمراء ورؤسـاء القبائل ورغبتهم في الانفصال عن الحكومة المركزية . وكان فريق من هؤلاء الأمراء والرؤساء قد أدرك طموح تيمور وسعيه للانفراد بحكم البلاد ، فوطدوا العزم

على أن يمنعوه من تحقيق ذلك . وعـزم هذا الفـريق أمره فنـادىٰ بأحـد أفراد أسـرة جغطاي بن جنكيزخـان ، ويدعى كابل ، خاناً على عرش ما وراء النهر . وعارض تيمور في بلوغ كابل شاه منصب الخانية ، وعبّر عن معـارضته بـالانسحاب مـع أنصاره من سمرقند إلى كيش.

[٥]
عودة إلياس خواجه ومعركة تحت المطر

في ربيع عام ١٣٦٥م ، توجّه إلياس خواجه ، وهو الآن خان على القسم الشرقي من خانية جغطاي ، أي على مغول الجات، على رأس جيش إلى بلاد ما وراء النهر ، غير آبه بأن قريباً له يجلس الآن على عرش تلك البلاد.

جاء إلياس خواجه على رأس كل قوى الشمال ، جموع منضبطة من المحـاربين المتمرِّسين ، فرسان على متن أفضل خيول آسيا ، جيّدة القيادة والتسليح . وكانت أعلام المغول ، ذات القرون ، ترفرف فوق الكتائب المتراصّة من مقاتلين مكسيين بالجلود.

تنادى الجميع للقتال وصدّ العدوان . وللمرة الأولى توحَّدت واحتشدت في الميدان جميع القوى: قبيلة برلاس وقراصنة الصحراء ، شيوخ الجلائر ، أنصار آل سلدوز ، أتباع حسين مع قبيلة العوريين ومتطوِّعة من أفغانستان ممن استشمّوا رائحة الحرب من بعيد . كان هذا الحشد كله راكباً تقريباً ، باستثناء الخدم وبعض الكتائب الرمّاحة والرعاة المكلّفين بحراسة المخيمات إلى الوراء من معسكرات الدفاع.

تحرّك تيمور بقوّاته إلى الشمال ، فعبر سير داريا إلى الضفة الثانية ، على مقربة من خوجند ، وعسكر في هذه الناحية . وتبعه الأمير حسين فعسكر بقوّاته بمنأى عن تيمور ، رافضاً أن يعملا وفق خطة اقترحها هذا الأخير.

هاجم المغول حسيناً في بادىء الأمر فشتّتوا قوّاته ، ثم هاجموا قوّات تيمور ، وكانت تعدّ ستة آلاف . وفي هذه الأثناء هطلت الأمطار ، وامتـلأت أرض المعركـة بالـطين والمستنقعات . واستمرّ القتال وتحوّل في النهاية لصالح المغول ، فانسحب تيمـور ، باتجاه كيش ، بعد أن خسر خمسة آلاف من رجاله . وقد جرت هذه المعركة في اليوم الأول من رمضان عام ٧٦٦هـ/ حزيران ١٣٦٥م . وانسحب حسين بدوره إلى موضع بجوار بلخ ، وانهمك كل منهما بإعادة تنظيم قوّاته.

تقدّم جيش إلياس خواجه حتى سمرقند ، وضـرب الحصار على المـدينة . وقـد اصطدم هنا بمقاومة ضارية اتخذت شكل حرب شعبية من قِبل سكان المدينة . وطال الحصار ، وتفشّى الوباء بين خيول المغول ، وهلك القسم الأكبر منها ، مما شلّ حركية الأعداء ، واضطرّهم إلى رفع الحصار عن المدينة والانسحاب.

وكان سكان المدينة قد أرسلوا إلى تيمور يطلبون العون منه ، فهرع إلى نجدتهم ، وأخذ يطارد الغزاة المنسحبين ، ويدفعهم إلى مغادرة البلاد بسرعة ، بسبب ما يحملون معهم من وباء . وكان شتاء عام ١٣٦٥ ـ ١٣٦٦م قد حلّ ، ففضّل تيمور أن يقضي هذا الفصل في قارشي القريبة من كيش ، وسمح لمحاربيه بالذهاب إلى أسرهم وبيوتهم . وعندما وصل إلى بيته ، في الوادي الأخضر ، وجد أن زوجته أولجاي قد توفيت بمرض مفاجىء ، وهي ترقد الآن ، ملفوفة في كفنها الأبيض ، في حديقة المنزل.

الفَصْلُ العَاشِرُ

الصراع بين تيمور والأمير حسين
١٣٦٥ - ١٣٦٩م

أسباب الصراع ـ تطوّر الصراع في سمرقند ـ انتزاع قارشي من يد حسين.

[١]
أسباب الصراع

أدى موت أولجاي إلى انفصام العرى التي ربطت بين تيمور وحسين طوال السنين الخمس الماضية. وقد صار تيموروحسين، بعد انسحاب مغول الجات من وراء النهر عام ١٣٦٥م، أقوى شخصيتين في البلاد. وكان من المتوقع أن ينشب الصراع بينهما عاجلاً أم آجلاً، لأن كل واحد منهما كان يطمح إلى استلام السلطة والانفراد بحكم البلاد. وقد توفرت عوامل وظروف جعلت الاصطدام بين الاثنين أمراً لا مفرَّ منه. وكما كان متوقعاً فقد نشب الصراع بينهما بسرعة، وامتدت حوادثه طوال خمس سنوات، ١٣٦٥ - ١٣٦٩م، وانتهت بفوز تيمور واستلامه للحكم.

ظهر الأمير حسين، في بداية الصراع، أقوى من تيمور. فبالإضافة إلى نسبه العريق كحفيد لصانع الملوك قازغان، فقد كان يحكم منطقة كبيرة واسعة جنوب أمو داريا، تضم مدن بلخ وقندوز وكابل، وتؤيده أغلب عشائر البلاد، وتعترف له بالخضوع والطاعة.

كان تيمور الأضعف، وقد اضطرته ظروف الصراع أحياناً لأن يغادر البلاد، ويهيم مشرّداً في صحارى خراسان. وكان عصامياً، وأظهرته بعض عمليات فذّة مغامراً مقداماً، قوي الشخصية، يستمد العون من أهله وعشيرته وعامة الناس من سكّان البلاد، رجال الدين بصورة خاصة، ويسعى لكسب التأييد بكرمه في توزيع الأموال وكل

ما يملك ، حتى الأمتعة الشخصية ، على أنصاره ، ويقود قوّاته بنفسه ، ويشارك جنده في حياتهم ، في الوقت الذي ترك فيه الأمير حسين مباشرة القتال مع تيمور إلى عدد من قوّاده ، في أغلب الأحيان.

كان اختلاف الأمزجة واضحاً بينهما منذ أن كانا رفيقي سلاح يقاتلان ضد مغول الجات . ورغم اتفاقهما على الوسيلة والهدف في النضال ضد العدو المشترك ، فقد كان كل منهما عدواً للآخر في دخيلته . والشواهد كثيرة على عدم ثقة تيمور بالأمير حسين . لقد كان من وقت لآخر يطالبه بأن يقسم له على المصحف على الإخلاص والوفاء وكان حسين ، في أحيان أخرى ، يتبرّع من تلقاء نفسه لأداء مثل هذه الأيمان . ولذلك كان تيمور يسعى لإيصال جواسيسه إلى حاشية الأمير حسين ، ليزودوه بأخباره وبما قد يحيك ضده من مؤامرات.

وكان حسين يحنث بأيمانه بشكل متكرّر ، مما أضفى مسحة دينية على صراع تيمور معه . فهو لا يعارضه بسبب سعيه للاستئثار بحكم البلاد ، أو لإصراره على إلحاق الأذى بتيمور ، بل لأنه حانث بأيمانه التي أقسمها على الكتاب الكريم . ومن حقّ تيمور بسبب ذلك الحنث ـ وهو الذي يتمتع بثقة رجال الدين ويحظى ببركة دعواتهم له بالتوفيق والنصر ـ أن يفعل كل ما يستطيع لكشف ذلك الآثم الحانث بقسمه ، والمخلف للوعود التي يقطعها لقاء مساعدات تيمور له ووقوفه إلى جانبه في وجه الثورات التي كانت تقوم ضدّه بين وقت وآخر.

وكان من صالح بعض أمراء البلاد أن تظل العلاقات متوتّرة بين حسين وتيمور ، الأمر الذي يتيح لهؤلاء الأمراء الاحتفاظ باستقلالهم ، في المناطق التي توجد تحت حكمهم . أضف إلى ذلك أن هؤلاء الأمراء كانوا يتنقلون بولائهم وفقاً لمصالحهم بين المعسكرين المتنافسين ، مما أطال من أمد الصراع بين حسين وتيمور.

[٢]
تطور الصراع في سمرقند

أسرع الأمير حسين ، بعد انسحاب المغول ، بالرجوع إلى البلاد ، ليدخل إلى سمرقند دخول الظافر . وكان الشعب مفعماً بنجاحه في طرد ذلك العدو المخيف ، شديد الابتهاج بهذه المناسبة . وقد علّق السجاد من النوافذ وحواجز السطوح ، وازدانت الشوارع بأقواس النصر ، وامتلأت المساجد بالمؤمنين ، وعزفت الموسيقى ابتهاجاً

بقدوم الأمير ، في كل حديقة وساحة.

أبقى حسين على كابل خان كرأس صوري للدولة ، وميزته الوحيدة أنه «تورا» ، أي منحدر من جغطاي بن جنكيزخـان . وأصبح تيمور حينئذٍ بحكم هذا الواقع ، مرؤوساً لحسين . وأخذ هذا يجمع الضرائب ، ويصدر القوانين والأحكام ، ويوزّع الأراضي . وقد رفض أن يعطي تيمور شيئاً من الأموال التي جمعها ، بل أخذ على العكس يلحّ عليه بدفع مبالغ من ماله الخاص ، وقد اضطر أمام إلحاح حسين أن يدفـع له ثـلاثة آلاف دينار، وأعطاه حلي زوجته أولجاي، وقد أخذ حسين هذه الحلي وهو يعلم أنها تخصّ أخته . والشيء الوحيد ، الذي تشبّث به تيمور ، هو الاحتفاظ بواديه ، وبالقطاع ابتداء من المدينة الخضراء حتى النهر . وكان يردّد بإصرار وتصميم:

ـ ذلك ملكي حتى النهر.

كان يسلك ويتصرف بنبلٍ واعتزاز . وعندما فرض حسين ضريبة باهظة على رجال البرلاس ، احتجّ تيمـور عاليـاً بسبب أنهم كانـوا قد فقـدوا كل ممتلكـاتهم في القتال الأخير . أما فيما يتعلق به شخصياً ، فقد دفع لحسين المبلغ الذي طلبه بكامله ، بما في ذلك ـ بضغط الحاجة أو حباً بالمناكدة ـ مجوهرات زوجته : أقراط الأذن ، والعقود التي لبستها يوم زفافها ، وقد أخذها حسين وهو يعرف أنها لأخته كما تقدّم.

خلال أيام الصراع المظلمة لهذا النزاع ، كان تيمور يتحرّك كروح بلا جسد . كان مخاطراً بغير اكتراث ، لا يهتم بسلامته الخاصة ، ويـده مفتوحـة عطاء وكـرماً . وفي الليل ، حول نيران المخيّم ، كان رجال القوافـل يروون القصص عن الأميـر تيمور ، وكانوا يقولون إنه بحقّ اسم على مسمى ، لأنه مجبول من حديد ، نعم ، حديد صلب لا ينثني.

انسحب إلى الوادي الأخضر ، وأخذ ينظّم قوّاته استعداداً للصدام الذي بات منتظراً مع حسين . وقد تكون القصة المفضلة في الأسواق والمخيمات هي قصة استيلائه على قارشي . وكانت تُعرف بمدينة النبي الخرساني الملثّم ـ يرقـد الآن في قبره منـذ زمن طويل ـ لقد كان نوعاً من رجل دين ، وقد أثار العجب والتعصّب لدى كثير من الناس بعد أن أراهم ، ليلاً ، في قعر بئره قمراً هلالاً ، في وقت لم يكن فيه هلال في السماء . وقد دعوه لذلك بصانع القمر ، ويدعوه التاريخ بصانع المشاكل والاضطرابات.

[٣]
انتزاع قارشي من يد حسين

كان تيمور قد بنى في قارشي قلعة من حجر ، وقد دفع في سبيل ذلك كثيراً من جهده وعرقه . وكانت هذه القلعة موضوعاً لاعتزازه وفخره . وكانت قوّات حسين ، في ذلك الوقت ، تسيطر على قارشي ، قلعة ومدينة . وكان تيمور وأتباعه يعرفون جيداً قوة المدينة ومتانة دفاعها . وكان الأمير موسى قائداً للحامية المؤلّفة من أربعة آلاف محارب تقريباً . وكانوا يعرفون موسى أيضاً ؛ فهو الذي صمد وقاتل عند الجسر الحجري ضد الجنرال بيكيجيك . كان موسى عسكرياً خبيراً متمرّساً ، ولكنه كان عاشقاً للخمرة ولكل أطايب المائدة ، ميّالاً إلى الإهمال لكنه موثوق ويُعتمد عليه بحقّ عند الأزمات.

كان تيمور قد أرسل معظم جنوده إلى قبائلهم وعائلاتهم في إجازة ، وليس معه الآن سوى ٢٤٠ رجلاً، بمن فيهم أمير جاكو وأمير مؤاوي ، اللذان كانا قد قاتلا إلى جانب موسىٰ عند الجسر الحجري ، وكذلك أمير داوود المعروف بحبّه للمغامرة وركوب الأخطار . قال تيمورلنك لهؤلاء الضبّاط:

ـ أفكِّر في الاستيلاء على قارشي والاحتفاظ بها.

لم يصدِّقوا ما سمعته آذانهم! . وقالوا إن الوقت حار جداً وغير ملائم للتفكير بمثل هذه العملية ، ويجب أن ينحصر التفكير الآن في أمن العائلات وسلامتها.

هزأ تيمور من اعتراضِاتهم وقال:

ـ أنتم رجال بعقل محدود. . ألَمْ أعدكم بأن عائلاتكم ستكون في أمن وحماية؟ .

ـ نعم ، هذا صحيح ، ولكنها ليست خلف الجدران! .

ضحك تيمور وقال:

ـ هناك أسوار حول قارشي . أمعِنوا الفكر. . كيف لو كنا أسياداً في قارشي؟! .

فكَّروا ملياً ، وبقوا سكوتاً حتى داوود نفسه . وأخير هزّ جاكو برأسه حيرة وعجباً، وقال:

ـ لنجمع أولاً قوة كبيرة كافية. . هناك وقت للمغامرة والإندفاع ، ووقت للتبصّر وإعمال الفكر. . إن موسى محنّك مجرب ، ولا يُستطاع أخذه كامرأة من على ظهر بعير! .

فرد تيمور بصوت أجشّ:

- اذهبوا إذن واطلبوا من النساء أن تعلّمكم. . اذهبوا إلى حيث تنتظركم عائلاتكم. . بل اذهبوا إلى الأسواق وتحدّثوا مجترّين بما قد مضى. . سأمضي على جوادي إلى قارشي مع آخرين.

كانوا يعرفون أنه سيفعل ذلك فيما إذا تخلّفوا عنه. وابتعدوا للمناقشة فيما بينهم. وبعد أن اتفقوا على رأي، تقدّم جاكو من تيمور، وبيمناه القرآن وبيسراه سيف. قال:

- يا أميرنا! . لقد أقسمنا على المضي معك، وهذا هو المصحف الذي أقسمنا عليه. وهذا سيف، فإذا نحن لم نطعك، فاضرب به أعناقنا.

وجلسوا جميعاً يتدارسون، ويتناقشون في أفضل الوسائل لإخراج موسى من معقله. وبعد أن أصغى تيمور لمناقشاتهم، وقد أجمعوا على استفزاز موسى لحمله على الخروج إليهم، ضحك أخيراً وقال:

- يا لكم من أطفال! . لنفرض انكم نجحتم في استدراج موسى للخروج إليكم مع ثلاثة آلاف فارس، وليس معكم سوى (٢٤٠) مقاتلاً، فماذا سيكون باستطاعتكم أن تعملوا، وماذا سيكون الربح من وراء ذلك؟!.

وران الصمت مدة على الجميع. ثم قال داوود:

- سيكون من الأفضل أن نتحرّك في الليل بكل سرية، فندخل قارشي ونباغت موسى وهو يغطّ في نومه. وهكذا نستطيع أن نتخلّص منه.

قال تيمور:

- ولكن ماذا يكون بعد ذلك. . هل ستذهبون أيضاً إلى حيث ينام جنوده الثلاثة آلاف؟.

فردّ داوود مدافعاً عن نفسه:

- كل شيء بيد اللّه. . إن موسى يعرف أننا هنا، ولا يمكن استدراجه للخروج ما دمنا في هذا المكان. . لقد أمره سيِّده أن يحتفظ بقارشي، وسيفعل كل شيء في سبيل ذلك.

توقف البحث في موضوع قارشي عند هذا الحد. ومضت أيام، وبدا وكأن تيمور قد عدل عن رأيه للقيام بمحاولة ضد المدينة. فقد أرسل سعاة يحملون منه هدايا

وتحيّات إلى ملك هرات ، حسين آل كرت ، في خراسان . ثم تحرّك مع رجاله جنوباً على الطريق المؤدِّية إلى هـرات . وبعد مسيـرة بضعة أيـام ، وفي سهل من أخـاديد صلصالية صفراء ، وكثيبات من الرمل ، نصب خيامه عند بئر إسحاق.

أقام عند البئر شهراً . وأخذ يوقف القوافل المتوجِّهة من الجنوب إلى بلاد ما وراء النهر ، إلى أن عاد أحد سعاته ومعه رسالة حب وتقدير من ملك هـرات ، ودعوة إلى زيارته في خراسان . وكان قد تجمّع في ذلك الوقت حشد كبير من رجال القوافل عند البئر ، وصارت الأنباء التي جاء بها الساعي مشاعاً بين الجميع.

وفي اليوم التالي ، سمح تيمور للقوافل بالعودة إلى الحركة ، وأجرى استعدادات واضحة للحركة بنفسه إلى هرات . وقد طلب منـه التجار أن يـواكبهم ببعض فرسـانه لحمايتهم مما قد يعترض طريقهم من عناصر أخرى من رجاله ، ولكنه أكّد لهم بأن لا أتباع له أخر على طريق قارشي . ثم انطلق مسرعاً باتجاه الجنوب ، مع رجاله المائتين والأربعين ، في الوقت الذي تحركت فيه القوافل في سبيلها شمالاً ، لتجتاز الصحراء ، وتعبر النهر وتحطّ الرحال أخيراً في قارشي.

وفي قارشي ، استجوب موسى رجال القوافل ، وعلم منهم أن تيمور قد ذهب إلى هرات ، وأكّدوا له ذلك . ولما كان الحرّ في قارشي لا يُطاق في هذا الوقت من السنة ، لذا سارع موسى إلى مغادرة المدينة والانتقال إلى موضع أكثر مسرة وبهجة ، إلى المروج على ضفة النهر ، حيث عمد إلى تمضية الوقت في إقامة الولائم وشرب الخمرة يترع منها وأصحابه حتى الثمالة . وقد ترك ابنه في القلعة ، مع بعض مئات من الرجال ، للدفاع عنها تحسُّباً لكل طارىء.

انتظر تيمور ، في مخيّمه التالي ، مدة كافية لوصول القوافل إلى قارشي ، ثم قفل راجعاً إلى أمو داريا ، بمسير شاق سريع ودون أي توقف . لم يتوقف عند بلوغ النهر ، وإنما دفع بجواده رأساً إلى الماء ، وخلفه أربعون من أتباعه ممن خاطروا باللحاق به . وعند وصوله إلى الضفة الثانية ، أرسل عدداً من المراكب النهرية لعبور أتباعه المنتظِرين على الضفة الجنوبية . وأمضوا النهار التالي مستترين بعيداً عن الطريق ، بعد أن أفرزوا جماعة منهم لإيقاف جميع المسـافرين المتـوجهين إلى قارشي لكي لا ينقلوا أخبـاراً عنهم . ولما حلّ الظلام ، امتطوا خيولهم وساروا في ستار الليل، عبر السهل المنبسط ، حتى بئر يقع على مقربة من ضواحي قارشي . أقاموا هنا ما بقي من الليل وساعات النهار التالي ، مختبئين بين أشجار الشيح والطرفاء ، وعاملين على صنع سلالم وأنـواع من

الحبال . وكان كل رجل من جند موسى يأتي إلى البئر ليرتوي من مائه سريعاً ما يجد نفسه أسيراً بين أيديهم . وعند حلول الظلام ، أفرزوا نفراً لحراسة الأسرى ، وانطلقوا آخذين معهم السلالم والحبال.

تقدم تيمور أمام رجاله ، يرافقه اثنان منهم ، إلى أن أبصر بهياكل الأبراج من خلال الأشجار ، فتوقف وترجّل . أمر أحد تابعيه بالبقاء مع الخيل ، ومشى تيمور وخلفه تابعه الآخر ، وكان خادمه الخاص عبد اللّه . سار الاثنان إلى أن بلغا خندق الماء المحيط بالقلعة . توقفا برهة للتنصت ، فلم يسمعا صوتاً ولا حركة . سارا يتبعان حافة الخندق ، إلى أن بلغا الموضع الذي تجتاز الخندق عنده قنطرة المياه إلى القلعة . وكانت هذه القنطرة عبارة عن حوض ضيِّق من الحجارة ، يمتد مستطيلاً على شكل معلف ، على أساس قائم على قاع الخندق . وقد سار تيمورلنك وعبد اللّه على هذه القنطرة ، إلى أن بلغا الطرف الثاني للخندق ، عند أسفل حائط القلعة.

طاف تيمور حول السور مفتِّشاً عن منفذ ، فوجد مكاناً كان جدار السور عنده مثلوماً . وقد أمكن توسيع هذا الثلم إلى أن صار ثغرة يمكن للرجل أن يدخل منها . عاد تيمور إلى رجاله الذين كانوا ينتظرون عند الخندق ، فأفرز منهم ٤٠ نفراً لحراسة الخيل ، ومضى بالباقي ، وكانوا مئة ، فعبروا الخندق على القنطرة ، ثم نصبوا السلالم عند الثغرة ، فصعد قسم منهم على السلالم حتى أعلى السور ، ودخل قسم من الثغرة الموسّعة . وقد وجدوا جميع حراس القلعة نياماً ، وكان الوقت قبيل الفجر . واقتصر القتال في القلعة على مناوشات بسيطة ، وانتهى بأن صار تيمور سيِّداً آمراً في قلعته.

عند شروق الشمس ، أمر تيمور بدق الطبول وعزف الأبواق من برج القلعة ، ورجاله وقوفاً على الأسوار . نهض سكان قارشي من نومهم ، وصعدوا إلى سطوح المنازل ليعرفوا السبب لهذا الاستيقاظ الغريب . وجاء ضبّاط الحامية ، وهم غير عارفين بما لدى تيمور من قوة، ومأخوذين بفعل المفاجأة ، فأعلنوا استسلامهم ، ثم انضمامهم إلى تيمور . أما ابن موسى ، آمر الحامية ، فقد لزم بيته مدافعاً على بابه . ولكن عندما قذف بالنار خلال النوافذ ، فقد سارع عندئذ بالخروج وسيفه حول رقبته علامة الاستسلام.

أثنى تيمور على شجاعة ابن موسى ، لكنه أبقاه في قارشي . وأرسل عائلة موسى إلى سيّدها اللاهي بين الكاس والطاس في المرج عند ضفة النهر . وقال جاكو:

ـ الحظ السعيد لأميرنا أعطانا المدينة ، وقد حصدنا ، نحن الذين تبعناه ، المجد والفخار!.

كان النصر ، بالنسبة لهؤلاء الرجال ، هبة من اللّه . وكان الفقهاء وعلماء الـدين يؤكِّدون لهم ذلك في كل مناسبة . وكان رجال الحرب هؤلاء مبتلين بنقيضين: فقد كانوا يجلسون لساعات كمن في غيبوبة أمام درويش رثّ الهيئة والثياب ، يصرخ في وجوههم مذكِّراً بالجنة وعجائبها ، ومحذِّراً من نار الجحيم. . وكـانوا أحيـاناً أخـرى يسخرون بالفقهاء ويشتمون كل فقيه . وكان المثل يقول:

ـ يلزم واعِظان لإصلاح رجل ، أما الواعظ الواحد فإنه لا يستطيع أن يصلح أكثر من امرأة! .

كانوا يضطربون للأحلام والتطيرات . وكـانوا ينـطلقون على ظهـر خيولهم هـرباً لتشاؤمهم بحلم كريه ، أو من طيرة . ورغم ذلـك ، وفي مواجهـة الموت في سـاحة الوغى ، فقد كانوا يقذفون بخوذاتهم في الهواء ، ويهتفـون بأعلى أصـواتهم مغتبطين معتـزّين بهذه اللحـظة من المجـد والفخـار . كـانـوا غيـارى على شـرفهم وسمعتهم الشخصية ، وكان العار أشدّ وقعاً على أنفسهم من المرض والمعاناة . وكان يردِّدون:

ـ لا حياة بلا شرف! .

الفصل الحادي عشر

نهاية الأمير حسين

معركة عند ممر جكجك ـ القتال في جنوب سير داريا ـ توسّط العلماء والصلح ـ ردّ مغول الجات ـ ثورة كيخسرو وبايان سلدوز ـ حسين يطمح إلى السلطنة.

[١]
معركة عند ممر جكجك

لم يسكت الأمير حسين على هزيمة قوّاته في قارشي . وقد تحرّك من عاصمته سالي سراي ، على رأس قوة من عشرة آلاف خيّال ، وعلى مقدمتها الأمير موسىٰ نفسه . ولما علم تيمور بذلك ، انطلق إلى ممر يدعى جكجك ، مع ٣٠٠ خيّال ، ليفاجىء قوة عدوه عندما كانت تعبر هذا الممر الجبلي ، ويوقعها في ارتباك شديد . غير انه أدرك بنتيجة هذا الاشتباك أن العدو عنيد وكثير العدد ، ولذا فضّل أن ينسحب ، فعاد إلى قارشي ، ثم غادرها دون إبطاء إلى بخارىٰ.

وفي هذه المدينة ، وبعد مشاورات مع ضبّـاطه ، تقـرّر الانسحاب والتـوجه إلى خراسان ، تاركاً في بخارىٰ قوة للدفاع عنها . واستطاع الأمير حسين ، بعد أن استعاد قارشي ، أن يؤلِّب سكان بخارىٰ على أتباع تيمور ، فثاروا ضد هؤلاء ، وأرغموهم على مغادرة المدينة والالتحاق بتيمور في ماخان.

كان تيمور ، منذ عشر سنوات ، قد ساعد الملك حسين آل كرت على استرجاع ملكه في هرات . ورغم ذلك فإنه لم يكن ليأمن له . وقد حرص على أن تبقى علاقاته وديّة مع آل كرت ، مع البقاء بعيداً عن متناول يدهم . وكان قد كتب رسالة إلى الملك حسين آل كرت، وردّ هذا برسالة تفصح عن المحبّة والإخلاص. كتب إليه تيمور ثانية يعلمه أنه قد وضع ابنه وأسرته في قريـة ماخـان ، تحت حمايتـه . واستقرّ رأيـه على

الانسحاب إلى خوجند في الشمال . وعمد فسمح لمن يرغب من أتباعه بالرجوع إلى أهله ، وسار مع البقية ، وعددهم (٦٠٠) خيّال ، إلى ضفاف سير داريا . وبلغه هناك ان اثنين من أمراء البلاد ، وهما كيخسرو حاكم ختلان وبهرام جلائر ـ وكانا قد انفصلا عن قوّات الأمير حسين ـ يقفان الآن ، مع قوّاتها البالغة سبعة آلاف خيّال ، في ضواحي طشقند . فعبر تيمور النهر وتوجّه إلى مقرّهما ، حيث تم الاتفاق على الوقوف سوية ضد الأمير حسين.

[٢]
القتال في جنوب سير داريا

أقام الحلفاء في طشقند شهراً كاملاً . وكانت تصلهم أخبار تحركات الأمير حسين ، وانه تقدّم إلى ضواحي سمرقند ، وأرسل من هناك قوة تقدّر بأحد عشر ألف خيّال ، في اتجاه الشمال ، بقيادة الأمير موسى . وكان موسى ، بعد أن مرَّ على سمرقند ، يعسكر الآن على ضفاف النهر الصغير . وقد أرسل من هنا طليعتين لتسقّط أخبار تيمور.

هاجم تيمور هاتين الطليعتين في مكانٍ ما جنوب النهر ، كلاً منهما على حدة ، فهزمهما . واندفع حسين شمالاً للانتقام ، فانسحب تيمور مّن أمامه ، عابراً سير داريا ثانية إلى الشمال باتجاه طشقند . أمضى تيمور شتاء عام ١٣٦٨م في هذه المدينة ، وعجزت قوّات حسين عن ملاحقته بفعل الثلوج . وفي طشقند قرّر تيمور وحليفاه أن يطلبوا مساعدة خان مغول الجات ، في ألماليك ، في حوض نهر إيلي ، وأرسلوا وفداً مع هدايا لهذا الغرض.

[٣]
توسّط العلماء والصلح

كان الأمير حسين قد عاد إلى سمرقند . فلما بلغه عزم تيمور وحليفاه على الاستنجاد بخان مغول الجات ، انزعج من ذلك وسعى لإثارة الرأي العام في البلاد ضد تيمور . وعمل في الوقت نفسه على أن يستغلّ رجال الدين لإجراء الصلح بينه وبين تيمور ، معلناً عن استعداده لأن يقسم على المصحف ، أمام رجال الدين وكبار رجال الدولة والقوّاد ، على أن يتمسّك منذ الآن بصداقة تيمور.

توجّه وفد من علماء الدين إلى طشقند ، يحمل المصحف الذي أقسم عليه الأمير

حسين قسم الإخلاص وإصلاح ذات البين ، وطلب من تيمور أن يتجاوز عن إساءات حسين السابقة إليه . واضطر تيمور ، أمام ضغط العلماء وإلحاحهم ، أن يستجيب لطلب الصلح ، ولا سيما بعد أن استخار المصحف وخرجت لـه الآية : ﴿**وإن طـائفتان من المسلمين اقتتلا فأصلحوا بينهما**﴾ . وتم الإتفاق نهائياً على أن يكون لقاء المصالحة أمام قبر أحد الأولياء ، ويدعى آتا علي ، في قرية كمش ، القريبة من سمرقند . واجتمع الأميران ، وأقسم حسين وهو يضـع يده على المصحف ، وتقـرّر أن يتناسى الـطرفان الماضي ، وأن تفتتح للعلاقات بينها صفحة جديدة.

[٤]
رد مغول الجات

وفي هذه الأثناء ، وكان العام ١٣٦٧م ، أغارت قوّات مغول الجات من الشمال ، وربما كان ذلك استجابة لطلب تيمور وحليفيه قبل الصلح مع حسين . وأرسـل الأمير حسين قائده موسىٰ مع قوّات لصدّ المُغِيرِين ، فأوقع بها هؤلاء وهي تعبر سير داريا ، وردّوها على أعقابها متقهقرة . وجاء حسين من بلخ لمقابلة تيمور في كيش ، يستنهض همّته للدفاع عن البلاد . استجاب تيمور لهذا الـطلب ، فانـطلق شمالاً إلى ضفـاف سير داريا . وقد استطاع هنا ، بالحيلة والدراية ، أن يوقع الخصام بين اثنين من قوّاد المغول ، فانقسم هؤلاء على أنفسهم ، واقتتلوا فيما بينهم ، وفضّلوا أخيراً الانسحاب والعودة إلى ديارهم.

[٥]
في بدخشان

ثارت منطقة بدخشان ، في جبال هندوكش ، بسبب سوء سياسة الأميـر حسين ، فاستنجد هذا بتيمور ، الذي لبّىٰ الدعوة ، وسار إلى ذلك الإقليم الجبلي ، حيث تمكّن من القضاء على جماعات الثوّار التي كانت تعتصم بشعاب الجبال ، واستطاع بحكمته أن يستميل أهالي المنطقة ورجال الدين . ويعطي التاريخ الشعبي وصفاً شيِّقاً عن العمليات في تلك المنطقة. . .

«ـ كان الثوّار الجبليّون يتراجعون بنظام ، صعداً إلى أعماق المنطقة الجرداء ، حيث الثلج يـرقد عميقـاً ، والصخور النـافِرة منهكـة بالـزوابع والأحقـاب . هنا ، في هـذه

المضائق؛ تنساب الأنهار المجلّدة كأفاعي بلا حياة ، والشقوق في جدران المضائق تلمع بالأحمر والأرجوان . وهنا كان الجيشان الصغيران يلعبان لعبة القطّ والفأر حول القمم ، منزلقين على منحدرات من ألف قدم ، عابثين بهبّات من الثلج متراكمة على بعضها كالخراف.

ـ وجاء إلى تيمور مَنْ يقول إن طليعته المتقدِّمة قد طُوِّقت وأُسرت ، وأن البادقشانيين يتراجعون مع أسراهم . إن من تقاليد البلاد الصارمة وأعرافها أن لا يتخلّىٰ زعيم عن رجاله ما ظل هناك أمل بإنقاذهم . ولكن رجال تيمور كانوا فاقدين لكل أمل بإمكان إنقاذ رفاقهم . وقد استاء تيمور مما أظهروه من تعب وقنوط ، فأمرهم بالركوب وانطلق بهم مع المخبر كدليل ، للبحث على جوانب المرتفعات عن طريق يؤدِّي إلى الوادي الذي كان يسلكه البادقشانيون في نزولهم إلى الأراضي السفلىٰ.

ـ الرجال يتهادون على الدروب المغطّاة بالجليد. . خيّال وحصان ينزلقان ويتزحلقان رأساً على عقب إلى الأبدية. . تيمور يمضي في حركته بسرعة. . كان معه ١٣ رجلاً فقط عندما أسرع بالاستيلاء على رأس ممر قبيل وصول البادقشانيين إليه والمرور منه. . وكان إلشي بهادور من ضمن هؤلاء الثلاثة عشر. . أخذ موضعاً له على الصخور واشتبك مع الجبليين القادمين بالنبال.

ـ مقدّمة العدو مؤلَّفة من خمسين رجلاً فقط. . لكن كان خلف هؤلاء مئتان آخرون. . قام إلشي بحركة التفاف بمبادرة منه. . نزل إلى الوادي بمفرده ، مرحاً على ظهر حصانه باتجاه المئتين. . وقفوا دهشين لمرآه بمعطفه السمور الفضفاض، وحزامه اللمّاع ، وطاقيته من جلد الدب. . لقد ظهر لهم وكأنه قد خرج من باطن الأرض ، وحصانه أصيل بكل تأكيد. . كان سهمه في كنانته ، وسيفه في غمده ، والكل من العاج المرصّع بالذهب.

وناداهم بصوت جهوري :
ـ هيه. . . يا أولاد آباء عديدين! ، توقفوا وانظروا. . ذاك الرجل الواقف هناك في الأعالي هو السيّد تيمور! .

ودخل راكباً بينهم ، كمن لا يعنيه القتال الدائر قطّ ، يشير بذراعه الممدودة إلى تيمور الظاهر البارز بخوذته ، بين السهام المتطايرة ، ويقول بوقار:

ـ فكروا ملياً. . إذا قتلتم فالكل سيدعوكم أغبياء ، بما في ذلك عائلاتكم . ما

الفائدة في أن يُقتل الإنسان هنا؟! . الآن. . السيد تيمـور هو واسـطتكم إلى الحياة والسلامة. . من صالحكم أن تعقدوا مهادنة. . والأحسن هو أن تجمعوا الأسرى وتأتوا بهم إليه ، فتُعبِّرون هكذا عن حُسْنِ نواياكم وطيب مقاصدكم. . .

هكذا تملّقهم إلشي وداجنهم . وما كان منهم ، وهم في حيرة تامة ، إلّا أن ترجّلوا لينحنوا ، وقد صدّقوه ، واعتقدوا أن وراءه رفاق كُثُر أقوياء ، وإلّا كيف يأتي ويقف بينهم سيِّد فرد دون أية حراسة! . وترجّل إلشي أيضاً ، ومرّ بيده ـ كما تقول الـرواية ـ على رقابهم . وسريعاً ما توقّف رمي السهام ، وجيء بالأسرى إلى إلشي ، فتطلّع هذا إليهم مدقِّقاً فاحصاً ، ثم التفت إلى البادقشانيين يقول معاتباً:

ـ هـل تنوون أن تـرسلوا إلى السيد تيمـور رجالـه الخواص هؤلاء كـالأنعام دون سلاحهم؟! . ألم يكونوا مسلّحين عندما أسرتموهم؟.

كان الجبليون حيارىٰ منذهلين ، وقد ارتسمت الكآبة على وجوههم . كان هناك ، على المرتفع ، الرهيب تيمور بانتظارهم كما يبدو. . طريقهم إلى السلامـة مغلق. . وأخيراً فعلوا كل ما أشار به إلشي . أُعيدت الأسلحة المنهوبة ، وعاد إلشي برفاقه إلى حيث كان ينتصب تيمور ، وكان عددهم (٦٠٠) ، وقال لتيمور إن البادقشانيين ينتظرون لتقبيل ركابه.

وللحـال نزل تيمـور إليهم . ورجال البـادقشان ، الـذين كان خـوفهم أعـظم من عـدائهم ، أقسموا على السـلام ، واضعين أيـديهم على كنـانـاتهم . وأبقـاهم إلشي مشغولين بالحديث إلى أن جاء المتأخِّرون من رجال تيمور.

واقترح زعماء البادقشان أن يتوجّه الجميع إلى القرى ، ونزلوا بالفعل عن سـطح العالم ليتمتعوا بوليمة . وبعد سنة من ذلك توفي إلشي بهادور وهو يحاول بجواده عبور أحد الأنهار».

وطالت إقامة تيمور في بـادقشان . وخشي الأميـر حسين ، وقد ارتـاب في نوايـا تيمور ، أن يُعلن هذا العصيان عليه ، فأخذ يستحثّه على العودة بحجة انفجار ثورة جديدة يقودها اثنان من كبار الأمراء.

[٦]
ثورة كيخسرو ومحمد سلدوز

أقدم الشيخ محمد بن بايان سلدوز والأمير كيخسرو ختلاني على إعلان الثورة في جنوب أمو داريا . وأرسل الزعيمان إلى بادقشان يستحثّان تيمور على الانضام إليهما . وكانت تربطه بالأمير كيخسرو صِلات عائلية ، على اعتبار أن ابنه جهانكير متزوّج من إحدى بنات الأمير الختلاني . غير أن تيمور لم يكن ليستطيع الاستجابة إلى طلبهما والانضام إلى الثورة ، نظراً لالتزامه بالقسم الذي أدّاه للأمير حسين . ولذا فقد سار بقوّاته مع هذا الأخير إلى حيث كان يعسكر الثوّار على ضفاف أمو داريا.

أعطىٰ الأمير حسين أمراً إلى قائده الأمير موسىٰ بعبور النهر ، فاعتذر هذا بحجة تعب جنوده . أما تيمور فقد قبل رجاء حسين وعبر النهر بقوّاته ، وأجبر الثوّار على الفرار . توجّه كيخسرو ختلاني إلى جبال ألتاي ، وفرّ الشيخ محمد بن بايان سلدوز شمالاً إلى خوجند ، ومنها إلى أوترار . وعاد تيمور بعد ذلك إلى منزله في كيش.

[٧]
طموح حسين إلى السلطنة

عاد الأمير حسين ، بعد القضاء على ثورة الأمير كيخسرو ختلاني والشيخ محمد بن بايان سلدوز ، يصرِّح بعزمه على إعلان نفسه سلطاناً . وأرسل إلى تيمور يطلب منه أن يوافيه إلى بلخ التي أراد أن يتّخذها عاصمة للسلطنة . ولكن أحد أصدقاء تيمور ، وكان من أعضاء مجلس الأمير حسين ، أرسل إليه يحذّره ويعلمه أن حسين يبيِّت الشر له من وراء استدعائه إلى بلخ . ورفض تيمور أن يستجيب لاستدعاء حسين له ، وأدّىٰ رفضه إلى عودة العداء العلني بين الطرفين.

سارع حسين بإرسال قوّات إلى كيش ، لإجبار قبيلة برلاس على الهجرة إلى بلخ . وكانت حصيلة ذلك أن تجاوز الصراع حدود المطامع الشخصية إلى أنصار تيمور وأبناء قبيلته ، الذين هرعوا إليه موكِلين إليه أمورهم . وأقسم لهم على أن لا يقوم بأي عمل دون موافقتهم . وانصرف بعد ذلك يهيىء قوّاته ويستعدّ ، وحصل على فتوى من رجال الدين تدمغ حسين بالاعتداء وحنث اليمين.

وحصلت معركة . واستطاعت قوّات تيمور أن تصدّ قوات حسين المُغِيرة، وقد انضم

قسم منها إلى قوات تيمور . وقرّر هذا الأخير ، بنتيجة ذلك ، أن يغِير على بلخ ذاتها . ولم يكد يذيع هذا الخبر وينتشر ، حتى أخذ الكثير من الأمراء ، الحانقين على حسين ، يعلنون انضمامهم إلى تيمور . وكان من أبرز هؤلاء الشيخ محمد بن بايان سلدوز والأمير كيخسرو ختلاني .

[٨]
معركة بلخ ومقتل حسين

تقدّم تيمور ، عام ١٣٧٠م/ ٧٧١هـ ، على رأس قوّاته إلى ممر باب الحديد ، ليتوجّه من هنا إلى مدينة ترمذ حيث استقبله فيها رجال الدين مرحّبين ومبارِكين . وكان الأمير موسىٰ ، وهو من أكبر أعوان الأمير حسين ، قد سئِم وملَّ من تصرّفات سيِّده وتقلّباته ، فتركه وعاد إلى سمرقند . ولما عبر تيمور بقوّاته نهر أمو داريا ، انضمت إليه بعض القبائل الجغطائية النازِلة جنوب النهر ، ومنها قبيلة ايبورد.

ولما بلغ السهل المحيط ببلخ ، كان حسين ينتظره على رأس قوّاته هناك . ودارت معركة دامية استمرت يومين ، وانتهت بتراجع قوّات حسين إلى المدينة التي حُوصِرت من جميع جهاتها . ولكن المدينة سقطت للحال تقريباً . وتنكّرحسين بثوب ناسك ، وخرج من بلخ ليلاً ، دون أن يُعلِم أحداً من أهله أو خاصته ، وآوى لقضاء النهار في مأذنة جامع . لكنه افتُضح أمره ، وقُبض عليه وحوكم ، ووُجد مذنباً بعدة جرائم . وحاول تيمور كما قِيل إنقاذه ، إلّا أن ثلاثة من الأمراء الذين كانوا يحقدون عليه ، وعلى رأسهم كيخسرو ختلاني ، عمدوا إلى اختطاف حسين وذهبوا به إلى مكان بعيد حيث قتلوه، وعادوا فقتلوا أربعة من أولاده، وهرب ولدان آخران إلى نواحي الهند. وصادر تيمور أموال حسين وكنوزه ليوزِّعها على أتباعه وأنصاره ، واختصّ نفسه بأربع من زوجاته ، ووزع باقي الزوجات على قوّاده.



محارب فارسي من أتباع تيمورلنك.
هناك اختلاف واضح في سلاحه الخفيف
بالمقارنة مع السلاح الثقيل والقوس الطويل للمغول

الفصل الثاني عشر

بعد موت حسين

في بلخ بعد حسين ـ الكوريلتاي ـ ألقاب تيمور ـ تيمور الحاكم.

[١]
في بلخ بعد حسين

أطال تيمور إقامته في بلخ لغرض في نفس يعقوب . في هذا الوادي الشديد الحرّ ، حيث ينمو قصب السكّر في قيعان الجداول والمجاري اليابسة ، تمضي القوافل متهادية في طريقها إلى الهند أرض الشمس ، وتنزل الثلوج من أعالي الجبال ، سالِكة دروبها الخاصة . إنه مليء بالذكريات ، ويتساقط من هوائه غبار الأجيال.

في مكانٍ ما ، تحت الصلصال وركام الحجارة الناعمة ، ترقد بقايا معبد بناه عبّاد النار في أول الزمان . وينتشر في دائرة تحت الأقدام جزئيات من تمثال لبوذا كان قد انتصب هنا مرّة ، في فناء مليء بحشد من حجّاج صفر الثياب . الناس هنا عرفوا المكان باسم أمّ المدائن ، وعرفه الإسكندر المكدوني باسم بكتريا ، ويعرف اليوم باسم قبة الإسلام ، عاصمة الإسلام بلخ . كان جنكيزخان قد خلفها وراءه قاعاً صفصفاً ، بلا حياة ولا نبات ، وقام حولها مساجد ومزارات . كانت ساحة قبور ، ثم جاء تيمور فأعاد بناءها.

إنه الآن ينتظر ، على مقربة من المكان الذي يرقد فيه حسين في كفنه ، وعيناه اللتان لا تريان موجهة صوب الكعبة المشرّفة . كان على تيمور ، بعد موت حسين ، أن يعمل على وضع نظام حكم مستقرّ في البلاد . القانون ، الذي وضعه جنكيزخان ، ينصّ على أن يكون الحكم بيد أمير ينحدر من صلبه ، أمير «تورا» يحمل دم الخاقان المغولي الكبير ودمّ زوجته الأولى بورتاي.

[٢]
الكوريلتاي

دعا تيمور إلى انعقاد كوريلتاي ، المجلس العام لرؤساء القبائل وأمراء المناطق . وأسرع إلى حضور هذا الكوريلتاي عديد من الحكّام الصغار ، قادمين من ممرّات الهند إلى سهوب القبائل الشمالية . وجاء إلى هذا المجلس ، في هالة من وقار ومهابة ، أناس معمّمون ، أمراء إيرانيون ، فقهاء وعلماء بخارىٰ ، رؤسا كليّات وجامعات ، خدم للمساجد وأساتذة في عِلم الكلام . وجاء مع القوم أئمة ، رؤوس المؤمنين ، وكان من جملتهم زين العابدين في ثيابه البيضاء وعمامته الضخمة ، وقد وهنت عيناه الشاقبتان بفعل السنين . وجاء معه أيضاً رفيقه ، الخواجه المبجّل بهاء الدين الناسِك ، الذي كان محترماً كقدّيس في بلاد ما وراء النهر . وكان تيمور منعزلاً مع ابنه جهانكير.

افتتح المجلس ، وأخذ كل عضو يبدي رأيه . ارتأى المتكلِّم باسم البادقشان أن تُوزَّع الأقاليم بين المجتمِعين بطريقة أخوية ، كلٌّ يحكم سيداً في إقليمه الخاص ، على أن يتحدوا عند الحاجة لمقاومة الغزاة . واعترض أنصار تيمور ، مبيِّنين حماقة ذلك الاقتراح ، ومُطالبين بوجود حاجة إلى أخ أكبر ، وقالوا إنه إذا أُخذ برأي الداعين إلى التوزيع ، فستقوم سلسلة من الممالك الصغيرة المبعثرة ، وتروح البلاد بجملتها فريسة هيّنة لمغول الجات . وطالب رؤساء أقوىٰ القبائل بالعودة إلى نظام الأشياء القديمة ، قائلين إنه مغاير لشريعة البلاد ان يعهد إلى أحد المجتمعين بالحكم ، وانه يتوجب على المجلس أن يختار شخصاً من ذرية جنكيزخان ليكون رئيساً للبلاد ، ويكون تيمور نائباً له.

وعلى الأثر نهض واقفاً ناسك يُعرف بأبي السعادات ، ليتكلّم باسم رجال الدين ، بوضوح وجلاء ، ويقول:

ـ إنه لمخالف للشريعة أن يكون المسلمون خدماً للكفرة من بينكم . وفيما يتعلق بجنكيزخان ، فقد كان كافراً يسكن الصحراء ، وقد احتل بلاد المسلمين بالعنف والسيف . والآن ، فإن سيف تيمور لا يقلّ فاعلية عن سيف جنكيزخان.

ثم توجّه بكلامه إلى المحاربين ، فأخذ يخطب فيهم ويلهبهم حماساً وغيرة . قال:

ـ لقد هربتم جميعاً أمام حسين ، لتختبئوا في الصحراء ، ولم تخرجوا من مخابئكم إلّا بعد أن زحف تيمور ضده . إنه لم يطلب منكم المساعدة للتغلّب على عدوه ، ولا هو

اليوم مطالب بذلك . لقد تكلمت معكم قبلئذٍ كطورانيين ، ولكني أعلم أنكم مسلمون . وأنا ، المنحدر من ذرية حفيد سيدنا محمد ، ﷺ ، بالتشاور مع منحدرين آخرين من هذه الذرية الطاهرة ، ومع كبار العلماء والفقهاء ، فإني أنظر إلى تيمور كالسيِّد الأوحد لبلاد ما وراء النهر. . نعم ، ولجميع بلدان طوران!.

هكذا تكلّم الإسلام بلسان رجال الدين ، لا لأن تيمور كان مسلماً ورعاً ، بل لأنه كان وحده القادر على إعادة النظام والاستقرار من الفوضى والضياع ، وعلى الوقوف في وجه غزاة الشمال ، أعداء الإسلام منذ القِدم . ومما جعل من انتخاب تيمور أمراً محتماً ، هو رفض المحاربين القبول بحاكم سِواه.

وفي اليوم التالي توجّه جميع الأمراء وكبار شيوخ القبائل إلى مقابلة تيمور في فسطاطه . ولمّا دخلوا عليه ، بادروا فانحنوا على ركبهم أمامه ، ثم أمسكوه من ذراعيه، وأخذوه ليجلسوه على عرش اللبّاد الأبيض ، سيِّداً عليهم وسلطاناً . كانت هذه هي الطريقة القديمة لدى قبائل المغول . وهكذا بايع الرجال أصحاب الخوذ تيمور وأعلنوا تبعيتهم له.

ثم جاء دور رجال الدين . أخذ المُلاَّ زين الدين ، وبيده القرآن الكريم ، ينتقل من أمير إلى أمير ، طالباً أن يُقسموا على أن لا يطيعوا شخصاً غير تيمور . كان ذلك عملاً صورياً ، على اعتبار أن تيمور كان قائداً لهم وزعيماً منذ زمن . لكن مثل هذا القَسَم ، في نظر أولئك القوم ، كان ذا مغزىً كبير.

ومنذ الآن فصاعداً ، فإن تيمور المحارِب هو تيمور الأمير ، وسيتذوق الجميع من ملحه . سيكون الإخلاص شرفهم ، وستجلب الخيانة العار لأسمائهم واللعنة على أبنائهم . وسيكون تيمور حكماً في خصوماتهم ، وحامياً لأملاكهم . وإذا هو خيّب آمالهم وتخلّى عنهم ، فإن من حقّهم أن يعقدوا كوريلتاي آخر ، ليختاروا أميراً جديداً.

ووقف زين الدين ، منتصباً أمام تيمور ، ورفع صوته قائلاً:

- إنها إرادة اللّه أن تكون منتصراً. . ستكبر قوة وسلطاناً ، وسيعظم شأن الإسلام عن طريقك.

وبدأ تيمور عمله كسلطان بتوزيع الهدايا على الجميع : خيلاً أصيلة ، أثواباً نفيسة ، أسلحة وسروجاً ثمينة . وبعث إلى خيمهم ، تلك الليلة ، بأطباق من الطعام والفاكهة . وعمد في اليوم التالي إلى تعيين وزرائه ، وضبّاط وأعضاء مجلسه الخاص وأركان

حربه . ونرى في الأشخاص الذين اختارهم أسماء مألوفة . فأمير داود تلقى حكومة سمرقند وصار رأساً للديوان ، أي المجلس الخاص . وأمير جاكو ، من قبيلة برلاس ، والأشيب بفعل السنين ، كُرِّم بعلم وبحقّ دق الطبول أمامه . وفي لائحة قادة الألوية ورد ذكر لاسمين غريبين ، أحدهما مغولي ، والثاني من أصل عربي ، وهما غيطاي بهادور والشيخ علي بهادور.

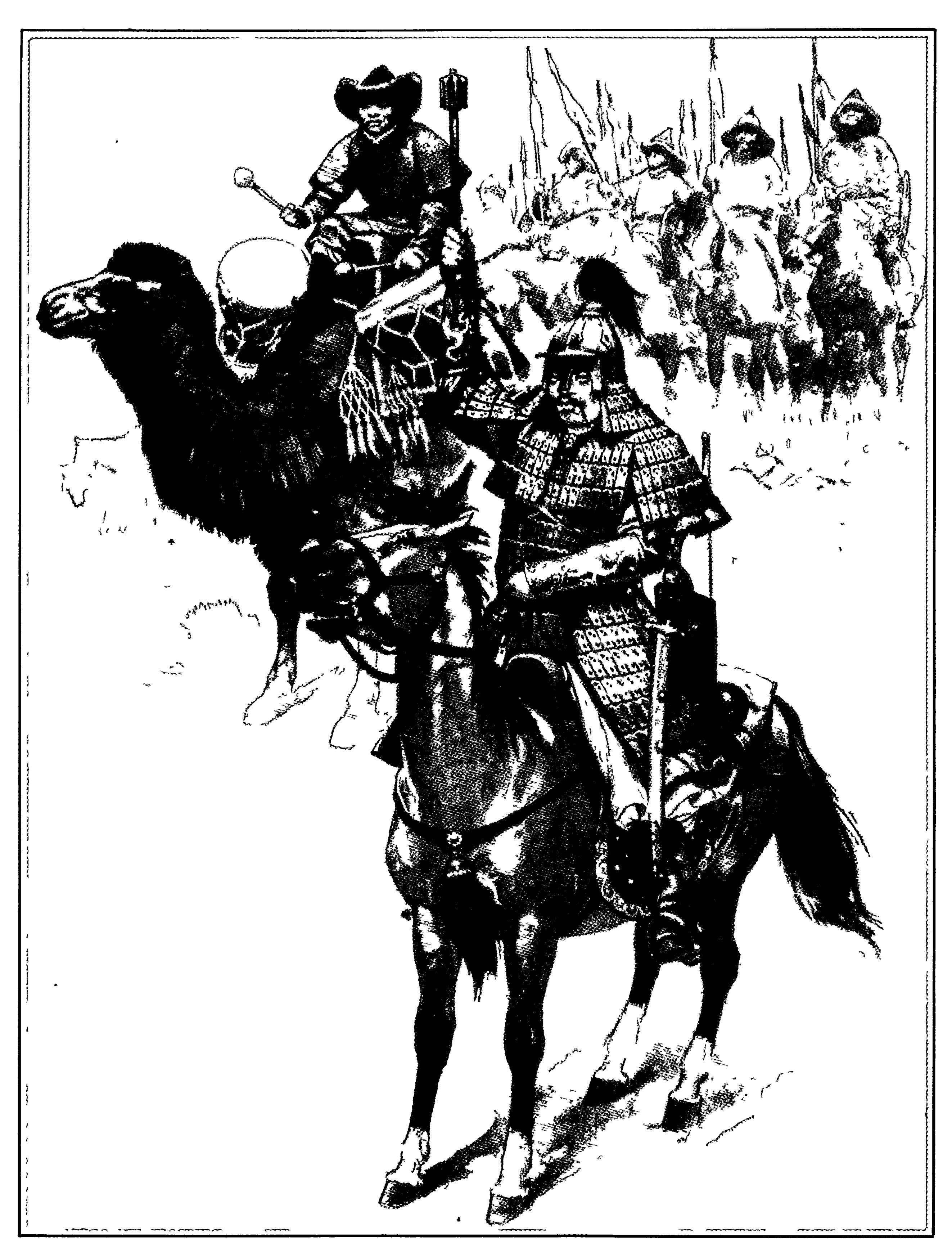
[٣]
ألقاب تيمور

لقد بُويع تيمور كسلطان ، ولكنه لم يتخذ هذا اللقب ولا أي لقب ملكي آخر ، إلاّ بعد وفاة صنيعته الخان سيورغتميش . وقد انتهى بعد وفاة هذا الخان الصوري تردّد تيمور في حمل هذا اللقب ، وانتهى كذلك تخوّفه من إثارة غضب خانات جغطاي الشرقية . لقد ظل يكتفي بلقب الأمير حتى عام ١٣٨٨م ، وهو تاريخ وفاة سيورغتميش . أما خطباء المساجد فقد كانوا يغدقون عليه ألقاباً شتّى : السلطان العادل، الخاقان الراشد، الباديشاه العظيم ، الأمير المجيد . وعرفت له ألقاب أخرى: صاحب القران ـ كوركان ـ وهذا لقب مغولي الأصل ويعني صهر الحاكم ، ويعادل لقب فو ـ ما الذي أطلقه الصينيّون على تيمور لدأبه على الزواج من بنات الملوك . وهناك أيضاً لقب قطب الحق والدنيا والدين.

[٤]
تيمور الحاكم

احتفظ تيمور ، منذ البداية ، بجميع أعنّة السلطة في يديه ، سامحاً لنفسه بالإصغاء للمشورة ، لكن دون أن تُفرض عليه أبداً . وكان سريعاً في الردّ على أية معارضة . قضى على أنصار حسين قبل أن يغادر بلخ ، وقد حرقت أملاكهم أو درست ولم يبقَ منها ظاهر على وجه الأرض . وكان يراقب مغول الجات بعين ساهرة.

وبعد قليل من تنصيبه ، أخذ يظهر نظام جديد للأشياء ، ما بين سير داريا والهند ، وبدأ الطورانيون يتلقّون فكرة جديدة عن النظام والانضباط وأساليب التصرّف . وكانت طريقته في التعامل مع مرؤوسيه حسّاسة فريدة . ومن ذلك أنه عهد إلى أميرين عسكريين (قائدين) بالحركة إلى الشمال لقصاص بعض قبائل الجات . وانطلق هذان الأميران مع قوّاتهما ، ولمّا وصلا إلى مراعي هذه القبائل وجداها مهجورة ، فعادا أدراجهما على اعتقاد بأن مهمتهما قد أنجزت.



قائد مغولي وضارب على الطبل

وبينما هما يعبران سير داريا ، مبتهجين توقعاً للراحة والتمتع بأطايب المآدب ، بعد رحلتهما غير المثمرة ، وإذا بهما يلتقيان بتومان (فرقة) من الخيّالة الصديقة في طريقها إلى الشمال ، فسألا قائدها عن وجهته ومهمته ، فأجاب:

ـ إننا متوجهون للعثور على قبائل الجات التي استعصى عليكم العثور عليها!.

غضب الأميران في بادىء الأمر ، لكن سريعاً ما أخلدا إلى التفكير . وعوضاً من أن يتابعا طريقهما راجعين إلى المقرّ ، فإنها عادا لينضمّا إلى الفرقة الجديدة . وبعد سنة من الزمن ، عادت هذه القوة المشتركة إلى سمرقند ، بعد أن قضت تلك المدة في أعالي الجبال . ولكنها عادت وقد جلبت معها ماشية الجات وسجلاً بالرؤوس البشرية المقطوعة والقرىٰ المخربة . وقد أثنى تيمور على الجميع ، وكافأهم بصورة متشابهة ، دون أن يشير بشيء بخصوص المحاولة الأولى للأميرين . وهو لو قال شيئاً عن ذلك ، لاعتبر قوله بمثابة إهانة لهما ، ولبادرا فانسحبا مع رجالهما ليستهلا معه خصومة دموية.

رؤساء قبائل آخرون، على زعم بأنهم مظلومون، أو حنيناً إلى الاستقلال ، ذهبوا إلى معاقلهم ، لكن ليجدوا ، في ظرف شهر أو قريباً من ذلك ، ألوية من خيّالة تيمور وقد تمركزت حول جدرانهم . أُخرجوا من عزلتهم ، وأُعيدوا حتى سجادة الأمير ، ليعطوا هدايا! . وضابط هرب من معركة ، فبُحِث عنه وقُبِض عليه وانتُزِع سلاحه ، ثم رُبَط على ظهر حمار ووجهه إلى الذيل . وقد استمر أياماً يُعْرَض على هـذا الشكل في شـوارع سمرقند ، عنواناً للضحك والسخريات.

وأمير كيكوسرو ، فارسي من عائلة متميِّزة ، تخلّى عن تيمور في وجه العدو ، في صحراء خيفا . خاض التيموريون معركة قاسية ـ هنا قتل إلشيء بهادور ، وهو يعبر النهر بجـواده على أعقـاب الشيـخ علي بهـادور ـ وانتصـروا . وانـطلق البحث في طلب كيكوسرو ، وقبض عليه ، وجيء به ليحاكم من قِبل الأمراء والقضاة ، وأُعدم دون أي إبطاء.

وكان من ضمن الوافدين الجدد شبان من مغول الجات ، ممن وجدوا أن لا فائدة من المقاومة . وكان منهم بايان ، ابن الجنرال بيكيجيك ، الذي يتذكّر أن حياة والده قد استُبْقِيَت بفضل الرجل الذي هو الأمير اليوم ، وكذلك غيطاي بهادور ، الصيني الباسل . غيطاي هذا مكتئب حاد الطبع ، يلبس قميصاً من الجلد مع عرف الفرس متدلِّياً على كتفيه . وقد ارتبط ، بصورة غريبة ، بصداقة شديدة مع مثيله في المزاج الحاد ، الشيخ علي بهادور.

الفصل الثالث عشر

السنوات العشر الأولى بعد التنصيب
٧٧١ ـ ٧٨١هـ ـ ١٣٧٠ ـ ١٣٨٠م

تمهيد ـ موقف تيمور من معارضيه ـ عمران وإصلاح في سمرقند.

[١]
تمهيد

عمل تيمور ، أثناء هذه المدة من حكمه ، على توطيد هذا الحكم داخل بلاد ما وراء النهر ، بالعمل على كسب رضى الأهالي وتأييدهم ، وثم بالقضاء على خصومه ومنافسيه . وعمل ، في الوقت نفسه ، على فرض هيبة دولته على جيرانه في بلاد مغول الجات ، وبلاد مغول الجماعة الذهبية في روسيا ، وخوارزم . وقد قام ، في هذه الحقبة ، بأربعة حروب لضمّ مقاطعة خوارزم ، وزحف خمس مرات على بلاد الجات ، وقضى على قبيلة جلائر عندما ثارت ضدّه . وكانت أحداث هذه الحقبة مناسبة لاختبار مقدرته على الحكم والقيادة ، تمهيداً للمهمة التي نذر نفسه لتحقيقها ، وهي السيطرة على العالم.

وعلى الرغم من كثرة مشاغله ، فقد وجد متسعاً من الوقت للقيام بالعديد من الإصلاحات . كانت السنوات العشر الأولى مرحلة استعداد وتأسيس لقاعدة انطلاق وطيدة مضمونة . وحّد تيمور بلاد ما وراء النهر ، وقضى على النفوذ الأجنبي فيها ، ودافع عنها ضد الأعداء الخارجيين الطامعين بها . كانت أعمال هذه المرحلة تمهيداً وإعداداً للمراحل المقبلة من مخططه الطموح . لَسْنَا على يقين من أنه كان يعمل وفق مخطط قد رسمه مسبقاً ، ولكن من المؤكّد أنه كان متأثِّراً بحياة وسيرة بطله جنكيزخان ، ومصمِّماً على أن يحذو حذوه ويكون شبيهه في ميادين الحروب ودنيا الفتوحات.

كان خط الحدود ، بالإضافة إلى بلاد ما وراء النهر ، يمتد جنوباً من شادمان إلى قندوز وكابلستان ، جنوب نهر أمو داريا . وكان نفوذ تيمور ، شرقاً ، يصل إلى كاشغار وأنديجان وطشقند وخوجند . وكان خط الحدود ، بعد ذلك ، يساير نهر سير داريا ، ثمّ ينعطف نحو الغرب ، تاركاً منطقة خوارزم خارج حدود الدولة.

بدأ تيمور عهده ، بأن أعلن أماناً وعفواً عاماً عن جميع من كانوا قد أشهروا السلاح ضده . وجاء في إعلانه أنه قد مَحَا من نفسه كل تفكير ورغبة بالانتقام ، وتنازل عن كل شيء كان له أو فقده أو سُلب منه أثناء الاضطرابات الماضية . ثم انتقل إلى سمرقند ليجعلها عاصمة له ، وأعقب ذلك إصدار مجموعة من المراسيم التنظيمية في الإدارة والجيش.

ولكي يعطي لعهده صفة الشرعية ، التي تتمثّل بوجود أحد أحفاد جغطاي بن جنكيزخان على رأس الدولة ، وكان عرش الخانية في سمرقند قد شغر بمقتل كابل شاه عام ١٣٦٥ ، وجد تيمور من المناسب أن يرفع إلى هذا العرش أميراً من نسل أوغوداي ابن جنكيزخان، واختار لذلك الأمير سيورغتميش بن دشماندجه ، وكان الأب خاناً عام ١٣٤٦م ، في عهد قازغان صانع الملوك . وقد توفي الخان سيورغتميش عام ١٣٨٨م ، وخلفه ابنه محمود . ولم يكن سيورغتميش ولا ابنه محمود يتمتّعان بأية سلطة حقيقية ، وكان حالهما مع تيمور حال الخلفاء العباسيّين في القاهرة مع سلاطين المماليك . وتوفي الخان محمود عام ١٤٠٣م.

[٢]
موقف تيمور من معارضيه

عفا تيمور عن الأمير موسىٰ القائد السابق لجيوش حسين ، وكان قد اشترك في مؤامرة لاغتيال تيمور بعد أن كان قد عفا عنه أول مرة . وعفا عن شريك موسىٰ في المؤامرة ، الشيخ الفقيه أبو المعالي ، وعن زنده حشم ، حاكم موقع شبورغان ، بعد أن أخذ منه عهداً بالطاعة وبالعمل على إلحاق عشيرته بطاعة تيمور . وكان هؤلاء جميعاً قليلي الأهمية في نظره.

وعلى النقيض من سياسة اللِّين هذه ، فقد سار على الشدة والبطش مع من كان يخشى منهم ، بسبب سعة نفوذهم بين الناس ، أو بسبب مطامعهم التي قد تدفعهم إلى منافسته على السلطة . وكان من مثل هؤلاء الأمير كيخسرو ختلاني ، الذي اتّصل سراً

بحسين صوفي حاكم خوارزم ، وتعاهد معه ضد تيمور . وقد اكتشف أمره ، بأن وصلت إلى يد تيمور نسخة عن المعاهدة السريّة التي عقدها مع حسين صوفي ، فوجّهت إليه تهمة الخيانة ، وكذلك تهمة قتل الأمير حسين . وبقضائه على هذا المنافس الخطير ، بمحاكمته أمام مجلس من الأمراء عام ١٣٧٣م ، فقد تخلّص تيمور من منافس خطر ، وأزال شيئاً من نقمة أقرباء الأمير حسين عليه . وانتظر حتى عام ١٣٧٦م ، للقضاء على المنافس الثاني ، شيخ محمد بن بايان سلدوز ، وحول زعامة قبيلته إلى أحد أنصاره.

[٣]
عمران وإصلاح في سمرقند

وجّه تيمور اهتماماً كبيراً إلى تحسين عاصمته سمرقند وتجميلها . فقد بدأ بإزالة ما حلّ بالمدينة من خراب خلال الصراع مع مغول الجات . ثم قضى على مجموعات كانت تتعاطى الدعارة وأعمال إفساد الأخلاق ، وعلى جماعات المصارعين والملاكمين، الذين كانوا أفرقاء متخاصمة ويتسببون عادة بإحداث إخلال بالأمن مرّات كثيرة . وبنىٰ مسجداً كبيراً ، ورباطاً يأوي إليه الزهاد للتأمّل والعبادة.

ومن بواكير أعماله العمرانية ، أيضاً ، بناء قصر في كيش ، عُرف باسم آق سراي ، أي القصر الأبيض ، كما بني كثيراً من بيوت الضيافة وحدائق عامة.

الفصل الرابع عشر

الصراع في خوارزم

الغـاية من الصـراع ـ الحملة الأولى ـ الحملـة الثانيـة ـ الحملة الثـالثة ـ نهاية قبيلة جلائر.

[١]
الغاية من الصراع

كانت السيطرة على خوارزم ضرورة لاستقرار الحكم في بلاد ما وراء النهر . كانت تحكم في خوارزم أسرة آل صوفي ، وتنتمي إلى قبيلة مغولية متترِّكة تدعى غوتكرات ، وقد تحرّرت حديثاً من سيطرة مغول الجات . وقد عمدت أسرة آل صوفي ، أثناء الصراع بين تيمور وبين حسين حفيد قـازغان ، إلى الاستيـلاء على مدينتي «كـات» و «خيوه» التابعتين لبلاد ما وراء النهر . وكانت العاصمة أوركنج مزدهرة وأرقىٰ من أية مدينة أخرى في تلك البقعة من العالم . وكانت أسوارها قوية عالية ، وتقع على مصب أموداريا.

كان تيمور ينوي السيطرة على جميع البلدان المغمورة بالحضارة الإيرانية . وكانت خوارزم أقرب هذه البلدان إليه . وما كان حسين صوفي ، سيِّد خيفـا وأوركنج وبحـر أرال ، ليفتقر إلى الكبرياء والعنفوان . ولم يكن يعرف عن تيمور إلاّ أنه كان شـريداً متطوِّفاً ، وقد تنازع مع التركمان من أجل الحياة ، في صحراء الرمال الحمراء.

سبقت الحرب اتصالات حبيّة ، وأرسل حسين صوفي هدايـا ثمينة إلى تيمـور . وأعطى تيمور للمبعوث الخوارزمي هدايا أغلىٰ قيمة ، وارتأى أن تكون خان زاده ، ابنة حسين صوفي ، المشهورة بالجمال ، زوجة لابنه جهانكير . ورغم أن هذا الاقتراح كان حبيّاً ، إلاّ أنه كان يعني بالفعل أن تيمور قد اختار أن ينظر إلى سيِّد أوركنج كتابع له . إنه يطالب بحقوق خان الجات وامتيازاته ، وبالحدود القديمة للخانية المغولية الجغطائية . وجاء ردّ الصوفي كما يلي :

ـ لقد افتتحت بالسيف خوارزم ، وبالسيف فقط يمكن أخذها منّي! .

قرر تيمور ان يزحف على خوارزم دون إبطاء . ولكن أحد المسلمين المخلصين لدينهم نجح فأقنعه بالتريّث والانتظار ، ريثما يذهب هذا المتطوِّع للتداول مع الصوفي آملاً أن يتوصل إلى اتفاق معه بخصوص الخلاف بين الطرفين . وبالفعل فقد ذهب هذا الرجل كموفد من قِبل تيمور ، وغايته أن ينصح بالحفاظ على دماء المسلمين . ولكن حسين الصوفي اعتقله وأودعه السجن . ولم يعد من الممكن بعد ذلك كبح جماح تيمور ، فقد رأى في اعتقال موفده المتطوع إعلاناً للحرب عليه من جانب خوارزم.

[٢]
الحملة الأولى ، ١٣٧٠م

تقدّم تيمور على رأس قوّاته ، عبر صحراء كيزيل ـ كوم ، واستولى على مدينتي خيوه وكات دون قتال تقريباً. وخرج حسين صوفي من عاصمته ، متقدِّماً بقوّاته إلى لقاء تيمور ، فَرُدَّ على أعقابه ، وعاد ليلتجىء إلى داخل أسوار عاصمته ، أوركانج . كانت هذه المدينة منيعة ، وقد اقتضى لحصارها تحضير أدوات الحصار الضرورية ، من سلالم وقاذفات حجارة ومنجنيقات وأبراج . وبينما كان التيموريون في سياق هذا التحضير ، جاءت رسالة من الصوفي تقول:

ـ ما الداعي إلى التضحية بالعدد الكبير من أبنائنا؟ هلم لنبتَّ ، أنت تيمور وأنا ، في نزاعنا دون تدخّل من أحد. . ليكن الظافر منّا من تسيل دماؤه من أخاديد السيف. .

قَبِل تيمور هذا التحدِّي . وتحدّد وقت ومكان للمبارزة ، وكان المكان أرضاً ممهدة خارج إحدى بوّابات المدينة.

قُوبِل عرض حسين الصوفي بالمبارزة بمقاومة شديدة من لدن قادة الجيش لدى تيمور . وكان أشدّ المعارضين بايان بن بيكيجيك ، وقد توسّل إلى تيمور أن لا ينزل عند هذا الطلب ، وأن يسمح له بالنزول إلى المبارزة نيابة عنه . وقال:

ـ أيها الأمير! . إن عملنا نحن هو القتال ، ومكاننا في حومته ، أما أنت فمكانك هو العرش وتخت القيادة ، وليس من المصلحة العامة أن تترك هذا المكان!.

غير أن تيمور لم يتزحزح عن موقفه ، وقال إن أمير خوارزم قد تحدّاه شخصياً ، دون غيره . وأعلم مبعوث الصوفي أنه سيكون عند البوّابة بمفرده.

وفي الوقت المعيّن ، توجّه إلى مكان المبارزة ، عند البوابة ، على ظهر جواده ، وبكامل عدّته الحربية : درع خفيف من الزرد ، خوذة سوداء مذهّبة ، سيف ورمح وترس . عدا وحيداً على ظهر الجواد ، خلال صفوف قوّات الحصار ومعدّاتهم ، وعَبَرَ السهل الفاصل حتى بوّابة أوركانج المغلقة . وهنا صاح بأعلى صوته ، منادياً الجنود فوق برج البوابة :

ـ أخبروا سيدكم ، حسين صوفي ، بأن الأمير تيمور في انتظاره .

انتظر تيمور طويلاً . ولكن أمير خوارزم لم يخرج قط إلى المبارزة . وناداه تيمور مراراً لكي يحضر ، لكن دون جدوى . ولما أعياه الانتظار نادى قائلاً :

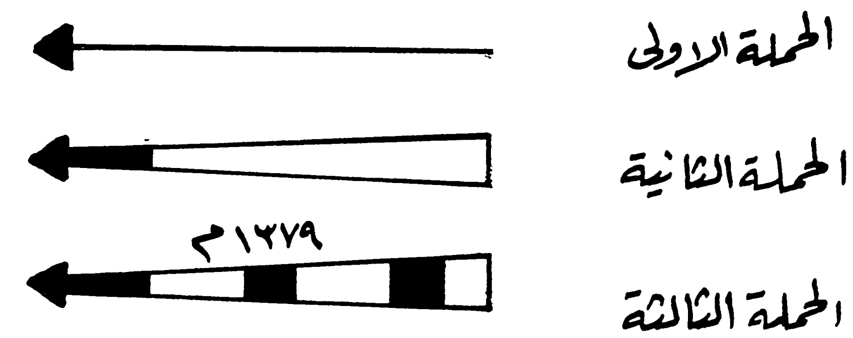
ـ من ينكث بوعده يفقد حياته .

ثم قفل عائداً إلى خطوطه . وقد استُقْبِلت هذه العودة من قِبل قوّاته بترحيبات صاخبة ، بالهتافات ودقّ الطبول وعزف الأبواق وضرب الصنوج . وقد عبّر كل هذا عن عميق عواطف الجند نحوه .

وجاء الخبر في اليوم التالي أن حسين صوفي قد مَرِضَ وتوفي فجأة ، وأَن المدينة تستسلم . وأسرع شقيق حسين صوفي ، يوسف ، الذي خلف أخاه في الحكم ، إلى استرضاء تيمور ، وعرض أن يقدّم ابنة أخيه ، خان زاده ، كزوجة لأحد أبناء تيمور ، وقَبِل هذا الأخير شرط أن يكون يوسف صوفي تابعاً له في حكم خوارزم .

[٣]
الحملة الثانية

حُوكم الأمير كيخسرو ختلاني ، عام ١٣٧٣م ، بتهمة التآمر على الدولة . وظهر من اعترافاته ، ومن معاهدة كان قد عقدها مع أمير خوارزم ، وتسربت نسخة عنها إلى يد تيمور ، أن يوسف صوفي غير مخلص كتابع لتيمور ، وانه يبيّت له الأذى والشر ويتآمر عليه . ولذا تحرّك جيش تيمور ، فور ان انتهت محاكمة كيخسرو ختلاني ، إلى خوارزم ، إلى أوركانج حيث كان يوجد يوسف صوفي . وقد سارع هذا ، عندما رأى جيوش تيمور تحيط بمدينته من كل صوب ، إلى طلب الأمان ، وعمدت خان زاده فتشفّعت له ، فعفا عنه تيمور هذه المرة ، وأبقاه حاكماً تابعاً له على رأس خوارزم . .



الصراع من أجل خوارزم

[٤]
الحملة الثالثة

استغلّ يوسف صوفي انشغال تيمور بصدّ غارات جحافل الجماعة الذهبية ، ليعود إلى سياسة التعالي والتمرّد ، وسجن موفداً كان تيمور قد أرسله للاستفسار منه عن بعض الأمور ، ثم دفعه غروره إلى الإغارة على بخارىٰ . ولما فرغ تيمور من عملياته ضد قوّات الجماعة الذهبية، تحرّك بدوره نحو الغرب، ليضرب الحصار على العاصمة أوركنج. وصمدت المدينة ١٣ شهراً و١٦ يوماً ، وعاقب تيمور هذه المدينة بصرامة ، بأن أباحها للسلب والنهب ، وأرسل أشرافها ووجهاءها أسرى إلى كيش . وقد قتل بالسيف من سكان المدينة خلق كثير ، ودمّرت الأسوار ودرست ، وأحرقت القصور والملاجىء والمستشفيات ، وترك المكان خرائب يتصاعد منها الدخان وروائح الجثث المحترقة . وكان الوقت عام ١٣٧٩م والشهر هو شباط.

[٥]
الحملة الرابعة

وكما استفاد جيرانهم آل صوفي من العداء القديم بين حكّام الجماعة الذهبية وحكّام بلاد ما وراء النهر ، للاحتفاظ باستقلالهم ، فإن قبيلة جلائر ، في منطقة خوجند الحدودية ، قامت بمحاولات لتأليب حكّام مغول الجات وجحافل الجماعة الذهبية على دولة تيمور الناشئة.

وفي عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٥م ، تحالف عادل شاه ، زعيم قبيلة جلائر المغولية ، مع حكّام الجماعة الذهبية ، وقام بالهجوم على سمرقند . وكان تيمور بعيداً عن عاصمته ، فبادر فأرسل ابنه جهانكير مع بعض القوّات ، فأدركوا المغيرين عند مدينة كرمينة وأجبروهم على الفرار . وانتهز تيمور هذه المناسبة ليقضي على قبيلة جلائر ، فحلّها ووزّع بيوتها على عدد من القبائل الأخرى.



الفصل الخامس عشر

احتلال إيران واجتياح جورجيا وأرمينيا

تمهيد ـ أسباب عامة ـ العمليات الحربية ، المرحلة الأولى ، خراسان ـ المرحلة الثانية ، خراسان أيضاً ـ المرحلة الثالثة ـ المرحلة الرابعة ـ اجتياح جورجيا وأرمينيا ـ احتلال فارس.

[١]
تمهيد

جرت العمليات الحربية التيمورية على مساحات واسعة ومناخات متعدِّدة . وكان الخصوم ، في كثير من الأحيان ، هم الذين يُمْلُون على تيمور تحركاته الحربية . وكانت كل حملة لا تكاد تنتهي حتى تبدأ حملة جديدة.

وكانت هذه العمليات تنطلق من رغبة تيمور في مجاراة جنكيزخان ، بطله وأنموذجه ، في الفتح والسيطرة على الشعوب والبلدان ، وليس لغرض آخر ، بمعنى أنه لم يكن صاحب رسالة حضارية أو قومية . وكان كل عمل حربي ، مهما بدا في ظاهره مرتجلاً وغير مرتبط بالعمل الذي سبقه أو الذي يليه ، لكنه يعمل في النهاية على تحقيق فكرته المسيّرة وخدمتها . وقد استهدف ، من وراء عملياته الأولى ، إقامة قاعدة قوية بإحكام قبضته على بلاد ما وراء النهر ، والحصول على أموال وموارد وجمع جيش وتأمين السيطرة عليه ، وتمرينه على المناورة والقتال.

[٢]
الأسباب العامة

تحوّل تيمور بأنظاره إلى إيران بعد أن اطمأن إلى أوضاعه في خوارزم . كانت إيران تشع بالمدنية والإغراءات الشديدة ، وتجذب إلى مدنها العامِرة وأراضيها الزراعية

الخصبة ، وكان كل ذلك بمثابة غنائم دسمة تنتظر لتوزع على أمراء تيمور ورؤساء عسكره وقبائله ، وعائدات تساهم في دخل الدولة.

كانت الدولة الإيلخانية ، التي أسّسها هولاكو وأورثها أبناءه وأحفاده، قد سقطت . وحدث ، بعد هذا السقوط ، فراغ سياسي وعسكري ، وقيام عدد من الكيانات السياسية الصغيرة المتنافِسة ، الأمر الذي جعلها سهلة الاقتناص واحدة بعد أخرى.

[٣]
العمليات الحربية

جرت العمليات الحربية على أربع مراحل ، واستمرت من عام ١٣٧٩م حتى عام ١٣٨٧م.

أ ـ المرحلة الأولى ، خراسان:

بدأت العمليات عام ١٣٧٩م ، بقيادة ميران شاه بن تيمور ، ثم زحف تيمور بنفسه ، فعبر أمو داريا ، وتوجه إلى سرخص ، فسارع حاكمها ، الملك محمد ، إلى تقديم خضوعه . وقد ربط تيمور تحرّكه بأهداف دينية كعادته ، وقال إنه جاء لقتال آل كرت ، حكام خراسان ، بناء على طلب رجال الدين في المنطقة.

وفي نيسان ١٣٨١م ، احتل هرات ، وأبقى حاكمها غياث الدين على حكم مدينته ، وعفا عن السكان لوقوفهم على الحياد ، لكنه استولى على كميات كبيرة من الأموال والكنوز المكدّسة منذ أيام ملوك الغور . وقد غدت هرات بعد ذلك تشكو الفقر الشديد ، وفقدت كثيراً من أهميتها السابقة.

ومن هرات تحرك تيمور باتجاه خراسان الغربية ، فاستسلم له علي بك حاكم كيلات (ناديري اليوم) ، وانتقل من هنا إلى طوس فاستقبله حاكمها علي المؤيّد السربداري بالخضوع والاستسلام ، ودخل في طاعته . وتابع تيمور زحفه ، فتوغل في خراسان الغربية ، ليحتل مدينة أسفرائين التابعة لشاه ولي حاكم مقاطعة مازندران جنوب شرق قزوين ، وعاصمته استراباذ.

وكان شاه ولي قد أرسل يطلب النجدة من الجلائريين حكّام أذربيجان والعراق ، ومن المظفريين حكّام فارس ، وذلك بعد أن جاءته رسالة من تيمور للدخول في طاعته . وبما أن شاه ولي لم يتلق جواباً على طلب المساعدة ، لذلك احتفى برسول تيمور ،

وسكت على اجتياح أسفرائين ، وأعلن الطاعة والانقياد.

اكتفى تيمور بما حققه حتى الآن ، فعاد إلى سمرقند ، مصطحباً معه الملك محمد حاكم سرخس ، وشقيق غياث الدين حاكم هرات كرهينة على ولاء أخيه ، وقد ترك ابنه ميران شاه في خراسان لمراقبة الوضع عن كثب.

ب ـ المرحلة الثانية ، خراسان أيضاً ، ١٣٨١ ـ ١٣٨٢م:

اتفق علي بك وشاه ولي ، بقصد الإغارة على سيزدار ، فتوجه تيمور بقـوّاته إلى كيلات وحاصرها ، ووافاه إلى هنا ميران شاه وغياث الدين من هرات . وبعد حصار دام بضعة أيام ، طلب علي بك العفو واستسلم مع مدينته.

أراح تيمور قوّاته مدة أسبوعين ، ثم توجّه إلى قلعة ترشيز ذات الموقع الحصين ، واقتحمها . واتجه بعد ذلك إلى الشمال ، فجاس في أملاك شاه ولي وعاث ، فأسرع هذا بإرسال الهدايا والأموال وبالإعلان عن بقائه على الإخلاص والطاعة . وبقي علي المؤيد السربداري حاكماً على طوس وسيزدار.

وتابع تيمور طريقه نحو الشمال ، يريد العودة إلى بلاد ما وراء النهر عبر وادي نهر آترك . وأصدر أمره ، وهو في الطريق ، بأخذ غياث الدين حاكم هرات وآله ، وعلي بك وعشيرته ـ عشيرة حاوني قرباني ـ إلى سمرقند.

جـ ـ المرحلة الثالثة:

لم يكن تيمـور ليطمئن إلى إخـلاص شاه ولي . ولـذا توجّـه ، في منتصف عام ١٣٨٣م ، يقصد هذا الأخير ، فأغار على أملاكه ، بعد أن عبر أمو داريا عند ترمذ ، وتقدّم حتى ضفاف نهر المرغب . وجاءته الأخبـار هنا بـأن السربـداريين، في سيزدار وسيستان ، قد خلعوا الطاعة . وللحال تحوّل تيمور إلى سيزدار واقتحمها في ١ كانون أول ١٣٨٣م ، ثم جمع ألفين من أسراها، فكدسوا فوق بعضهم بعضـاً ، مع الـطين والآجر ، وأقيم من هذا الخليط أبراجاً دليلاً على السطوة ، وانذاراً لمن تحدّثـه نفسه بالثورة.

وعمد تيمور ، بعد أن انتهى من سيزدار ، فتوجّه إلى سيستان ليجتاح هذه المنطقة ، ويصطدم بالقوات السيستانية حول العاصمة زارنـج . وجرت هنـا معركـة كبيرة تقهقـر الخصم بنتيجتها وانسحب إلى داخل المدينة ليحتمي بـأسوارهـا . وصنع التيمـوريون أبراجاً خشبية عالية ، وقفزوا منها على أسوار المدينة واقتحموها . قتـل سكان زارنـج جميعاً ، وأخذ قطب الدين ، حاكم المدينة ، أسيراً إلى سمرقند . وتجوّل تيمور في

العمليات في إيران
١٣٧٩-١٣٨٧م

المرحلة الأولى
المرحلة الثانية
المرحلة الثالثة
المرحلة الرابعة
معركة ✕

٠ ٣٠٠ ٦٠٠ كلم

العمليات في إيران ١٣٧٩ - ١٣٨٧م.

ربوع المنطقة ، ووصلت قوّاته إلى حدود جبال سليمان في أقصى الجنوب . وقد حقّقت له عمليات هذه المرحلة سيطرة تامة على منطقة سيستان بكاملها.

د ـ المرحلة الرابعة:

بعد أن أمضى ثلاثة أشهر في عاصمته سمرقند ، تحرّك تيمور من جديد يقصد خراسان ، ولم يكن قد بقي من حكّامها القدامىٰ سوى شاه ولي ، وكان هذا يعلن عن ولائه وإخلاصه ، ويرسل الأموال والهدايا مراراً . ولكن تيمور كان لا يرتاح إلى إخلاصه ، وكان هو هدف عمليات هذه المرحلة.

تحركت القوات التيمورية باتجاه مرغب ، عن طريق بلخ ، وتابعت إلى سرخس وباورد ، ثم تحولت شرقاً إلى نَسَا ، باتجاه الأملاك الشرقية لشاه ولي . وكان هذا يتوقّع هجوماً من هذه الناحية ، ولذلك حشد قوّاته فيها ، واتخذ مقرّه في حصن دورون ، الواقع بين مدينتي عشق ـ آباد وقزيل ـ أرقات ، شرق خراسان.

اصطدم الطرفان في معركة شديدة عند حصن دورون ، فانتصر تيمور ، وانسحب شاه ولي بعد مقتل كثير من جنده . وقد تعقبه تيمور حتى نهر جورجان ، وأدركه عند موقع شاسمان ، قريباً من النهر . ودارت هنا معركة ثانية استمرت عشرين يوماً ، وانتهت لصالح تيمور ، وانسحب شاه ولي ، ووقع كثير من جنده في الأسر . وكان تيمور قد توقّف عن ملاحقته ، وعسكر بقوّاته على مقربة من ميدان المعركة ، واحتاط فحفر خنادق وأقام أسواراً خشبية حول معسكره . واستطاع شاه ولي أن يعود أدراجه ليلاً ، ليغير في ستار الظلام على معسكر تيمور ، لكن دون نجاح من وراء ذلك ، واضطر إلى الانسحاب من جديد ، متراجعاً إلى دمغان.

احتل تيمور عاصمة المنطقة ، أستراباد ، وانطلق على أعقاب شاه ولي . وكان هذا قد أودع أولاده وأهله في كرد ـ ركوه ، وتابع تقهقره نحو الغرب . دخل تيمور الري ، وسار منها إلى السلطانية ، واضطرّ أحمد جلائر إلى الهروب إلى تبريز ، وكان شاه ولي قد وصل إلى هذه المدينة أيضاً . وورد إلى تيمور ، وهو في السلطانية ، نبأ وفاة شاه شجاع المظفري ، حاكم شيراز ، وحلول ابنه زين العابدين محلّه . وفي عام ١٣٨٥م ، عاد تيمور إلى ما وراء النهر ، بعد أن وصل بحدوده إلى إيران الغربية حيث كان يحكم الجلائريون والمظفريون.

وفي أوائل عام ١٣٨٧م ، عبر تيمور نهر أموداريا ، وسار على طريق شمال خراسان ، فمرّ بمدينتي فيروز ـ كوه وساري حيث استقبل من حكّامها بالخضوع

والاستسلام . كان ينوي الاستيلاء على لوريستان ، لكنّه أخفى غرضه ، وأدّعى انه ينوي السير شمالاً حتى خوجند . وكانت السيطرة على لوريستان تؤمن له فصل الجلائريين ، حكّام شمال الغرب الإيراني ، عن المظفريين حكّام جنوب هـذا الغرب . وقـد نجح فاحتل لوريستان ، وأرسل حكّامها أسرى إلى سمرقند . ثم تحرك شمالاً إلى أذربيجان ، وفشل أحمد جلائري في الدفاع عن تبريز ، وغادرها هارباً إلى بغداد . أمضى تيمور صيف عام ١٣٨٧م في تبريز ، ونجت هذه المدينة من التنكيل بدفعها لأموال الأمان.

[٤]
اجتياح جورجيا

غادر تيمور تبريز ، وسار بقواته نحو الشمال ، قاصداً نهر أرس (أراكس الحالي) حيث تقع مدينة نخشفان على ضفافه ، وهي أول مدينة على طريقه من بلاد الكرج ، أي جورجيا . وتحرّك من هذه المدينة شمالاً إلى غرب ، فاحتل قرص ثم تفليس . ولما كان سكان هذه البلاد مسيحيين ، فقد أعطاه ذلك مبرِّراً للادعاء بالجهاد المقدّس.

غادر بلاد الكرج عائداً إلى أذربيجان ، ومعه بقراط ملك البلاد بصفة أسير . وقد مرّ على شروان ، وتقبّل خضوع حاكم المنـطقة الشيـخ إبراهيم . وانحـدر من هناك إلى قره باغ ، وكانت منتجعاً مشهوراً ، ومن ثم إلى بردع في الشمال . وفوجىء هنا بأخبار هجوم خان الجماعة الذهبية ، توقتميش ، عبر بوابة دربند ، وهو هجوم كان بمثابة ردّ على احتلال تيمور لأذربيجان ، التي كان مغول الجماعة الذهبية يعتبرونها من أملاكهم.

وسارع تيمور فعبر نهر كر ، كورا الحـالي ، وأجبر خـان المغول الـذهبيين على الانسحاب والعودة إلى بلاده . وسنأتي على تفاصيل ذلك في الفصول التالية.

[٥]
اجتياح أرمينيا

بعـد أن نجح تيمـور بإرجـاع مغول الجمـاعـة الـذهبيـة على أعقـابهم ، تحـرّك فدخل أرمينيا وتوغّل في قسمها الشرقي . وكانت بعض العشائر التركمانية قد حلّت في هذا القسم من أرمينيا ، وتمكنت من تأسيس دولة عرفت باسم دولة الغنمة السوداء «قره قيونلو» . وقد أدّعى تيمور أن هؤلاء التركمان قد دأبوا على الاعتداء على قوافل الحجاج التي تعبر بلادهم ، ولذلك توجّه إليهم من نخشفان ، فاستولى على قلاع المنـطقة ،

وكانت أهمّها قلعة أونيك . ثم تقدّم فنزل بجوار مدينة أرضروم.

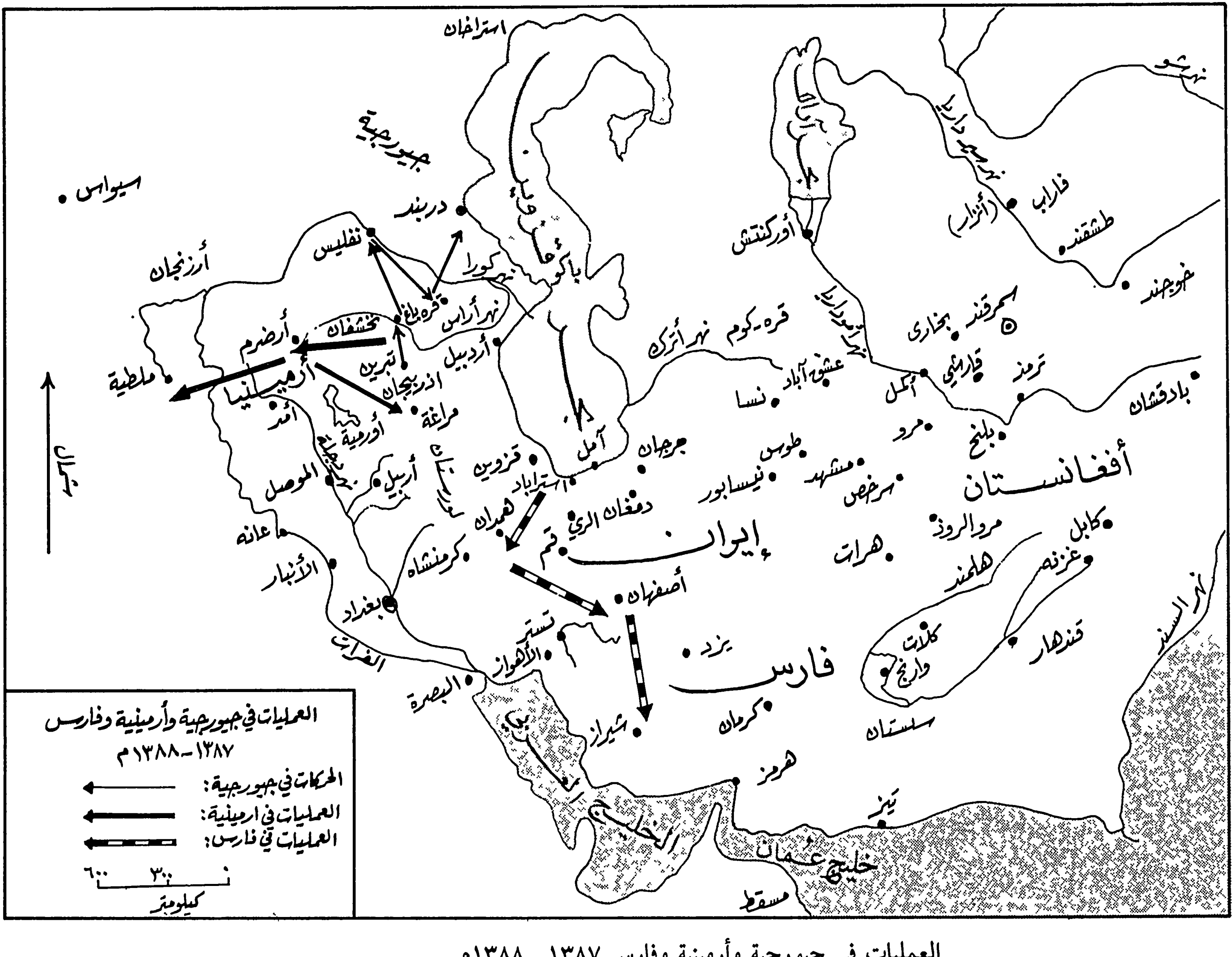
وأرسل تيمور ابنه ميران شاه ، على رأس جيش في إثر قره محمد تورمش ، حاكم دولة الغنمة السوداء ، الذي فرّ واحتمىٰ في شعاب أحد جبال المنطقة ، بجوار مدينة ملطية . ثم عاد تيمور إلى الحركة ، فتقدّم جنوباً للسيطرة على بحيرة «وان» ، فاحتلّ مدينة «خلاط» ، ونهب مدينة «مومش» ، للقضاء على أعمال الشقاوة وقطع الطرقات التي كانت تمارسها هذه المدينة ، كما يقول المؤرِّخون التيموريون . وتابع تيمور مسيره ، فمرّ على «مراغة» إلى الشرق من بحيرة أورمية في أذربيجان ، ونزل أخيراً في مقاطعة جيلان ، على السواحل الجنوبية لبحر قزوين.

[٦]
احتلال فارس

بقي آل المظفر وحدهم مستقلِّين في إيران . وكان شاه شجاع ، قبل وفاته عام ١٣٨٤م ، قد وضع ابنه ، زين العابدين ، تحت حماية تيمور ، وكتب وصية بذلك . ومن جيلان أرسل تيمور رسولاً إلى زين العابدين يخبره بتحرّك موكبه إليه بقصد الزيارة ، فاعتقل زين العابدين موفد تيمور ، وكان ذلك سبباً في إغارة تيمور على أملاك المظفريين.

تحرك تيمور من جيلان ، في خريف عام ١٣٨٧م ، فمرّ بهمذان وهو في طريقه إلى أصفهان عاصمة المظفريين ، وعسكر عند وصوله في ظاهر هذه المدينة . وخرج الأعيان والعلماء لاستعطافه ، وتعهّدوا بدفع ما طلبه من مال ، وفتحوا أبواب مدينتهم لمفارز تيمورية دخلت إليها بقصد جباية هذه الأموال . وفي هذه الأثناء حدث شجار ونزاع بين الجنود والأهالي ، وذهب عدد من التيموريين صرعىٰ نتيجة لذلك ، في ١٧ تشرين ثاني ١٣٨٧م . وقد ردّ تيمور على ذلك بأن أباح المدينة لجنده ، وقتل من سكّانها سبعين ألفاً . وسنأتي فيما بعد على تفاصيل هذه المذبحة الرهيبة.

وتوجّه تيمور ، بعد أصفهان ، إلى شيراز ، فهرب زين العابدين والتجأ إلى ابن عمه ، شاه منصور ، في تستر ، خوزستان . وقد اعتقل منصور ابن عمه وصفّده بالأغلال . واكتفى تيمور عند وصوله بالتعسكر خارج المدينة ، وجاءه بقية الأمراء المظفريين إلى معسكره يقدّمون خضوعهم . ثم قفل راجعاً إلى سمرقند ، في كانون أول ١٣٨٧م ، محملاً بالغنائم والأموال . وقد عجل في هذا الرجوع وصول أخبار بتحرك توقتميش ، خان الجماعة الذهبية ، من جديد نحو ما وراء النهر.



العمليات في جيورجية وأرمينية وفارس ١٣٨٧ - ١٣٨٨م.

الفصل السادس عشر

الحروب في بلاد الجات والهوردة الذهبية
١٣٨٧ ـ ١٣٩١م/ ٧٨٩ ـ ٧٩٣هـ

تمهيد ـ الهوردة الذهبية ـ توقتميش ـ الحرب مع توقتميش ـ عودة توقتميش ـ بعد انسحاب توقتميش.

[١]
تمهيد

انه لمن الضروري ، لكي نتفهّم ما يجري الآن ، ان نعود بأنظارنا مئة سنة إلى الوراء ، إلى أيّام قبلاي خان ، ونتطلع إلى أمبراطورية المغول الجنكيزخانية في ذلك الزمان.

كانت فتوحات جنكيزخان سريعة ، ومن الضخامة بحيث لم يكن باستطاعة أي إنسان أن يسيطر عليها لمدة طويلة . ورغم ان حفيده قبلاي خان كان لا يزال الخاقان ـ الخان الأكبر ـ سيِّداً على أشقّائه وإخوته ، فإنه في الواقع لم يكن سيداً إلاّ على الصين . لقد كان ، انطلاقاً من حاضرته كامبالا ، يحكم صحراء كوبي والصين وكوريا . أما فيما عدا هذه الأقاليم ، فقد كان الأحفاد في تنازع مع بعضهم بعضاً.

كانت الإقطاعات المغولية الجنكيزخانية المختلفة سليمة لم تمس ، والمبعوثون يروحون ويجيئون فيما بينها ، والتجارة تتدفّق بحريّة على طول طرق القوافل . وكانت الطريق الشمالية الطويلة لا تزال مفتوحة ، من روما إلى موسكو ، وعبر السهوب إلى ألماليك ، ثم عبر الصحاري إلى كامبالا . وكذلك كانت الطريق من بغداد إلى كامبالا مفتوحة أيضاً . وظهر ، بعد جيل من موت قبلاي خان ، الرحّالة العربي ابن بطوطة ليتفوّق على ماركو بولو في تجواله وتطوافه . وفي العام ١٣٤٠م سافر مبعوثو البابا ،

«بنوا» الثاني عشر ، إلى بلاط الخان الأكبر في الصين . وفي ألماليك ، عاصمة مغول الجات ، كانت توجد بعثة مسيحية ناجحة.

كان الإلخانات ـ حكّام الإقطاعات الجنيكزخانية ـ يحكمون من القدس حتى الهند ، ومن القرم والفولغا حتى صحراء كوبي . وكان لديهم ، حتى العام ١٣٠٥م ، مبعوثون من لدن أدوارد الأول ملك إنكلترا ، وجيمس الثاني ملك أراكون ، وأمبراطور القسطنطينية اليوناني وملك الأرمن ، وكانت مهمة هؤلاء المبعوثين هي الاحتفاظ برضىٰ وطيب خاطر السيِّد المغولي السامي المعظّم.

ثم أخذت حلقات سلسلة الأمبراطورية المغولية تنفصم عن بعضها ، حلقة بعد حلقة . كان المغول في أول أمرهم يدينون بنوع من وثنية موحِّدة . ثم صاروا بعد الفتح مسيحيين ومسلمين وبوذيين ، واستشرى الخلاف بينهم بسبب التعصّب الديني ، أضف إلى ذلك ما طرأ على حالهم من استضعاف بحياة الترف والرخاء والانغماس في الشهوات . وكانت النتيجة أن هوى الإلخانات عن عروشهم . وأعقبت الفوضى . وفي هذه الأثناء كان الخان الأكبر في الصين قد طرد إلى خارج الجدار الكبير ، وأرجع المغول على أعقابهم إلى سهوبهم الوطنية ، إلى صحراء كوبي . لقد تدمرت قوتهم بالخلافات الدينية ، والحضارة الصينية والانغماس في الملذّات ، وحرموا لذلك من سر انتصارهم . لقد وُضعوا ، دهشين ومتعنتين ومتعنترين ، كمن في حظيرة خارج الجدار ، ليثوروا أحياناً ، ولكن لا ليسيروا بعد الآن على الطرق العمومية كغزاة فاتحين.

كانت أصغر إقطاعة مغولية هي إقطاعة الجات ـ وقد دعي هؤلاء بهذا الاسم لكونهم ينحدرون من نسل جغطاي بن جنكيزخان ـ وكان صانع الملوك قد اقتطع النصف الجنوبي من أراضيهم حول سمرقند ، وقام تيمور ، في العام ١٣٧٥م ، فطردهم من جبالهم حول ألماليك.

وتيمور ، في استيلائه على ألماليك والجبال المحيطة بها ، فإنه لم يطرد مغول الجات ويردّهم على أعقابهم إلى موطنهم الصحراوي الأصلي ، صحراء كوبي فحسب ، بل وضع نفسه على جانبي الطرق العمومية في آسيا . لقد وضع نهاية لغزوات البدو القادمين من الشمال . سيثيون ، ألانس ، هياطلة ، أتراك ومغول؛ كلّهم جاءوا خارجين من متاهات السهوب . كانوا جميعاً أسلافه ، وقد تغلّب على أبنائهم ، وهم أقرباؤه وإخوته بالرضاعة ، وعمل على عودتهم طرداً إلى صحرائهم . وفي غضون عقد من الزمن ، اختفت ثلاثة أرباع السلطان المغولي ، وأغلقت الطرق العامة في وجه الغزاة

والمغيرين ولصوص الصحاري . غير أن الربع الأشد خطراً بقي سالماً وفي كامل قوّته ، كان يقوم إلى الشمال والغرب من تيمور ، وكان يدعى الهوردة الذهبية[١] .

[٢]
الهوردة الذهبية

كان هذا السلطان قد نما وترعرع حول جوشي ، الابن البكر لجنكيزخـان . وقد لقِّب بالهوردة الذهبية لأن باتو بن جوشي ، الملقّب بالبديع ، كان يغطِّي خيمته الكبيرة المقبّبة بنسيج من الذهب . كان هذا السلطان ناجحاً عزيز الجانب ، وكانت سهوب آسيا وروسيا ملائمة ملبِّية لحاجاته . لقد نما هذا السلطان البدوي وكثر عدده ، وتضاعفت حواشيه ، وعاش مصدر قلق وإزعاج عظيمين لأوروبا طيلة مئة وخمسين عاماً .

كانت الهوردة الذهبية ، عند مولد تيمور ، في أوج سلطانها . فالحياة في السهوب المفتوحة ، والغارات الرابحة المستمرّة ، قد حفظت هذه القبائل البدوية في صحة جيدة وعدوانيةٍ فاعلة . كان هؤلاء البدو يتطوفون عبر الأراضي الثلجيـة ، مقصوفين بـأرياح الصحاري الجليدية ، النساء والأطفال في يورتات[٢] مغطاة تجرها الثيران ، وإلى جانبها المحاربون على خيولهم . مدن بكاملها كانت تتحرك على هذا الشكل . دخان يتصاعد من مطابخ على عربات ، مساجد مقبّبة من اللبّاد الرمادي مزدانة بالأعلام . وكانوا أحياناً ينسحبون إلى داخل قلاع متعددة الأبراج ، مصنوعة من جذوع أشجار الصنوبر ، قائمة في أعالي الشمال ، حيث يعيِّن الخشب الأزرق حدود الأرض المعشوشبة .

كانوا أنصاف وثنيين . كان شامانات بشعر طويل ، متمنطقين بأحزمة من حديد ، يجلسون القرفصاء إلى جانب فقهاء مسلّحين . وكان مشعوذون ومروضـو دببة ينـامون تحت العربات المخصّصة للعبادة . كانت قطعان لا تحصىٰ من الخيل تملأ المراعي المتعددة المتغيرة ، وكان تعداد الغنم يتم بتعداد الكلاب التي تسوقها .

العائلات الحاكمة ، فقط ، كانت مغولية ، وكان الباقي من ذرية كل ذلك الشمال ، الذي يدعوه البعض بأرض الظلام : كيبتشاق[٣] ، كانكالي ، قازاق قيرغيز ، موردفاس ، بلغار وألانس . وكان بينهم غجريون وجنويون ، باعة متجوّلون ، تجّار متطوِّفون ، قليل

---

(١) الأصل الأجنبي «هورد» .

(٢) جمع يورث وهي خيمة مخروطية منصوبة على عربة .

(٣) رجال الصحراء .

من الأرمن ، وكثير من الروس . كانوا بمعظمهم ينحدرون من القبائل التركية المتعدّدة ، ولكنّا ندعوهم ، اختصاراً وتبسيطاً ، بقوم الهوردة الذهبية.

كانوا أبناء عمومة للطورانيين قوم تيمور . كانت أعينهم مائلة ، ولحاهم خفيفة . وكانوا عصبيي المزاج أنانيين نفعيين ، يلبسون السمور والحرير المبطّن ، ويملكون دروعاً ممتازة . كانوا أقل همجية من روس ذلك الزمان ، ويضربون النقود لاستعمال أولئك الروس لكي يدفعها هؤلاء لهم ضرائب وإتاوات.

كانوا يحكمون روسيا من بعيد ، من مدينتهم ساري على نهر الفولغا ، ومن استراخان . وكان أمراء الروس يذهبون إليهم مع الهدايا والإتاوات . وكانوا ، كقاعدة عامة، لا يدخلون روسيا إلاّ إذا لم تدفع الإتاوات، فيحرقون ويقتلون ويملؤون خِرَجة سروجهم بكل ما يحوز إعجابهم.

وكان التوازن السياسي في أوروبا بين أيديهم ، ولم يكن قد مضى وقت طويل على قيامهم ، فجأة ، بالتوغّل غزاة في قلب بولندا . وكان عملاء «جنوه» و«البندقية» يقصدون بلاطهم في ساري ، وقد أقاموا محطات تجارية كثيرة في أراضي الهوردة الذهبية.

[٣]
توقتميش

توقتميش أمير من العائلة المالكة الحاكمة ، ترك منطقة القرم هارباً من أقاربه في الهوردة الذهبية ، ووجد ملجأً عند تيمور . وجاء على أعقابه رئيس قبيلة على حصان أبيض ، سفيراً فوق العادة إلى تيمور.

وفي سمرقند ، في حضرة تيمور ، نادىٰ هذا السفير:

ـ يا تيمورا! . استمع لما يقول أوروس خان ، سيد الشرق والغرب ، رئيس العشيرة الزرقاء والعشيرة البيضاء ، وسيِّد خانات سيبريا! . إنه يقول لك «إن توقتميش قد قتل ولدي ، ووجد ملجأً عندك! . يتوجب عليك أن تسلمه إليّ وإلاّ سأخوض الحرب ضدّك»! .

كان تيمور ، قبل هذه الحادثة ، يرى أن الحرب لا بدّ واقعة يوماً بينه وبين الهوردة الذهبية ، في صراع على السيادة نتيجة لفتوحاته المتواصلة . وكان لجوء أمير ملكي من نسل جنكيزخان إليه ، ووقوفه إلى جانبه في هذا الصراع بمثابة منحة حظ على قدر عظيم من الأهمية . أضف إلى ذلك أنه لم يكن باستطاعته ، على كل حال ، أن يتخلى

عن أمير من منزلة توقتميش جاء ينشد عنده الحمىٰ والمأوى . ردّ تيمور على سفير أوروس مجيباً :

« ـ وضع توقتميش نفسه تحت حمايتي ، وسأحميه . . عُدْ إلى أوروس خان وأبلغه أنني قد سمعت قوله ، وإنني مستعد للقائه» .

احتفى تيمور بتوقتميش ، واعتبره كولده ، وولاه على قلعتين على حدوده الشمالية ، ووضع تحت تصرّفه ضباطاً ورجالاً لمساعدته . وكان تيمور قد استولى على هاتين القلعتين من أملاك الهوردة . وأعطاه تيمور، علاوة على ما تقدّم ، ذهباً وأسلحة ، أمتعة ومفروشات ، أنعاماً وخياماً وطبولاً وأعلاماً .

بعد أن تجهّز توقتميش على هذا النحو ، انطلق يتوغل غازياً في أراضي الهوردة ، لكن ليُمنىٰ بهزيمة تامة . وعاد تيمور فجهّزه مرة أخرى ، ومرة أخرى هُزم توقتميش ، ونجا بنفسه بأن عبر سير داريا على ظهر حصان تيمور ، «برون ـ لاد» . وكان جريحاً ، وأقام مدة مختبئاً في الأدغال ، إلى أن عثر عليه ضابط من قبيلة برلاس ، قبيلة تيمور ، فاعتنىٰ به ، وساعده على العودة إلى بلاط سمرقند .

ثم دار دولاب الحظ! .

مات أوروس خان ، وصار توقتميش المطالب الرئيسي بعرش الهوردة الذهبية . إنه الآن مدعوم بنصف القبائل الشمالية ، ومعزّز بقسم من جيش تيمور . وأخذ يتذوق طعم الانتصار! . كان متهوِّراً ، عنيفاً عديم الشفقة ، ولا ضمير له ، وقد مضى عبر السهوب كزوبعة من الإعصار الأسود . طرد مامي خليفة أوروس ، واستولى على مقراته وكنوزه في ساري ، الحاضرة الملكية على نهر الفولغا .

فرض الإتاوات على أمراء الروس . وكان هؤلاء ، لسنتين خلتا ، مغرورين بفوزهم على مامي على ضفاف نهر الدون ، بحيث لم يكونوا ليرضوا القيام بدور الضعيف المستسلم مرة أخرى . لكن هذا الغرور لم ينفعهم ، وخسروا ، وأحكم توقتميش سيطرته عليهم بالنار والدم ، زاحفاً خلال دخان القرى المحترقة ، باتجاه موسكو ، التي حاصرها واحتال عليها ونهبها ، تاركاً أميرها الأكبر نهباً للأسى والحسرة . وإلى توقتميش ، في ساري ، جاء أولاد أمراء الروس كرهائن ، وجاء وجهاء جنوه والبندقية سائلين أن يُمنحوا امتيازات تجارية .

ودار دولاب الحظ أيضاً من جديد! .

فتوقتميش ، سيِّد الهوردة الذهبية ، لم يكن توقتميش المشرّد الهارب! . كان قد

شاهد عظمة سمرقند وجلالها ، وسرادقات الطورانيين وقصورهم . لقد تحوّل ضد تيمور دون إنذار ، ودون أن يشعر ، ولو بشيء قليل من الخجل ، لما يدين به لتيمور من فضل واعتراف بالجميل! .

وكما يبدو ، فإن بعض كبار قومه أشاروا عليه ناصحين بعدم المضيّ في هذا السبيل ، قائلين:

« ـ كانت لك قوة ومنفعة في صداقة تيمور! . اللّه وحده هو العليم فيما إذا كان سعدك سيتغير من جديد! . وإذا تغيّر فلن تكون حينئذ أهلاً ولا مستحقاً لهذه الصداقة! » .

بيد أن توقتميش كان على ثقة بالنتيجة . أضف إلى ذلك أن تيمور وضع يده على مدينة أوركانج ، وقد كانت في الزمن الماضي ، من ممتلكات الهوردة الذهبية.

[٤]
الاعتداء الأول

مضى توقتميش يعدّ للحرب ، بكل أسباب الحذر والحيطة والاستعداد ، الملقّنة والمكتسبة وراثة مع تقاليد قومه . ثم ظهرت مفارز من جيشه على مقربة من بحر قزوين ، وكان تيمور يقوم بإحدى عملياته في تلك المنطقة.

بعد وقت قليل جداً من ذلك ، وصل إلى معسكر تيمور رسول يترنح ويتمايل على ظهر جواده . إنه متعب منهك . لقد قطع ، قادماً من سمرقند ، مسافة ١٥٠٠ كيلومتراً في غضون سبعة أيام . جاء يخبر بأن توقتميش ، مع القسم الأكبر من قوّات الهوردة الذهبية ، قد عبر سير داريا مجتاحاً بلاد تيمور ، على بضع مراحل من سمرقند.

عاد تيمور بأسرع ما يمكن ، على طريق خراسان العام ، فارشاً هذه الطريق وراءه بالخيول المتعثِّرة المنهكة ، وبحيث كان على المسرح قبل أن يصل توقتميش إلى سمرقند . لقد صمدت عدة قلاع وحاميات حدودية ضد الغزاة القادمين من الشمال . وكان عمر شيخ ، الابن الأكبر لتيمور ، قد واجههم في ميدان المعركة ، مظهراً شجاعة نادرة ، ولكنه هزم ، وتبعثر جنوده في الروابي والتلال . غير أن الأنباء ، بقدوم تيمور واقترابه ، فاجأت جحافل توقتميش وفرقه وهي متباعدة ، في منتصف الطريق إلى إنجاز مهامها بصورة كاملة . وقد عمد هؤلاء المغول حالتئذٍ إلى إحراق قصر لتيمور في ضواحي بخارىٰ ، ثم سارعوا إلى الانسحاب إلى ما وراء سير داريا.

لكن موطن تيمور قد اجتيح وانتُهك ، وتحوّل قسم منه إلى خراب . لقد ديست

الغلال، وسِيقت خيول وأُخذ أسرى. ولكن الأخطر من ذلك أنه عندما ظهرت أعلام الهوردة المقرنة ، فإن أعلاماً أخرى قد ارتفعت في ثورة وعصيان . فإلى يسار تيمور قام آل صوفي ، أصحاب أوركانـج وأنسباء خان زاده ، زوجة ابنه ، سالكين طريق الحرب إلى ميدان القتال . وعلى يمينه ، في أودية الجبال المرتفعة ، اعتلت قبائل الجات ظهور خيولها ، وانحدرت من أعاليها تطلب السلب والمغنم.

هكذا برز الصراع الحقيقي على السيادة في وسط آسيا . فتوقتميش ، المنحدر من ذرية جنكيزخـان ، المكلّف بتنفيذ الياسا ، ونصير البدو يتمتع بكل إمكانـات المغول وقدراتهم . أما تيمور ، الابن لزعيم قبيلة صغيرة ، فلا سند له غير القبائل المرتبطة معه بالولاء والوفاء . وفي هذه الأثناء كان توقتميش قد اختفىٰ داخل سهوبه ، كثعلب ينساب إلى وكره . أين ستكون ضربته المقبلة؟ لا شيء ينبىء عن ذلك!.

استدعىٰ تيمور إليه كل أولئك القادة الذين واجهوا الهوردة وهزموا . كافأ كل من أظهر جرأة وإقداماً ، وعاقب من فرّ من المعركة ، كما يفعل مغول الجات ، بقصّ شعر المذنب ، وصبغ وجهه بالأبيض والأحمر ، وتطوافه حافي القدمين في شوارع سمرقند.

[٥]
عودة توقتميش

ثم ، وفي أسوأ وقت من شتاء قاسٍ مرير ، عاد توقتميش ، مع جيش ضخم كبير ، قادماً باتجاه سير داريا . لو كان قائد آخر مكان تيمور لكان من المرجّح أن يتراجع إلى سمرقند ، تاركاً المناطق المتطرّفة لتتدبر أمورها بوسائلها الخاصة . ولكن تيمور لم يكن قط ليسمح لنفسه بأن يُحْتجز خلف الجدران.

كان معه قسم من جيشه . وكان القسم الآخر مشغولاً بتطهير الممرات الشرقية من مغول الجات . كان الانسحاب إلى حمىٰ سمرقند ، وترك الهوردة الذهبية في العراء ، معرضة إلى أنواء الشتاء وقسوته ، يبدو وكأنه السلوك الأسلم . ولكن السماح لقائد من نـوع توقتميش بحـرية التصـرّف والحركـة ، كان يعني التعـرّض إلى كـارثـة أكيـدة . فالشماليون ، في الشتاء ، كانوا كمن هم في بيئتهم الطبيعية ، وكان لا مفرّ من أن ينضم إليهم الصوفيون وخانات الجات . وقد ارتأى قوّاد تيمور الانسحاب جنوباً ، والانتظار إلى أن يصير بالإمكان جمع شتات الفرق المبعثرة . وقد غضب تيمور لذلك وصاح:

« ـ ننتظر! . ننتظر. . . لماذا؟! . وهل هذا وقت انتظار للغد؟!».

مضى على رأس قوّاته المتوفِّرة ، متحركاً صعداً إلى سير داريا . مضوا تحت الأمطار والثلوج ، والثلج يعلو حتى بطون الخيل . هاجموا محطات الهوردة المتقدّمة ، وانسابوا خلال فرق العدو، واستاقوا مفارزه الباحثة عن الطعام والعلف . وقد ظهروا ، بتكتيك تيمور ومناوراته ، وكأنّهم طليعة لجيش كبير قادم على الأعقاب . وعندما رأى توقتميش أن خصمه يلتف على مؤخرته ، صار عندئذٍ واثقاً من أن تيمور يتصرّف بفرق عديدة ويهدد مؤخرته وخط تراجعه ، ولم يكن هذا الاحتمال بالشيء السار والمقبول في مثل هذا الشتاء ، ولذا سارع توقتميش بالانسحاب ، تلاحقه مفارز أَمَرَها تيمور بتتبعه والبقاء على تماس معه.

[٦]
بعد انسحاب توقتميش عام ١٣٨٩م

انتظر تيمور حتى توقف هطول الأمطار وجفّت الطرق في الربيع ، قبل أن يتحرّك بدوره ، لكن صوب الغرب . أخذ يضرب في بلاد الصوفيين[١] ، وضرب الحصار على أورِكانج عاصمتهم . وقد اقتحمت هذه المدينة الكبيرة ، رغم الخسائر الباهظة ، وأُعطيت الحرية التامة للسيف يعمل في رقاب سكّانها . لم يكن ذكر لمبارزة هذه المرة! . لُغِّمت الأسوار ودُمِّرت ودُرست ، وأُحرقت القصور والمستشفيات والملاجىء ، وتُرك المكان خرائب يتصاعد منها دخان الجثث المحترقة . وسِيق ما بقي حياً من الأهالي إلى سمرقند.

مضى تيمور ، بعد أوركانج ، إلى الشرق يطارد قبائل الجات ويلاحقها حتى ألماليك ، ويطردها من بُعد إلى مسافات قاصية ، بحيث لن تتسبّب بعد الآن بإحداث قلاقل واضطرابات على حدوده.

بعد أن انتهى من هذا العمل ، وأتمّ تنظيف أجنحته ، عندئذٍ انصرف بكل جهده إلى الصراع مع توقتميش . لم ينتظر هذه المرة قدوم الهوردة الذهبية إلى بلاده ، وإنما عزم على الانطلاق شمالاً ، للتوغّل في أراضي الهوردة ، والالتقاء هناك مع توقتميش في ميدان المعركة . وقد تحرّك في هذه الحملة في نهاية عام ١٣٩٠م.

---

(١) في أذربيجان.

الفصل السابع عشر

المسير عبر السهوب

الدافع ـ الحالة الاستراتيجية ـ الحركة.

[١]
الدافع

كان خطر توقتميش لا يزال قائماً . وكان احتمال قيامه بغارات أخرى على بلاد ما وراء النهر مصدر قلق دائم لتيمور . وهو لا يستطيع أن يتابع فتوحاته في إيران ، التي تجذبه حضارتها ، ما لم يكن مطمئناً إلى سلامة حدوده وموقف جيرانه من ناحية الشمال الغربي . والآن ، بعد استقرار حدوده مع بلاد مغول الجات ، وقضائه على الصوفيين في أذربيجان ، فقد صار الوقت مناسباً لتأديب توقتميش ومعاقبته.

[٢]
الحالة الاستراتيجية

لم يلتقِ تيمور ، حتى الآن ، بالهوردة الذهبية في ميدان القتال . كان جيش توقتميش أكثر عدداً ، وأعظم حركية ، على اعتبار أنه سيكون تحت تصرّفه موجود ضخم هائل من الخيل المستريحة يأخذ منها كما يشاء . وكان بوسع جيش تيمور أن يعيش على البلاد ، مع قليل من الماء وأي نوع من المرعى . ولكن الهوردة الذهبية كانت تعيش على هذه البلاد منذ أجيال.

إن المسير في هذه الأراضي كان يتطلّب أن يتحسّس المرء طريقه عبر صحارى رملية ، وسهوب صلصالية وروابي جرداء . ولم يكن من الممكن ، فوق مثل هذه الأرض ، نقل المؤنة لتكون صالحة لأكثر من اثنين أو ثلاثة أشهر . وإذا حدث والتقى تيمور بتوقتميش ، فإنه سيكون حالتئذٍ مضطراً إلى خوض معركة وظهره إلى أرض

جرداء . وكل هزيمة ستؤدِّي حتماً إلى خسارة قسم كبير من جنده ، وإلى خسارة معظم خيوله على أكثر من احتمال.

في عام ١٧١٦م ، أي بعد ما ينوف عن قرنين من الزمن على وفاة تيمور ، أرسل بطرس الأكبر جيشاً روسياً عبر هذه الأراضي ، جنوباً ضد خيوه والتركمان . وقد مات الجنرال الروسي ، الأمير بيكوفيتش تشركاسي ، في الصحراء مع معظم جنوده ، وأخذ الباقي أسرى ليعيشوا عبيداً وأرقّاء . وبعد قرن من ذلك ، حاول جيش روسي آخر ، بقيادة الكونت بيروفسكي ، أن يقوم بنفس الحملة في فصل الشتاء ، بعد أن تأمّن التموين بالماء وفيراً بحفر عدد من الآبار ، ففشلت المحاولة ، وعاد الناجون ، بعد سنة ، وقد خلّفوا وراءهم عشرة آلاف جمل ، وعدداً مماثلاً من عربات الكارو ، وقسماً عظيماً من الجيش صريعاً على الأرض المتجمّدة.

على الرغم من أن الصحاري الأسيوية كانت أرضاً محرّمة على الجيوش من أي حجم تقريباً ، فإن جيوش جنكيزخان ، في العشرينات والثلاثينات من القرن الثالث عشر الميلادي ، قد جابت هذه الأراضي مراراً وتكراراً ، وكانت منتصرة كل مرة . وكان تيمور على معرفة ولا شك بتاريخ جنكيزخان العسكري.

لم يكن باستطاعة تيمور أن يدور حول هذه الأرض . وهو لو سار غرباً ، حول بحر قزوين ، فقد يتوصل إلى مهاجمة مدن الهوردة الذهبية . ولكن لم يكن هناك قط أي شك من احتمال نجاح توقتميش بالسيطرة على سمرقند ، قبل أن يكون تيمور قد توغّل في أودية القوقاز . أضف إلى ذلك أنه لن يكون لدى تيمور أي علم بأية ناحية سيختارها توقتميش للالتقاء به: على حافة حدود الصحاري ، أو على بعد ٢٥٠٠ كيلومتر عند البحر الأسود ، أو عالياً قرب بحر قزوين ، أو تحت الشمس الساطعة حيث تمتد صحراء كوبي؟!.

الواقع أن توقتميش قد اختار أن يعمل شيئاً يختلف كلية عمّا سبق ، وغير متوقّع بالمرة . وقد أخفقت مصلحة استعلام تيمور ، ونفدت مؤنته ، وكان وجيشه قد أضاعوا طريقهم تماماً قبل أن يبصروا بالأعلام المقرَّنة للهوردة الذهبية . وبموجب القوانين والمبادىء العسكرية ، فإن تيمور كان يجب أن يفشل ، ولكنه كان على العكس مصيباً . لقد تصرّف اعتماداً على معرفته بالطبيعة البشرية ، وليس بسبب الجدعنة الفارغة . نحن نعرف أن توقتميش قد عاش في بلاد تيمور بضع سنين ، وهرب مرتين من المعركة . كان تيمور يعرف جيداً نواحي الضعف والقوة في طبيعة المغولي ومزاجه ، وقد وضع خطة عملياته بناء على ذلك.

كان ولا شك يعلم أن ليس باستطاعته أن يربح أبداً حرباً دفاعية ضد قائد خيّالة كخان الهوردة الذهبية ، وأنه ما ظل توقتميش محتفظاً بسلطانه في الشمال ، فإن سمرقند ستبقى مهدّدة . وقد اختار تيمور ، ببساطة ، أن يغامر بكل شيء للوصول بالنزاع إلى نهاية حاسمة على أرض الخصم بالذات ، وحيث كان توقتميش لا يتوقع ذلك منه بالمرة . وليس أدلَّ على ذلك من أن تيمور ، طوال حياته العسكرية ، كان يتقيد بثلاث قواعد محدّدة ، وهي :

ـ عدم توريط بلاده قط في مناورات من أجل حملة ما .

ـ عدم السماح لنفسه أبداً بأن يوضع في موضع المُدَافِع .

ـ الهجوم دائماً بالسرعة التي تستطيعها الخيل المندفعة .

وكان يقول :

ـ إنه لمن الأفضل الوجود في المكان الصحيح مع عشرة رجال من الغياب عنه مع عشرة آلاف! .

وأيضاً :

ـ إنه لعمل عظيم التوجّه سريعاً لتحطيم قدرة خصم ، قبل أن يجمع كامل قواه . وعلى القائد أن لا يتحرّك بجيش أكبر مما يمكن الاحتفاظ به سليماً على الطريق .

[٣]
الحركة

تحرّك تيمور ، في أواخر عام ١٣٩٠م ، على رأس قوة بلغ عددها مئة ألف من الطوارنيين والخراسانيين . ومرض ، فتوقف ٤٠ يوماً في مدينة طشقند . واستؤنفت الحركة في ٢٣ كانون ثاني عام ١٣٩١م . كانوا يتحركون من قلعة حدودية إلى قلعة حدودية أخرى ، بطيئاً خلال حواجز سلسلة جبال قره ـ داغ . وهنا ، وكان الوقت آخر شباط ، تسببت فيضانات من المطر والثلوج في إبقائهم مدة في «قره سمان» ، على الطريق بين طشقند وياسي . وهنا التقى تيمور بوفد خاص أرسله توقتميش مع رسالة إلى تيمور ، ومع هدية مؤلّفة من تسعة خيول مطهّمة ، وصقر مع زردية عنقية مرصعة بالجوهر .

وضع تيمور الصقر على معصمه ، وأصغى بسكون إلى أقوال السفراء . وكانت

خلاصتها أن توقتميش يقرّ بفضل أمير سمرقند ، ويعترف بخطئه في سلوك سياسة الحرب ، ويرغب في عقد تحالف سلمي مع تيمور . كان الأمر مجرّد خدعة لا غير ، وقد تعامل معها تيمور على هذا الأساس . قال للسفراء:

« ـ عندما كان سيِّدكم جريحاً ، مضطهداً من أعدائه ، فقد ساعدته ودعوته ولدي ، كما هو معلوم لدى الجميع . لقد وقفت إلى جانبه ضد أوروس خان ، وكثيرون من فرساني هلكوا من جرّاء ذلك ، وقد نسي كل ذلك عندما وجد نفسه قوياً . وقد استفاد من وجودي في فارس ، فغدر بي ودمّر مدني . وأرسل بعدئذ جيشاً ثانياً عديداً لغزو ديارنا . والآن ، ونحن نتحرّك ضده ، فإنه يحاول إنقاذ نفسه من العقاب . لقد نكث بعهوده وأيمانه كثيراً . وإذا كان الآن يرغب في السلم حقّاً ، فليبعث بعلي بك للتفاوض مع أمرائي .

علي بك ، الوزير الأول في الهوردة الذهبية ، لم يكن آتٍ ، والحركة شمالاً ما كانت لتتأخّر . نساء البلاط أرسلن إلى سمرقند مع الضباط الذين كُلِّفوا بالدفاع عن هذه الحاضرة ، وعاود جيش تيمور حركته قدماً ، خارجاً من ستر التلال والروابي إلى فضاء الرمال البيضاء.

استؤنفت الحركة في ٢٢ شباط ١٣٩١م ، من ياسي وصابران ، عبر صحراء الجوع والعطش ، توغلاً في عالم الكيبتشاق[١] . كانت الفرق تتحرّك مجتمعة ـ فالتوزع كان بمثابة انتحار ـ وتخيّم على نفس الترتيب . كان من الممكن العثور على كل ضابط في مكان معروف ، وعلى مسافة معيّنة من عِلْم أميره . وهكذا فإنه لم يكن هناك مجال لحدوث ارتباك وفوضى ولو في الظلام . كانوا يتحرّكون الهوينا على ظهر خيولهم ، وكان أُمراء التومانات[٢] يحتفظون بفرقهم بتشكّل قتالي إلى حدٍ ما . كانت الحركة تجري على جبهة عريضة ، وكان ذلك بقصد أن يُسمح للخيل بالتقاط أي كلأ ، حيث تظهر طفاحة خضراء في الرمال.

قبل ساعة أو نحو ذلك من حلول وقت الظهر ، كانت الأبواق تدقّ ، فتتوقف الحركة ، ويترجّل الفرسان لإراحة الخيل . وقد بدأت الخيل تنازع الآن عطشاً لقلّة الماء . وفي ساعة متأخّرة بعد الظهر ، كان الجيش يتوقّف ليخيِّم في بقعة تم اختيارها مسبقاً بواسطة الكشافة . وبينما كانت الفرق تخيِّم ، كانت الطبول تقرع ، والجوقة الموسيقية تعزف: نايات ، مزامير ، صنوج ، وأبواق.

---

(١) سكّان الصحراء. (٢) قادرة الفرق.

ساروا عبر الصحراء لمدة ستة أسابيع . وفي ٦ نيسان بلغوا موقع «سارقا ـ أوزن» ـ حوض نهر ساري ـ صو[١] الحالي ـ . وهنا انتهت الرمال وتحوّلت المساحات إلى أرض معشوشبة ، على مقربة من جبال أولوغ ـ طاغ . توقف الجيش ليعسكِر على هضبة مرتفعة ، وكانت السهول الخضراء تمتد حتى الأفق ، والضباب يملأ الأودية والأخاديد . كانت فرحتهم عظيمة لمرأىٰ تلك المروج الشاسعة ، التي بدت كأنّها البحر في وتيرته المتموِّجة .

الحشيش مخضب بزرقة العنبر ، والحجل يسرح خلال الحنطة البرية ، والنسور تحوم محلّقة فوق الرؤوس . ولم يكونوا قد رأوا ، حتى الآن ، آدمياً ولا شاهدوا أرضاً مزروعة . كانت ترى بعض آثار. . . بصمات جمال على الأرض الندية . . بقايا فحمية لنار ، روث لِقطيع من الخيل . وكانوا يشاهدون ، من حين لآخر، هنا وهناك ، عظاماً بشرية ، منبوشة من أجداث سطحية بأمطار العواصف الشتوية .

كان قد مضى على خروجهم من سمرقند أربعة أشهر . أصدر تيمور الأمر بتقنين الطعام ، وسمح بالصيد . وأخذ الجيش يبعث يومياً بمفارز لتصيد الخنزير البرّي ، والذئاب وبعض بقر الوحش . لقد أصبح اللحم نادراً . وصار الطعام عمومياً ، نوعاً من مطبوخ خليط من اللحم والطحين ، يتحوّل بالتالي إلى حساء كثيفة مطيّبة ببعض الحشائش .

تشجيعاً للرجال ، وتقوية لعزائمهم ، وكانوا قد بدأوا يكابدون ويعانون ، أخذ الأمراء[٢] يأكلون معهم من القدر المشترك . وسريعاً ما اقتصر الطعام اليومي على نوع واحد . وكان الجيش يتحرّك وعين منه على الأرض بحثاً عن جذور وعن طائر السلوىٰ . وقارب الطحين على النفاد .

أما الخيل ، بفضل الكلأ المتوفِّر ، فقد كانت في حالة جيدة إلى حدٍ ما . غير أنه لم يكن ليسمح بأن يضحى بها من أجل القدور والبطون . فالفارس الراجِل كان رجلاً عاجزاً في هذه البلاد ، وفقدان عددٍ كبير من الخيل يعرض إلى كارثة . وأخذ الضباط يتساءلون عما ينتظرهم . إن الرجوع الآن على الأعقاب مخاطرة ، فاجتياز الصحاري من جديد مع رجال ضعاف منهكين ، ويقين من أن الهوردة الذهبية ستظهر من حدود احتجابها بقصد المطاردة ، كل هذا سيجعل من التراجع كابوساً مخيفاً .

---

(١) الماء الأصفر. (٢) بمعنى القادة هنا.

لمواجهة هذه الحالة ، أمر قادة الأجنحة بالانفتاح على دائرة صيد كبيرة . كان بعض الفرسان ، قبلئذٍ ، يجلبون ما قد يصيدونه بعيداً أمام الفرق . أما الآن فإن مئة ألف جندي فارس قد انتشروا على مدى خمسين كيلو متراً . وبينما كان المركز يبقى مستقراً ، كانت الأطراف البعيدة ، في خط الدائرة ، تعدو بخيلها على شكل قوس ، دافعة بكل ذي أربع إلى الداخل . وكانت ألوية أخرى تدور حول الأجنحة لإغلاق الفجوة لجهة الشمال . وبعد أن تُغلق الدائرة ، فإنها تأخذ فتتحرك داخلاً على ذاتها ، ولن يكون عندئذ بوسع أي حيوان ، ولو كان أرنباً ، أن ينساب بعيداً عن الطورانيين الجياع . ومع إحساس الطرائد بأنها مساقة فإنها تبدأ عندئذ ضوضاء مسعورة لظباء مذعورة متسابِقة ، خنازير بريّة هائجة ، ذئاب شعثاء منزلِقة خلال الأدغال ، دببة متباعدة بتثاقل ، إيل في تسابق مع بقر الوحش على الهروب والنجاة.

بعد انقطاع طويل ، لكن لمرة واحدة ، كان اللحم وفيراً . قتلت الحيوانات السمينة فقط ، وتذوّق الجند لحمها بصورة لا تُنسى . ولكن تيمور لم يعطهم وقتاً لتذوّق طعم التهاون والكسل ، فقد أصدر في اليوم التالي أوامره بإعداد الفرق للاستعراض . وفي الساعة المحدّدة ظهر تيمور بألبسة الاحتفال الرسمية : عمرة من فرو القاقوم الأبيض الثمين مرصّعة بالياقوت الساطع ، وفي يده قضيب (صولجان) العاج ذو الرأس الذهبي على شكل ثور ، وهيئة أركانه تتبع على الأعقاب.

كان قادة الفرق ، عند وصوله ، يترجّلون وينحنون إلى ركابه ، ثم يتبعونه مشياً وهو يستعرض فرقهم . كان يُمعن النظر في وجوه داكنة مألوفة لديه : رجال برلاس البرونزيو اللون ، أتراك السلدوز السمهريو القوام ، قبليو الجلائر العسكريو الهندام ، ورجال التلال من البادقشان الذين حاربوه فوق سطح العالم . وفي وقت متأخّر من النهار ، دقّ الطبل الكبير عند العلم الأكبر وأرعد ، ورددت طبول المعسكر وتجاوبت . وللحال توزعت الفرق إلى ألوية بتشكيل القتال . لم تشهد هذه السهوب السيبرية قطّ من قبل عرضاً لمثل هذا الجيش . وانطلق الضباط على خيولهم عدواً إلى مراكزهم الجديدة ، وارتفع من جناح إلى آخر ، على مدى كيلو مترات ، ذلك الصوت الزاعق الآمر بالانقضاض :

- هور - را!.

الجيش هو الآن جاهز ، ومعنويته ممتازة ، وقد عاود مسيره في اليوم التالي.

الفصل الثامن عشر

أرض الأشباح

موطن السيميريان ـ التماس ـ إيضاح استراتيجي ـ المناورة بقصد المعركة ـ التشكّل للقتال ـ المعركة.

[١]
موطن السيميريان

الضباب يتقدمهم متماوِجاً ، والمكان صمت وسكون . الصقور المجنّحة فوق الأشجار ، لكن لا استقبال من طيور مغرِّدة ، ولم تعدْ السماء بلون سماء سمرقند الأزرق الملكي . وكانت تلوح في الضباب أحياناً أكوام ترابية مسطّحة ، أجداث أو مدافن قديمة لأناس قد اختفوا ولا صوت لهم . وقد كتب ابن بطوطة يقول:

« ـ هذه البلاد تدعىٰ أرض الأشباح! . التجّار الذين يغامِرون بالقدوم إلى هنا ، يتركون بضاعتهم وينصرفون ، ويعودون ليجدوا فراء وجلوداً بديلاً عمّا تركوه . لم يرَ التجار أحداً من قاطني هذه الديار . النهار هنا طويل في الصيف ، والليل طويل في فصل الشتاء» .

هذه الأرض موطن السيميريان ، أرض القاطنين في أقاصي الشمال ، سكّان الجليد . وهم قبائل متطوّفة ، وعلى افتراض وجود مثل هذه القبائل ، فهي ولا شك قد توارت مع اقتراب جيش تيمور . وكان توقتميش ، في الجنوب ، قد عمل جاهداً على إخلاء الناس والحيوان في طريق خصمه . وكان الجيش يدخل الآن منطقة تبدو غير مأهولة .

الطورانيون التيموريون يقتربون هنا من خط العرض ٥٥ ، القائم على القارة الأسيوية، عند بحيرة وينبك. وقد عبروا نهر توبال شمال ينابيعه، وكان النهر التالي هو

أورال . وعند هذا النهر تحوّلوا غرباً ، ليعبروا ما هو اليوم حدود أوروبا.

رجال الاستطلاع ، المرسَلُون لجمع المعلومات ، كانوا يتطوّفون كالمتشرِّدين في هذه الصحراء الكبيرة . لم تكن هنا في الواقع صحراء ، ولكن بالنسبة إلى الطورانيين ، المعتادين على الأنوار المشعّة في بلادهم ، وعلى الآبار المألوفة والمدن النهرية ، فإن هذا الاتساع الشاسع ، الرطب المظلم ، دون حياة بشرية ، كان يبدو لهم هائلاً مخيفاً . وكان رجال الدين والأئمة المرافقون للجيش ، بصورة خاصة ، قلقين منزعجين ، لأنه قد استحال عليهم القيام بالصلاة اليومية في مواعيدها المحدّدة.

كان نداء المؤذِّن ، إلى صلاة الصبح ، يخرجهم من دفء النوم مع الفجر ، ويدفع بهم إلى الخارج قبل أن يمضي ما بقي من الليل . وكانت هذه الصلاة تمدّهم بالقوة والعزم على مواجهة النهار الطالِع بثقة وإيمان.

[٢]
التماس

كان تيمور قد أفرز فرقتين ، بقيادة ولده عمر شيخ ، للبحث عن الهوردة الذهبية . كان كل ضابط يودّ لو يذهب مع هذه الطليعة . اختفت الآلاف العشرون عبر السهوب ، وبلغت هذه الطليعة ، في ١٢ أيّار ١٣٩١م ، منابع نهر توبول ، الرافد الثاني لنهر أوب ، فعبرت إلى الضفة الغربية ، لتعثر على مواقع لستة مواقد نار لم تكن نيرانها قد خمدت بعد . وكان هذا أول دليل محسوس على وجود العدو في مكان غير بعيد.

كان ردّ تيمور ، بناءً على ذلك ، سريعاً وللحال . استدعىٰ عدداً من الكشافة المتمرِّسين ، فأرسلهم على خيولهم على وجه السرعة للانضمام إلى ولده ، وللبحث في المروج والمراعي والوهاد . وتبعهم شخصياً مع بعض حرسه ليتسلّم قيادة الطليعة بنفسه . كانوا الآن في منطقة تُعرف باسم كوستناف.

عاد الكشّافة ليخبروا بأن حوالي سبعين ناراً كانت قد أُشعلت في الجوار ، في غضون اليومين الأخيرين ، وأن خيولاً قد مرّت على الأرض . استدعى تيمور رفيقه القديم شيخ داوود ، وهو تركماني معروف بغاراته وأعماله الباهرة ، وكلّفه بتحرّي المنطقة باتجاه الغرب . مضى الشيخ على جواده خبباً ، وعاد بعض مضي نهارين وليلتين ، ليقول بأنه وجد ضالته ، مجموعة من الأكواخ المسقوفة بالقش . تطوّف حول

المكان ، وقضى الليلة مختبئاً ، ليكافأ عند الفجر برؤية خيّال يتجه بجواده إلى ناحية مخبئه.

أسر داوود ذلك الخيّال ، وأحكم وثاقه وجاء به إلى الطليعة . استُجْوِب هذا الأسير ، وتبيّن أنه لا يعرف شيئاً عن توقتميش ، لكنّه أخبر بوجود عشرة فرسان غرباء ، في الدغل القريب من مسكنه . جرى تطويق هؤلاء الفرسان ، وأُتي بمن أمكن أسره حيّاً إلى تيمور ، فعَلم منهم أن الهوردة الذهبية معسكرة على بُعد ركوب أسبوع ، باتجاه الغرب ، عند الضفة الثانية للمجرى الأعلى لنهر «يا ـ ييق» ، نهر أورال الحالي.

[٣]
إيضاح استراتيجي

المسير الطويل لتيمور ، نحو الغرب ، قد يكون مبعث حيرة للاستراتيجي المعاصر . إلَّا أن الموضوع كان حرباً دون قيودٍ ولا محاباة . فتيمور ، لو أظهر ضعفاً ، أو لو ترك نفسه معرّضاً لهجوم مباغت من قِبل الهوردة ، لعرّضه ذلك إلى خطر مميت . كان يعلم أن أعيناً خفية تتابع تقدّمه ، وأن خصمه الخان كان على علم بتحرّكاته . كان الوقت كل شيء بالنسبة لتيمور . فقد كان عليه أن يرغم الهوردة على قبول المعركة ، أو الوصول بجيشه إلى الأرض المزروعة قبل نهاية الصيف . وكانت سياسة الإعاقة خير سلاح لتوقتميش ، وقد استعملها حتى النهاية . وتيمور ، بتحرّكه السريع العازم بعيداً إلى الشمال ، قد أربك الهوردة ، وأرغمها على أن تكون دوماً بينه وبين وجهة سيره . وكانت السرعة حيوية بالنسبة للطورانيين ؛ فقد كانت القبائل المعادية تتجمّع قادمة من السهوب الغربية النائية ، ومن الفولغا والبحر الأسود . وبمثل هذه القوى فإن الخان المغولي كان سيكون أقوى من جيش تيمور بضعفين.

[٤]
المناورة بقصد المعركة

أخذت الآن جيوش يقظة ، متولِّدة وناشئة في السهوب ، تتحرّك وتُنَاوِر بقصد الاصطدام مع العدو على أفضل موضع وأفضل شروط . كان الاحتراس حيوياً في وجه خصم يستطيع أن يقطع مئة وسبعين كيلو متراً في اليوم ، ويبقى مختفياً إلى أن يختار اللحظة المناسِبة لهجومه.

كان تيمور يدرك الخطر الذي يواجهه ، ومدى الحرمان الذي كان جنده يعانيـه . قضىٰ ستة أيام يتحرك غرباً ، بمسيرات قسرية ، ليصل إلى ضفاف نهر أورال . وهنا عَلم من أسراه أن هناك ، على النهر ، ثلاث مخاضات على مسافة قريبة منه ، ولكنه أمر بعبور النهر سباحة من مكان آخر ، عند النقطة التي وقف عندها الجيش . وعبر هو نفسه مع الطليعة ، وتوغّلوا للحال داخل الأشجار المبعثرة.

قبضوا هنا على أسرىٰ آخرين ، قالوا إنهم أرسلوا للالتحاق بتوقتميش عند النهر ، لكنهم لم يجدوه . قضى الجيش يومين لعبور النهر إلى الضفـة الثانيـة . وبعد أن تم ذلك ، قام تيمور ببعض تحريات عرف بنتيجتها أن حشداً معادياً كان يرابط عند كل من المخاضات الثلاث. لقد أقام توقتميش هناك كميناً ، مخفياً مختبئاً عند حاشية أشجار الحور والزان . وقد انسحب عندما عبر تيمور من مكان آخر . ولكن الهوردة لم تكن إلاّ أكثر خطراً عندما يتراءى أنها متراجعة.

أمر تيمور بأن يبقى الجنود في نطاق ألويتهم ، وأن لا تشعل نيران في الليل . وحالما يحلّ الظلام ، كانت مفارز خيّالة تتحرّك دائرة حول المعسكر . وطيلة أيام عدة ، أخذوا يتوغّلون غرباً ، خلال الأودية الضحلة لنهر أورال ، شاقين طريقهم خلال المستنقعات . وعندما وصلوا إلى الأرض الجافة المنفتحة من جديد ، عادوا إلى المسيرات القسرية ، إلى أن وصلوا إلى نهر سمور ـ سامارا الحالي ـ ، أحد روافد نهر الفولغا ، وينزل من السفوح الغربية لجبال أورال . وبعد عبور نهر سمور ، صار السير يجري في مستنقعات ووحول ، مما زاد من معاناة الجند وإجهاده . وأخذت طلائـع تيمور تصـطدم بمؤخرة العدو وتأسر منها . وأفاد الأسرى أن توقتميش قد جمع جيشاً كبيراً ، وأن خطّته تقوم على عدم الاشتباك مع القوّات التيمورية ، بل استدراجهـا لمتابعـة التوغـل في هذه البـلاد الشـاسعة ، بـالاستمرار على التـراجع أمـامها وهكـذا تستنزف قـواهـا بهـذه المنـاورة الإستراتيجية . وقالوا أيضاً أن توقتميش موجود الآن في مكـان قريب من النقـطة التي وصلتها القوّات الطورانية.

أمـر تيمور بمضـاعفة إجـراءات الحذر ، وأُحيـطت المعسكرات ليـلاً بـالخنـادق والحراسة الشديدة . وكان التعب والقلق قد أخذا من الجيش كل مأخذ . ولُوحظ أن الليل في هذه المنطقة قصير جداً ، فالوقت كان صيفاً ، ولذلك أفتى رجـال الدين ، المرافقون للحملة ، بإسقاط صلاة العشاء.

لقد آلتقت كشّافة تيمور بمؤخرة توقتميش ، وحافظت على التماس معها ، ولكنها لم

تلتقِ بتوقتميش نفسه . فسيِّد الهوردة الذهبية قد تحوّل إلى الشمال من جديد ، لكنه لم يعد باستطاعته بعد الآن أن يغيب وهوردته عن أنظار التيموريين وتماسهم ، لكنه يستطيع أن يظل في مقدمتهم، مفرغاً الأرض من حيوانات الصيد في مضيِّه مبتعداً عن كل حضارة ، متوغلاً أعمق فأعمق في أرض الأشباح . الأشجار الباسقة ، التي كانت الجيوش تمرّ خلالها ، قد كفّت عن أن تكون زاناً وسندياناً ، وإنما صارت بتولاً ونباتاً داكناً دائم الاخضرار . وما لبثت الغابات أن بدأت تخلي المجال للبراري الجليدية المبتلّة.

الجوع يقرض الآن جنود تيمور . وقد فترت هممهم لقتل ثلاثة من كبار ضبّاطهم مع رجالهم ، بعد أن وقعوا في كمين من خيّالة الهوردة . إنهم يدركون الآن أنهم معرّضون إلى الإبادة من جميع الجهات ، ولكن ظلوا رغم ذلك على يقين من خلاصهم على يد تيمور . ثم جاء المطر ، فزاد الطين بلّة ، وأعقبه الثلج ، وذلك بالرغم من أن الوقت كان منتصف حزيران.

[٥]
التشكّل للقتال

اعتاد تيمور أن يضع خيالته الثقيلة في الميمنة . كان يضع دائماً أحسن قوّاده في الخطوط الأمامية لهذه المجنبة . وكانت الميمنة تناور بالألوية ، وواجبها ، كقاعدة عامة ، هو سحق الميسرة المعادية المقابلة . وكان يحتفظ بميسرته ساكنة إلى أن تتضح له الصورة عند الميمنة ، كما كان يحتفظ ، دائماً ، تحت إمرته مباشرة ، باحتياط قوي خلف القلب.

كان من أحبّ الأشياء إليه خوض معركة معدّة على سهل مفتوح . وكان باستطاعته أن يدور بكامل جبهته حول احتياطه ، متقدِّماً على خط مائل على أعقاب الميمنة ، والميسرة تتبع القلب . وكانت التشكيلة الرئيسية للجيش تشكيلة دائمة ، وكل فرقة تعرف واجباتها ومكانها في التشكيلة، وكان بوسعه ، بواسطة احتياطه ، أن يدعم هذه المجنبة أو تلك ، وفقاً لتطورات الموقف . وكان من النادر أن يحرِّك احتياطه أو يتحرّك بنفسه إلّا عند اللحظة المناسبة . وكان القلب قادراً على التخندق ، وكان غالباً لا يستعمله إلّا بعد الصدم الكاسح لخيّالته الرائعة.

جيشه الآن مؤلّف من خمسة فيالق ، كل فيلق من تومانتين (فرقتين) . وكان الكل من

الخيّالة ، ثلث من الخيالة الخفيفة وثلثان من الخيّالة الثقيلة . وهـو الآن على تشكّله المعتاد لمعركة في سهل منفتح ، أي موزّع على ميمنة من فيلقين ، وقلب من فيلق ، وميسرة من فيلق واحد كذلك ، وكان هناك فيلق كاحتياط خلف القلب . وكان تيمور يقف بعيداً خلف القلب ، مع حرسه الخاص وجحفل من نخبة المحاربين المتمرِّسين . كان على الميمنة ، تحت القيادة الاسمية لابنه ميران شاه ، سيف الدين بهادور . وكان القلب بقيادة حفيده سلطان محمد ، والميسرة بقيادة ابنه عمر شيخ . هذا هو التشكّل للمعركة القادِمة مع الهوردة الذهبية.

كان تيمور هو البادىء في الحركة . تقرّر أن يقوم عمر شيخ مع فرقـة بعبور نهـر سوك ، لاستطلاع أحوال العدو في تماس قريب . وقد أمكن عمر شيخ ، في غضون يوم واحد ، أن ينظِّف طريقه من جميع مفارز العدو ومحطاته الخارجية . وبعد سبعة أيام من مناوشات واشتباكات مع مفارز الإعاقة المعادية ، وجد عمر شيخ نفسه ، للمرة الأولى ، على مرأى من أعلام العدو المقرَّنة ، وجحافله المحتشدة ، وخيامه المقبّبة . كان التاريخ يـوم ١٩ حزيـران عام ١٣٩١م ، والمـوضع هـو كندورتشـا ، حيث تقـوم اليـوم بلدة كندورتشا ، على نهر كاندورتشا الصغير ، وهو رافد لنهر سوك على ضفته الشمالية.

تقدمت الفرق التيمورية بانتظام ، بتشكّل القتال السابق الذكر . وصدر أمر واحد ، وكان الترجّل ، ونصب الخيام ، وطبخ كل ما كان متبقياً لديهم من الطعام لوجبة سخية شهية . هنا كانت خاتمة مسير استمرّ (١٨) أسبوعاً ، على مسافة ثلاثة آلاف كيلو متر.

كانت قوّات الهوردة مواجهة لهم بفاصل من ألف متر فقط ، بتشكيل القتال ، وقد تحرّكت عرباتها إلى الخلف . لم يكن باستطاعة أي من الجيشين أن ينفكّ بعد الآن . وقد اعترت الدهشة جنود توقتميش ، عندما راح الـطورانيون ينصبـون خيامهم ، غيـر مبالين ، كما لو كانوا لوحدهم في هذه البراري الشمالية المتجمّدة . لقد هدف تيمور أن يريح خيله ، ويقوي جنوده بإشباع جوعهم وملء بطونهم.

بات الطرفان تلك الليلة ، كل في معسكره . كانت الحراسة الخارجية ، في معسكر تيمور ، حذرة يقظة . لم يسمح تيمور بظهور أنوار بعد أن حلّ الظلام ، كما لم يدع هيئة الحرب إلى اجتماع لآخر ساعة . لقد نام ضبّاط أركانه على السجّاد حوله ، وأقام السعاة إلى جانب مطاياهم مع حرس القيادة . أما تيمور فقد جلس إلى جانب مصباح زيتي ، بكامل دروعه، ذاهباً في غفوة قطٍّ من حين لآخر، وساهراً مع جنود العاج على رقعة الشطرنج.

[٦]
المعركة

بدأ القتال مع طلوع الفجر . هجمت طليعة الميمنة التيمورية ، بقيادة سيف الدين بهادور ، على نداء:

ـ دار. . أو. . كار[1]!.

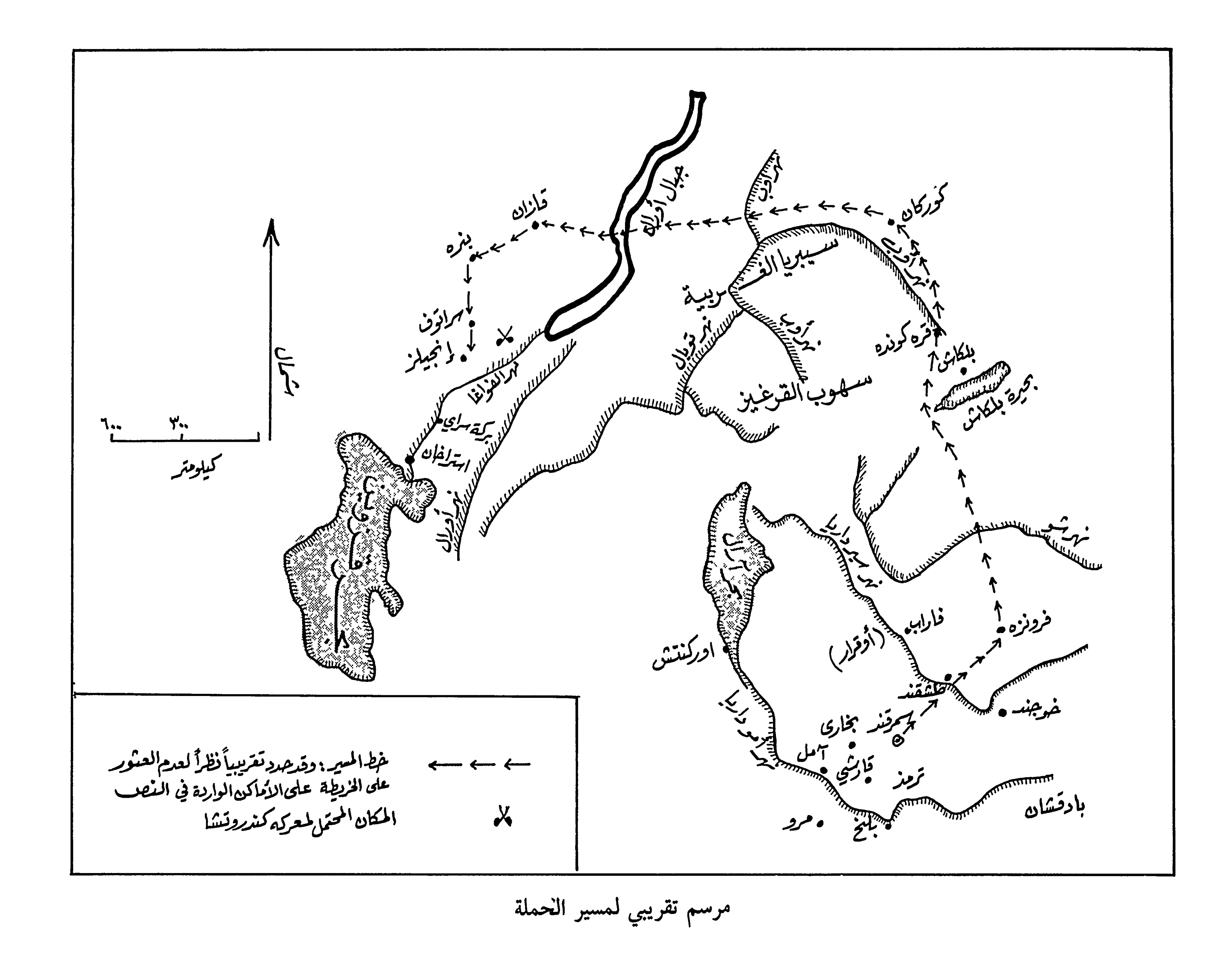
كانت الهوردة الذهبية على تشكيل قتالي شبيه بتشكيل تيمور . وكانت جبهتها على شكل نصف دائرة ، وأجنحتها متجاوزة ، مع شيء من الالتفاف ، لأجنحة الطورانيين . وعند هجوم سيف الدين ، اندارت ميسرة الهوردة ، بالتفاف نحو اليمين ، لمواجهة هذا الهجوم . وتعالىٰ الضوضاء والضجيج وقرقعة السلاح في هاتين المجنبتين الملتحمتين ، على جبهة بعرض أربعة كيلو مترات . وأخذت الميمنة تغذّي المعركة على جبهتها ، وما لبث أن دخلت القتال بكاملها ، خيّالة خلف ستار من النبال المتطايرة . وتراجعت ميسرة الهوردة بقوة صدم الخيالة التيمورية الثقيلة . وعندئذٍ دفع تيمور بالقلب لدعم هجوم الميمنة.

وفي هذه الأثناء ، كانت الميسرة الطورانية ، الضعيفة عدداً ، تنوء تحت وطأة هجمات متعاقبة شديدة ، من ميمنة توقتميش . وأخيراً تحطّمت هذه الميسرة وتقهقرت ، وكانت مؤلّفة بغالبيتها من رجال قبيلة السردوز . وبقي عمر شيخ ، مع حفنة من الشجعان ، يدافع عن عَلَمه.

وبتحطّم هذه الميسرة وتبعثرها ، حصلت فجوة في الجبهة التيمورية ، فاندفع فيها توقتميش بتهور ، مع حرسه فقط ، متوغلاً حتى مؤخرة القلب التيموري واضعاً نفسه هكذا بين مؤخرة هذا القلب وبين تيمور الذي كان يتقدّم على أعقاب قلبه . وما لبث توقتميش أن وجد نفسه بين نارين على جانبيه ، وبخاصة من جهة تيمور ، الذي انقضّ مع حرسه واحتياطه محطِّماً في جناح توقتميش الأيمن ، وشاقّاً طريقه باتجاه العلم المقرَّن . وتحت وطأة هذا الهجوم المباغت ، ورؤية العَلم الكبير المذيّل ، المنتصب مرفرفاً فوق الخوذات اللامعة لحرس تيمور ، وهو يقترب منه بأقصى سرعة ، راح توقتميش فريسة للذعر والهلع ، وما كان منه إلّا أن دار بجواده خلفاً ، وانطلق مع بعض

---

(١) صبر وقتل.



مرسم تقريبي لمسير الحملة

ضبّاطه هارباً من القتال ، مسرعاً لا يلوي على شيء ، دون أي تفكير بالآلاف من رجاله الذين كانوا ولا زالوا مشتبكين في ميدان القتال . كان يتسابق مع شبح الموت . وقد أصابه ما أصاب داريوس ، في معركة كوكميله عام ٣٣١ قبل الميلاد ، لمرأى الإسكندر وهو يقترب منه . وبهروب توقتميش سقط العلم الكبير المقرَّن للهوردة الذهبية وهوىٰ إلى الحضيض .

باستطاعتنا ، على أساس هذه النتيجة ، أن نقول بأن تيمور كان على علم بطبيعة خصمه ، وأنه في طلبه لتوقتميش في عقر داره لم يكن قائماً بمغامرة أو مجازفة . كان يعلم يقيناً بأن خصمه ضعيف الأعصاب ، وبأنه لن يثبت أمامه طويلاً في ميدان المعركة . وهذا القول يؤدِّي بنا إلى استنتاج آخر ، وهو أن تيمور كان قوي الفراسة ، وهي موهبة كان جميع القادة العظام يتمتعون بها إلى حدٍ كبير .

كانت قوّات الطرفين جميعها من الخيّالة . وقد تعمّد تيمور أن تكون ميسرته ضعيفة ، فيلق فقط ، إغراءً لتوقتميش على الهجوم من هذه الناحية ، وحيث يكون هو بانتظاره مع الحرس والاحتياط . وقد استجاب الخان إلى هذا الإغراء ، وانتهت المعركة وهي بعد في مرحلة أولية .

[٧]
الاستغلال والمطاردة

استولىٰ الطورانيون على معسكر توقتميش ، فانقلب الحال معهم فجأة من الحرمان الشديد إلى الرخاء المفرط : ثروات وكنوز وعبيد وجواري وخيول وأنعام بأعداد لا تحصى . أُرسل قسم من الجيش لمطاردة توقتميش ومن هرب برفقته من كبار أنصاره وقادة جيشه ، وطُورِدت بقية الهوردة شرقاً ، إلى مستنقعات الفولغا ، حيث قضى عدد كبير من أفرادها غرقاً . وتقدّر روايات ذلك الزمان بمئة ألف عدد من هلك من عناصر الهوردة الذهبية قتلاً وغرقاً . ومهما تكن الصحة في هذا العدد ، فإن من المؤكّد أن المذبحة كانت عظيمة .

بدأت حملة الصيد ، لا لجمع الحيوانات واصطيادها هذه المرة ، وإنما لتمشيط البلاد ، على جانبي الفولغا ، من أجل النهب والسلب . تحرّك التيموريون نزولاً ، نحو الجنوب الدافىء ، جامعين في طريقهم قطعان الغنم والبقر والجمال ، ومضخمين في كتل خيولهم . استولوا من الحقول على القمح الناضج ، وتحرّوا باحثين في كل قرية

خشبية عن بنات جميلات وفتيان صغار . لقد وجدوا ، وهم يجولون متطوفين خلال روسيا ، ثراء أدهشهم . . سبائك من الذهب والفضة ، فرو قاقوم أبيض وسمور أسود ، وكان ذلك أكثر مما يلزم لاستعمال كل جندي وعائلته طوال الحياة.

كان مع كل جندي ، الآن ، أكثر مما يستطيع حمله معه . واقتضى التخلّي عن الشيء الكثير . واجتمع الجيش من جديد في السهوب السفلىٰ ، في منطقة ذات جمال طبيعي ، وأمر تيمور بإجراء احتفالات نصر لمدة عشرين يوماً.

اتخذ تيمور عدداً من القرارات لتنظيم الإدارة في بلاد الهوردة الذهبية ، على اعتبار أنها صارت الآن من أملاكه . غير أن ما اتخذه من إجراءات لم يكن كافياً لبقاء هذه البلاد تحت حكمه المباشر ، وغير كافٍ كذلك لاستمرار النفوذ التيموري فيها . وكان جلّ همّه منصرفاً إلى حمل الغنائم الضخمة والعودة بها إلى سمرقند . وبعد انتهاء فترة الاحتفالات على ضفاف الفولغا ، ترك تيمور الجيش ليتبعه بقيادة سيف الدين بهادور ، وأسرع هو عائداً إلى ما وراء النهر ، ليصل إلى مدينة أوترار في تشرين أول ١٣٩١م ، وتفكيره منصرف إلى أعماله الحربية المقبلة في إيران.

[٨]
توقتميش بعد المعركة

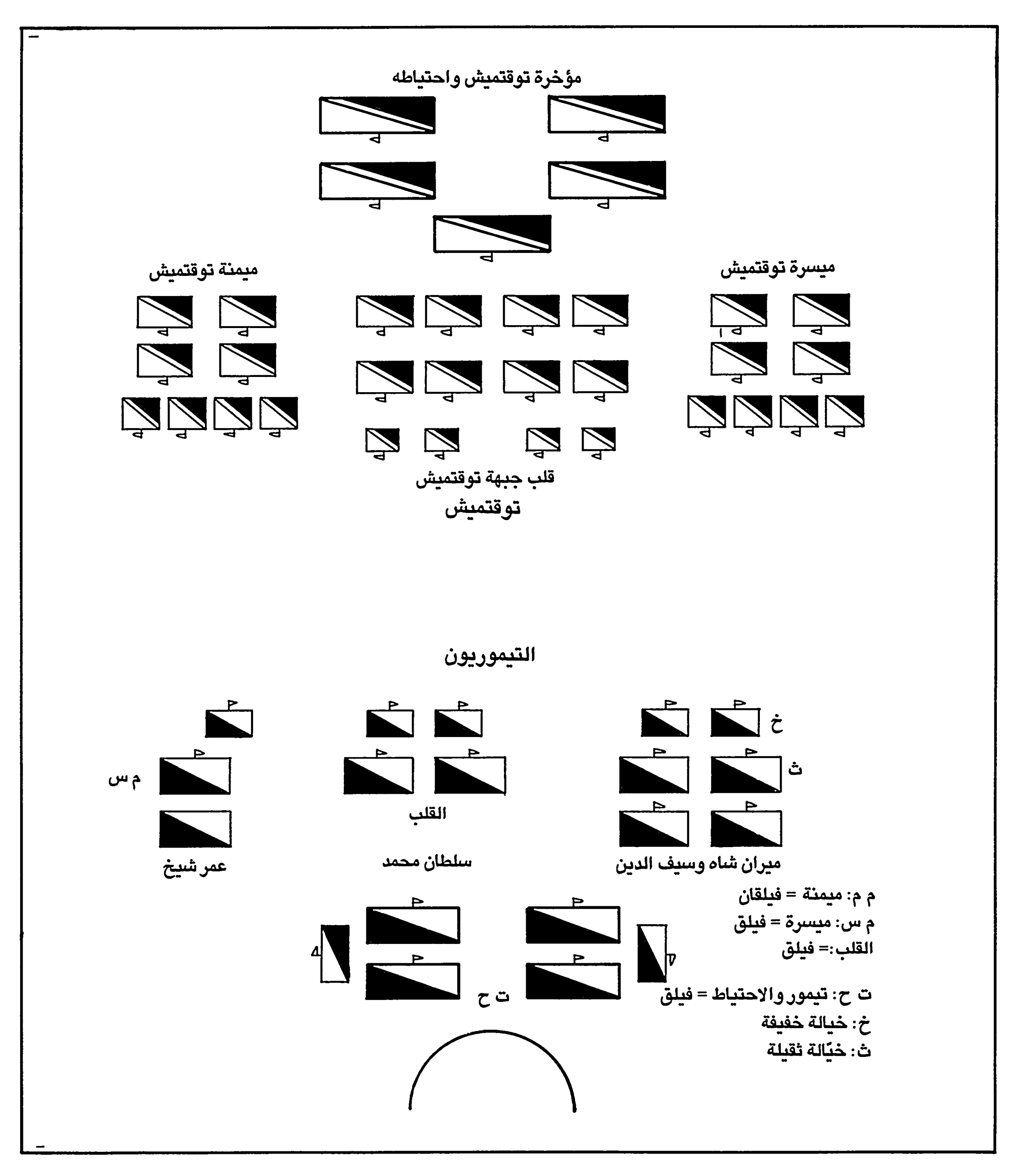
ترك تيمور خان الهوردة لمصيره ، وترك القسم الشمالي الشاسع من هذه الأمبراطورية تحت رحمة الأقدار . صحيح أنه عيّن ضابطاً مغولياً كخان على هذه المناطق ، لكن هذا التعيين لم يكن أكثر من مجرّد سلطة شكلية . والنتيجة أن توقتميش قد عاد ليجمع قواه من جديد.

إن سرعة انسحاب القوات التيمورية ساعدت الخان المغولي على استعادة نفوذه بعد مدة قصيرة ، ونجح في تجميع قوّاته المبعثرة. أجبر الأمراء الروس ، بعد سلسلة من الحروب والغارات ، على القدوم إلى بلاطه ، ومعهم الأموال والهدايا ، لتجديد ولائهم وتبعيتهم له . وقد خاض توقتميش ، خلال العامين التاليين ، ١٥ حرباً لبسط سيطرته التامة على أراضيه . وها هو ، بعد ثلاث سنوات على هزيمته في معركة كوندورتشا ، دائب على إزعاج الحدود التيمورية والإعتداء عليها ، حدود تقع الآن شمال بحر قزوين . وكتب إليه تيمور ساخطاً يقول:

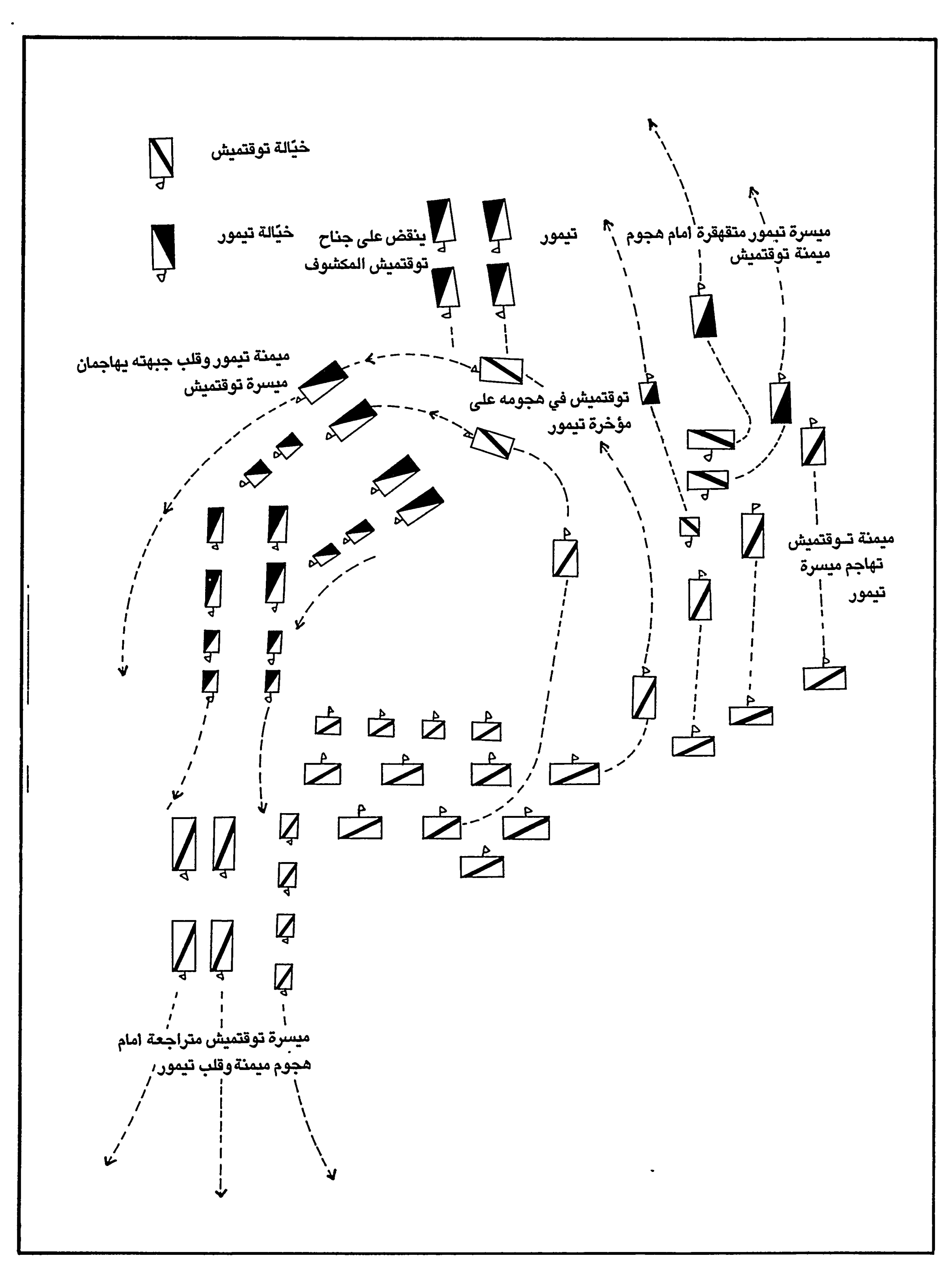
« ـ ما هو الشيطان الذي يركبك ويمنعك من البقاء ضمن حدودك؟ هل نسيت

الحرب الأخيرة؟ إنك مطّلع على قصص انتصاراتي ، وتعرف أن الحرب والسلام لدي سواء! . لقد ذقت طعم صداقتي وعداوتي ، فاختر وابعث لي عِلماً بأيّهما تختار؟!».

توقفت الحرب بين تيمور وتوقتميش أربعة أعوام . وقد وجد تيمور نفسه ، بعد هذه المدة ، مضطراً مرة أخرى إلى غزو بلاد الهوردة الذهبية ، عام ١٣٩٥م . وقد نشب هذه الحرب بغارة فجائية قام بها توقتميش وأوصل فيها تيمور إلى حافة الهزيمة.



التشكل المبدئي لمعركة كندورتشا، ١٩ حزيران ١٣٩١م



معركة كندورتشا، ١٩ حزيران ١٣٩١م.
التطور والنهاية

الفصل التاسع عشر

في إيران والعراق
٧٩٤ - ٧٩٨هـ - ١٣٩٢ - ١٣٩٥م

مراحل - أصفهان - شاه منصور - ثورة في طوس - طائفة الحروفية - مقتل شاه منصور - القضاء على آل المظفر - الزحف على العراق - الغارة على بغداد - أعمال تيمور في بغداد - احتلال تكريت - عودة أحمد إلى بغداد.

[١]
المرحلية

جرت عمليات تيمور في إيران على مرحلتين وقعتا بين غزوتيه لبلاد الهوردة الذهبية ، المرحلة الأولى من عام ١٣٩٢ إلى ١٣٩٥ ، والثانية بعد الغزوة الأخيرة لأمبراطورية توقتميش . وقد تغيّب تيمور بسبب ذلك مدة خمس سنوات . والمرحلة الثانية تجاوزت إيران إلى العراق وديار بكر وأرمينيا والقوقاز وجورجيا ، واعتمد فيها تيمور كثيراً على أولاده وأحفاده ، وكان ذلك إما لتقدمه في السنّ أو لأن العمليات الحربية كانت صغيرة ومحدودة ، ولا تتطلّب حضوره وإشرافه.

كان قد غزا إيران في نهاية عام ١٣٨٦م . وكان بحلول شتاء عام ١٣٨٧م قد وصل في زحفه إلى شيراز . وقد توقف هنا وقفل عائداً إلى ما وراء النهر عندما علم بغارة توقتميش على بلاده . وحالت هذه العودة دون بسط سيطرته التامة على إيران ، والقضاء على حكم المظفريين[١] في فارس وكرمان.

---

(١) سلالة فارسية أسسها شرف الدين مظفر، وحكمت مقاطعات فارس وكرمان والرستان في إيران (١٣٥٨ - ١٣٨٤م).

[٢]
أصفهان

في عام ١٣٨٦م ، كانت إيران ممالك موزّعة بين آل مظفر . وفي شتاء هذا العام جاء تيمور قادماً من الشمال ، على رأس جيش متمرِّس مؤلَّف من سبع فرق . كان يزحف على مهل في طريقه إلى أصفهان . وقد أصيب الطورانيون بالدهشة والعجب لروعة هذه المدينة وبهائها . . ساحات مقبّبة ، وشوارع مسقوفة مقنطرة ، وحوانيت مكتظّة على جسور . وكان ابن بطوطة قد مرَّ بالمدينة قبلهم ، وقال عنها:

« ـ إننا تجولنا بين الحدائق والجداول والقرى الجميلة ، على طريق تقوم على جانبيها أبراج الحمام . هذه مدينة كبيرة وجميلة ، رغم أنها قد عانت كثيراً من حروب الطوائف الدينية» .

كان تيمور يقترب من أصفهان وهو على استعداد للحرب ، دون أن يكون لديه ميل إلى ذلك . كان ناقماً على آل مظفر لأنهم حبسوا سفيراً له إليهم دون مبرر . وكان منذ سنين يتحرّىٰ أحوالهم ويتابع خلافاتهم ، وقد قرّر أخيراً أن ينحدر من مرتفعاته ليرى الأمور عن كثب .

خرج عظماء أصفهان إلى خارج المدينة للتسليم عليه . استقبلهم تيمور بترحاب ، وأجلسهم على بساطه ، وأنْعَم عليهم بهدايا . وجرى البحث بعدئذٍ في مصير أصفهان . قال تيمور:

«لن تمسَّ أرواح السكان ، ولن تتعرّض المدينة إلى الأذى في حال قيامها بدفع الفدية» . واتفق على فدية . فالمظفريون كانوا مُسلِّمين بأن جيشاً بمثل هذا الحجم ، وقد أتى من مكان بعيد ، لن يعود خالي الوفاض . طلبوا إرسال موفدينَ لاستلام المال ، وعيّن عن كل فرقة تيمورية مندوب لاستلام محلة معينة في المدينة . وعيّن على رأس هؤلاء المندوبين ضابط كبير للإشراف على سَيْر الأمور.

في اليوم التالي دخل تيمور أصفهان بموكب رسمي ، ليتطوّف على جواده في جاداتها الرئيسية ، ويعود بعدئذٍ إلى معسكره ، مخلفاً وراءه مفارز للسيطرة على أبواب المدينة .

كل شيء جرى بأمن ونظام طيلة ذلك النهار . وجاء الليل . وكان سبعون ألف محارب قد ساروا طيلة شهرين وأكثر ، دون أي شيء من ترفيه وتسلية ، وكانوا يتطلّعون

إلى أضواء أصفهان بنهم واشتياق . تباطأت مفارز المهمات الوظيفية في الأسواق ، وغادر المعسكرات كثير من الرفاق متوجهين إلى المدينة بشتى الأعذار ، وبأعداد متـزايدة ، ومقصدهم أماكن اللهو والشراب.

ما حدث بعد ذلك ، فمرويٌّ بصور مختلفة!.

أكثر ما يُروى أن جماعة من السكّان المتعنتين المتزمتين اجتمعوا بقيادة حداد. . وَدُقَّ طبل ، وتعالى صراخ ونداء استنفار:

« ـ هو ـ لا ، يا مسلمون!».

لدى سماع هذا النداء خرج الناس من بيوتهم ، وتجمّع الرعاع في الشوارع ، وابتدأ القتال على الفور ، بين هؤلاء الغوغاء وبين الجنود التيموريين ، الذين كانوا حتى ذلك الوقت مسالمين . تمكّن بعض من يتحلّون بالمسؤولية من السكّان ، في بعض محلاّت المدينة ، من حماية مبعوثي تيمور وجنودهم ، وقتل من كان على شاكلتهم بالسيف في محلات أخرى . والغوغاء ، بعد أن استهلّت سفك الدماء ، اندفعت مجنونـة تطلـب المزيد ، فنـظّفت الحارات والشـوارع من جنود تيمـور ، وانقضّت على الحرس عنـد الأبواب فقتلتهم وأغلقت البوابات.

في الصباح التالي ، عندما علم تيمور بما حدث ، انتابـه غضب شديـد عنيف . ويبدو أن حوالي ثلاثة آلاف جندي تيموري قد هلك ، ومن ضمنهم قائد كان أثيراً لدى تيمور ، وابناً للشيخ علي بهادور . أمر الفاتح بالزحف نحو الأسـوار للحال . وحـاول وجهاء الفرس ، الـذين كانـوا في معسكره ، أن يتـوسّطوا في الأمـر ، فلم يلقوا أُذنـاً صاغية . لقد لعبت الغوغاء لعبة الحرب ، وعليها الآن أن تحصد النتائج!.

اقتحم الطورانيون المدينة ، وأباحها تيمور لجنده ، وفـرض على كل جنـدي من جيشه بأن يأتي برأس فارسي . لم تمسّ بسوء تلك النواحي والمحلات ، من المدينة ، التي لم تشترك في أعمال الشغب والإخلال بالأمن ، وحصلت محاولات لإنقاذ الفقهاء والسادة الأشراف . أما في الأماكن الأخرى ، فقد طُورِد السكان في كل مكان . استمرت أعمال القتل طوال النهار . والبؤساء الذين استفادوا من ظلام الليل وهربوا إلى خارج الأسوار ، جرت مطاردتهم في الصباح التالي ، خلال الثلج ، وقُتلوا.

كثيـر من الطورانيين، ممن أعـرضوا عن الاشتـراك في المـذبحـة، اشتـروا رؤوسـاً من جنود طورانيين آخرين . كدّست الرؤوس المقطوعة عند الأسوار في بادىء الأمر ، ثم

وزعت على الشوارع الرئيسية على شكل أبراج . وقد هلك على هذا النحو سبعون ألفاً ويزيد من سكّان أصفهان . إنها مذبحة لم تكن قد خُطِّط لها من قبل . لقد رأى تيمور نفسه مضطراً للانتقام لموت جنوده ، لكن انتقامه كان فظيعاً وبعيداً عن كل توقّع ، وقد أخاف بهذا العمل أمراء عائلة مظفر ، فاستكانوا واستسلموا ، باستثناء منصور ، الذي خرج لاجئاً إلى الجبال.

دفعت شيراز فدية ، وكذلك فعلت مدن أخرى . أُدرج اسم تيمور في خطبة صلاة الجمعة كملك ، وأُعطي لكل أمير من آل مظفر شيء من السلطة ، بموجب وثيقة موقعة بالدمغة ، أي مختومة بالشمع الأحمر . صاروا حكّاماً عنده ، وصار هو سيِّدهم المطاع . واكتشف أن الإيرانيين يعانون من ضرائب باهظة ، فأصلح من نظام ذلك.

[٣]
شاه منصور

السرعة التي غادر بها تيمور إيران ، عند سماعه باجتياح توقتميش لبلاد ما وراء النهر ، عام ١٣٨٧م ، والإشاعات التي انطلقت حول انهزامه أمام المغِيرين الذهبيين ، شجعت حكّام إيران على التنكّر للحكم التيموري . وقد خرج شاه منصور المظفري من معقله الجبلي في خوزستان ، ونجح فبسط نفوذه وفرض سلطته على الأمراء المظفريِّين الآخرين.

[٤]
ثورة في طوس

اندلعت في هذه الأونة ثورة في طوس ، بقيادة حاجي بك جاوني قرباني ، عامل تيمور على المدينة ، وكان على اتصال بخان الهوردة الذهبية الذي ضُرِبت النقود باسمه وتُليت خطبة الجمعة باسمه كذلك . لم تنجح القوات التيمورية المحلية ، في بادىء الأمر ، بالقضاء على هذه الثورة ، ولكن بعد أن نجح تيمور في ردّ جحافل الهوردة عن بلاده عند نهر سير داريا ، استطاع ميران شاه حالئذٍ أن يقتحم طوس ، في حزيران عام ١٣٨٩م ، فنهب المدينة ، وقتل من سكّانها عشرة آلاف ، وقبض على حاجي بك.

[٥]
في استراباد وإيران الغربية

كان أول عمل لتيمور ، بعد عودته من غزوته الأولى لأمبراطورية توقتميش وعبوره لنهر أموداريا ، في آب ١٣٩٢م ، هو قتال طائفة الحروفية[1] . وبعد أن انتهى من ذلك توجّه نحو الغرب ، ماراً بمدن إيران وخراسان الشمالية ، بينما كان أولاده وأحفاده يجوبون مناطق إيران المحتلّة لإعادة تثبيت السلطة التيمورية فيها.

[٦]
أعمال شاه منصور ومقتله

استمرت الخلافات واشتدت بين أفراد العائلة المظفرية . وقد استغلّ منصور شاه ، حاكم تستر ، انشغال تيمور في الحرب مع الهوردة الذهبية ، ففرض هيمنته على الأسرة ، واعتقل ابن عمّه زين العابدين الوارِث الشرعي لملك المظفريين ، وضمّ إليه أملاك أقربائه في شيراز وأصفهان وأبرقوه . وفرّ زين العابدين من سجنه ، فجمع أعوانه ووقعت بينه وبين منصور معركة بالقرب من الري ، فهزم زين العابدين ، وأُسر للمرة الثانية ، وسملت عيناه ، وأُعيد إلى السجن . واستقرّ الحكم لشاه منصور ، واتخذ شيراز عاصمة له ، وبقي فيها مدة أربع سنوات ، إلى أن ظهرت قوّات تيمور من جديد ، عام ١٣٩٢م .

حشد تيمور قوّاته عند تستر ، في شباط عام ١٣٩٣م . ومرّ في طريقه إلى العاصمة المظفرية ، شيراز ، بقلعة «سفيد» الحصينة ، فاقتحمتها قوّاته وأنقذت زين العابدين المعتقل فيها . وتابع تيمور طريقه.

على مقربة من مدينة باغستان ، في جوار شيراز ، وقع الاصطدام الأول بين قوّات تيمور وقوّات شاه منصور . وقام شاه منصور بغارة ليلية على معسكر تيمور ، فتعرّض هذا في هذه الغارة إلى خطر عظيم ، ولحقت بجنده خسائر كبيرة . ولكن أحد رجال ابن

---

(١) عقيدة صوفية مغالية تقوم على أن الأصل في معرفة اللّه هو اللفظ، ويعبر عن المعاني بالحروف، وأصول العقيدة من قِيَم الحروف العددية. مؤسِّس العقيدة هو فضل اللّه الحروفي (١٣٤٠ - ١٤٠٢م)، وقد أعلن انه خليفة اللّه، وترك ثلاثة كتب هي «جاويدان نامه» ومجموعتي شعر باسم «مجلة نامه» و «عرش نامه».

تيمور ، شاه رخ ، نجح فأصاب شاه منصور بضربة قاتلة ، فوقع وقطع رأسه ، وبذلك نجا الفاتح الطوراني من سيف خصمه.

ضرب تيمور الحصار على شيراز ، فسارع أهلها إلى الاستسلام بعد مقتل منصور ، ونزلوا عند شروط تيمور . وصُودِرت مخلّفات شاه منصور من الأموال والنفائس والأقمشة ووُزِّعت على الجند . وسارع الحكّام المظفريون الآخرون إلى تقديم فروض الطاعة ، حاملين معهم الأموال والهدايا . وأمضى تيمور شهراً في جوار شيراز ، للراحة والاستجمام.

[٧]
القضاء على آل المظفر

بناء على ما زُعم من شكاوى العلماء والأهالي من أعمال آل المظفر القبيحة ، فقد لجأ تيمور ، في أيّار ١٣٩٣م ، إلى اعتقال جميع أفراد هذه الأسرة ، بما في ذلك الذين جاءوا إليه خاضعين مستسلمين . صُودِرت أملاكهم ، وأُرسل الأحياء منهم إلى سمرقند . وعاد ، بعد خمسة أيام من ذلك ، في ٢١ أيّار ١٣٩٣م ، فأمر بقتلهم دون استثناء . وهكذا صُفِّي آل المظفر وقُضي على نفوذهم بصورة كلية . وكان من سوء حظهم أنهم لم يلتفوا حول شاه منصور ويعملوا بنصائحه وتحت قيادته.

تابع تيمور طريقه شمالاً ، ونزل في ضواحي همدان مدة شهرين ونصف . وكان المكان مُنْتَجَعاً جميلاً ، حشد فيه تيمور جميع قوّاته التي كانت معه . وأخذ ، من هذا المقرّ ، بتوجيه حملات إلى بلاد الكرج والتركمان ، حيث كان الأهالي يتعرّضون للقوافل والمسافرين ، عبر الطرق الجبلية المارّة بهذه البلاد.

[٨]
الزحف على العراق

كان أحمد بن أويس الجلائري من أصل مغولي ، ويحكم في تبريز وبغداد . وكان تيمور يعتبر نفسه وريثاً للدولة الإيلخانية التي كانت تحكم في إيران وكذلك في العراق حيث يحكم الجلائريون الآن . وكان أحمد جلائر قد أهمل عرضاً من شاه ولي ، حاكم مازندران ، للتحالف والوقوف معاً في وجه تيمور ، كما أهمل عرضاً مماثِلاً من قِبل توقتميش حمله قاضي العاصمة «بركه سراي» ، وأيّده توقتميش بتوجيه خمسين ألف

محارب عسكروا أمام دربند ، في أذربيجان.

في عام ١٣٨٧م ، نجح تيمور في الاستيلاء على تبريز ، ثاني المدن الرئيسية في أملاك الجلائريين ، وسكت أحمد جلائر على هذا الاعتداء ، مُكتفياً بالإنسحاب إلى المدينة الرئيسية الثانية ، بغداد . ثم تحالف مع قره محمد ، زعيم قبيلة «القره ـ قيونلو» التركمانية ، ومع جماعة من الأعراب لقتال تيمور.

كانت بغداد واقعة على طريق زحف التيموريين ، وكانت هذه المدينة قد فقدت أهميّتها التاريخية منذ أن دمّرها هولاكو ، وهي ترقد اليوم جامدة وضخمة على شاطىء دجلة ، مكتظّة بالحجّاج والتجّار الموسرين . كانت ملأى ، كما يقول ابن جبير ، بآثار الماضي وأشباح السنوات الخوالي ، كحسناء مضىٰ شبابها وانقضىٰ . وكانت تبدو أيضاً ، كآمرأة مسنّة في غفوة على ضفاف نهر كان آية من الحسن والجمال.

كان السلطان أحمد مصرّاً على الادعاء بأنه حامي المؤمنين . وكانت لا تزال تُرى ، في المسجد الكبير ، ثياب العبّاسيين السوداء . ولكن الحامي الحقيقي لبغداد كان سلطان المماليك في مصر . وقد عُرف أحمد بسوء أخلاقه ، وتهتكه ومجاهرته بالفجور والفساد ، يُضاف إلى ذلك إساءته الحكم في بغداد . وقد نكّل بإخوته ، وأساء معاملة قوّاده وأمرائه ، وبالغ في ظلم الرعية . وقد دفعت هذه الأعمال سكّان بغداد إلى مكاتبة تيمور مستنجدين به ، ومحرِّضين له على القدوم إليهم.

كان أحمد يغذِّي نفسه بالشكوك ، وأهواءه بالقسوة والفظاعة . كان يخاف على كنوزه المكدّسة في صناديقه ، ويخاف أكثر من ذلك من مماليكه الذين يحرسونها . وقد أرسل عيونه وكشّافته شرقاً، حيث كان الغبار يتدوم فوق السهل ، ليأتوه بأخبار تيمور ، ووجّه ، في الوقت ذاته ، مفتي بغداد الأكبر كرسول سلام إلى الفاتح الأعرج ، مع هدايا نفيسة . وأرسل في ذات الوقت هدايا مماثلة إلى حليفه عند الحاجة ، قره يوسف . وهناك قول بأن تيمور قد أعاد المفتي مع كلام لطيف . إنه لم يكن راغباً في هدايا أحمد . كان يريد استسلام بغداد ، واسمه مقروءاً في الصلاة ومضروباً على النقود.

كان أحمد ، في هذه الأثناء ، يتّخذ تدابيره من أجل السلامة . استمر على الاتصال مع حلفائه التركمان ومع المماليك في دمشق ، واختار بعناية جماعة من خواصه مع خيول سريعة ، كحرس له ولعائلته وكنوزه في حالة لجوئه إلى الفرار . وعلى حدوده ، على مسافة ١٤٠ كيلومتراً ، وضع مراقبين ، مع حمام زاجل ، لإعلامه بأية إشارة تنبىء بتقرّب تيمور.

[٩]
الإغارة على بغداد

كان جواسيس تيمور يخبرونه بحركات أحمد واستعدادته . وقد نجح باكتساب كشافة أحمد وضمهم إلى جانبه ، وأصبح سلطان بغداد ، من جراء ذلك ، على جهل تام بأخبار عدوه ، في الوقت الذي كان تيمور يتلقّى أخبار أحمد من جواسيسه في بغداد ، بواسطة الحمام الزاجل . ولما عزم على السير إلى بغداد ، بدأ أولاً بإفراز تومان (فرقة) للتحرش بالتركمان وإشغالهم . ثم تحرّك هو نفسه كما لو كان في نيّته الانضمام إلى هذه الفرقة.

تحرك تيمور من جوار همدان ، سالكاً طريقاً جديدة غير معروفة ، باتجاه الشمال ، ليدخل أرض العراق من خلال معابر جبلية وعرة ضيّقة تفضي إلى منطقة شهرزور، قرب المجرى الأعلى لنهر الزاب الأسفل . كان يريد الوصول إلى بغداد قبل أن تسبقه أخبار سيره إليها ، ولذا كان جنده يسير ليلاً على أضواء المشاعل . وقد اتجه من شهرزور جنوباً إلى بغداد ، على رأس فرقة من خيرة جنده ، مع أحسن الخيول المتوفرة ، ومع كل جندي حصان احتياط ، وراح يقطع ١٤٠ كيلو متراً عبر السهل ، دون ترجّل ، إلى أن ظهر أمام الأسوار ، مفاجئاً سكان المدينة وحاكمها . وقد عبر الجند دجلة على قرب منفوخة ، والخيل تسبح إلى جانبهم.

كان السلطان أحمد جاهزاً للفرار . فلما أبصر بكشافة التيموريين على مرمى سهم من أسوار عاصمته ، بادر عندئذ إلى عبور النهر ، ودمّر جسر القوارب وراءه . أسرعت خيالة تيمور عدواً نحو القصور التي كانت فيما مضى سكناً للخلفاء . ولما تأكّدوا من هرب السلطان عمدوا إلى مطاردته.

كان أحمد يسبقهم ببضع ساعات ، وابتدأ سباق باتجاه الصحراء السورية . تعقب التيموريون طريدتهم يومين وليلة ، منطلقين بخيلهم على أرض مستنقعات جافة ، إلى أن وصلوا إلى القصب على ضفاف الفرات . وهنا كان عليهم أن يبحثوا عن مراكب نهرية ، وأن يجدفوا عبر الماء ، والخيل سابحة إلى جوانبهم . وكانوا قد لحقوا بأحمد وكادوا يقبضون عليه ، لأنهم وقعوا على أمتعته الخاصة وخيول قافلته المحملة دون حراسة . واستمرت المطاردة ، وحدثت اشتباكات عديدة بين مؤخرة الهاربين وطليعة المطاردين . وكان أحمد ينظِّف القرى والدساكر ومخيمات الأعراب على طريقة من كل خيل صالحة للركوب ، ولذا فقد كانت مطاياه دائماً في حالة حسنة ، بينما كان عدد

المطاردين يتناقص باضطراد ، لتعب الخيل وعدم الحصول على خيل بديلة . وأخيراً افتُقد كل أثر للهاربين ، ووجد التيموريون أنفسهم في حالة العطش الشديد ، وخيولهم منهكة ، فكفوا عن المطاردة مرغمين ، وراحوا يبحثون عن الماء.

هكذا وصل أحمد إلى دمشق حياً ، لكن نسـاءه وأولاده وقعوا في قبضة التيموريين.

[١٠]
أعمال تيمور في بغداد

بعد هروب أحمد ، قام سكّان بغداد أنفسهم بفتح أبواب المدينة للقوّات الغازية ، ودفعوا أموال الأمان ، واعترفوا بسيادة تيمور . قضىٰ الفاتح شهرين في بغداد ، من ٢١ آب إلى ٢٢ تشرين أول عام ١٣٩٣م . ويتحدث بعض مؤرِّخي الشام ومصر عن قتل وهتك أعراض ومصادرة أموال حتى عمّ الفقر جميع الناس . ويقولون إن تيمور صادر أموال سكان بغداد ثلاث مرات ، وقتل سبعين شخصاً من علماء المدينة وأعيانها . أما المؤرِّخون التيموريون فيقولون إن تيمور لم يصادر إلّا أموال أحمد وذخائره ونفائسه ، ولم يفرض على السكان غير أموال الأمان . ولما كان تعاطي الخمرة في بغداد شائعاً ، فقد أمر بإلقـاء جميع الخمـور في دجلة ، وإغلاق بيـوت الدعـارة التي كانت منتشـرة في المدينة ، ونقل أرباب الحرف والفنون والموسيقى والمنجمين والمهندسين المعماريين إلى سمرقند . ويقول ابن عربشاه إن تيمور سلب المدينة ولكنه لم يخربها ، ويؤكِّد ذلك أنه خلال إقامته الطويلة في بغداد ، فإن عدد القتلى لم يتجاوز ٣٠٠٠ قتيل ، وفي هذا دليل على أن الفاتح قد دخل بغداد دون قتال.

مضت العاصفة ، تاركة السلطان أحمد فاقداً للشرف والمتاع تقريباً ، وقد احتضنه سلطان المماليك في القاهرة ، وأعطاه نساء جديدات وعبيداً . وكان أديباً ، وقد نظم هذا البيت من الشعر يرثي سوء حظّه:

يقـولـون تيمـور يعـرج محـاربـاً أمـا أنـا فـلـم أعـرج هـاربـاً

[١١]
احتلال تكريت

عيّن الغزاة حاكماً على بغداد ، وانسحبوا فجأة كما جاءوا . وكانت تكريت على طريق انسحابهم . وكانت للمدينة قلعة حصينة تقوم على تلة مرتفعة . وكان السكان يتعرّضون بالأذى إلى قوافل التجّار والمسافرين . وقد حُوصِرت المدينة مدة ٢٥ يوماً ، ونقبت الأسوار ، واحتلت تكريت وقلعتها عنوة ، فهدم تيمور أسوارها وأحرقها على من فيها ، وأقام عدداً من الأبراج من رؤوس القتلى من سكّان المدينة .

[١٢]
عودة أحمد إلى بغداد

بعث تيمور ، بعد بغداد ، برُسل إلى القاهرة ، يحملون رسالة شفوية إلى سلطان المماليك . قال هؤلاء الرُّسل :

« ـ في أيام جنكيزخان ، تَحَارب أجداد مولانا مع أجدادكم ، ثم عقد الصلح وقام السلام بينهم . وبعدئذٍ صارت إيران جميعها فريسة للفوضى والحرب الأهلية . وقد أعاد مولانا الشاه السلام إلى إيران ، التي تقوم حدودها متاخمة لحدودكم . وبناء على ذلك فقد أرسلنا سفراء إليكم ، عارضين أن يتنقّل التجّار بيننا وبينكم بحريّة ، وأن لا تكون بعد الآن نزاعات وخصومات . والحمد للّه الذي هو وحده السيِّد على جميع الممالك» .

قتل سلطان مصر رُسل تيمور واغتبط بفعلته . وتيمور ، باستيلائه على بغداد ، صار قريباً جداً من الممالك الغربية . وتحركت قوات المماليك تحسباً لهذا الخطر . وقد وجد سلطان مصر ، في تلك اللحظة ، حليفاً مخيفاً وغير متوقع . فقد كان جيش تيمور قد تجاوز حدوده إلى بعض أراضي الأناضول ، مما أثار غضب السلطان العثماني ، بايزيد ، ضد تيمور . وقد أدّىٰ ذلك إلى قيام تحالف وثيق بين سلطان المماليك وسلطان الأتراك الغربيين ، وبدا وكأن زحف تيمور غرباً قد انتهى . وقرر السلطانان تأديب تيمور ، ورأيَا أن لا شيء يعترض سبيل جيوشهما حتى الفرات وبحر قزوين ، وأن جناحي الجيشين محميين شمالاً بالتركمان وجنوباً بالعرب السوريين .

زحف الأتراك العثمانيون وتقدموا بنجاح حتى الموصل . وزحف جيش المماليك على دجلة ، ودخل بغداد ، آتياً معه بالسلطان الهارب أحمد بن عويس ليعيده إلى

قصره ، لكن ليحكم هذه المرة باسم مصر . وعندما انسحب المماليك من بغداد ، والأتراك من الموصل ، مرتاحين إلى ما أنجزوه ، بقي أحمد وحيداً ليتدبر أموره بنفسه . وكان تيمور ينوي أن يرد على هجوم هذا التحالف المصري العثماني ، بالإغارة على مصر وبلاد الشام ، لكنه اضطر إلى تغيير خططه لورود أخبار عن تحرّكات الهوردة الذهبية على حدود أذربيجان.

أرسل السلطان أحمد جواسيسه ليأتوه بمعلومات عن تيمور . وعاد هؤلاء ، من سمرقند ، بروايات غريبة . قالوا:

« ـ لقد رأينا ما رأينا بأمّ العين . . المدينة ليست كما كانت من قبل . إنها الآن مدينة قبب زرقاء وأفنية من رخام . لقد شاهدنا مولى التيموريين عند مبنى إحدى السرايات . كان غير مرتاح إلى عمل البنّائين ، وأمر بهدم البناء . ومن ثم ، ولمدة عشرين يوماً ، كان يأتي بنفسه يومياً ، راكباً على حصانه ، ليراقب ـ واللّه شاهد على أن ما حدث هو كما نقول ـ لقد أعيد تشييد القصر في ظرف عشرين يوماً ، بتمامه حتى آخر حجر وآخر عقد وآخر قرميدة في القبب ! . العقد بعلو ٢٤ رمحاً ، وباستطاعة خمسين رجلاً أن يصطفّوا في عرضه! . ».

سأل السلطان أحمد:

ـ هل من مزيد؟

ـ إنه يجلس إلى فقهاء السنة والعلويين ، و. . .

ـ ماذا قال عنّي؟ ماذا يفعل؟

ـ لم نسمع منه شيئاً عن سموّك ، وهو الآن في طريقه إلى غزو الهند.

لم يستطع أحمد أن يشعر بالراحة ، رغم علمه بأن تيمور بعيد عنه الآن بحوالي ١٧٠٠ كيلومتراً وأزود . إنه يتذكّر هروبه المسعور فوق الصحاري والقفار ، ورجال تيمور على أعقابه . أخذ يشكّ في وزرائه ومستشاريه ، وعمد إلى قتل بعضهم بيده . نقل مقرّه إلى قصر النساء المهجور تقريباً ، وأحاط نفسه بمماليك قوقازيين وسيّافة سود . وأعدَّ ، سراً وخفية ، ثمانية خيول قوية أصيلة في إسطبل عبر دجلة ، وفي حراسة قلة من أتباع كانوا يحوزون ثقته . وكان كل ليلة يعبر النهر متنكراً إلى حيث كانت خيوله تنتظر . وكان ذلك بمثابة تجربة للاطمئنان إلى سلامة طريقه وقوة تنكره . وبينما هو على هذه الحال من الحراسة والعزلة والتخوّف ، وإذ برسالة تصله مطوية ومكتوبة بخط فارسي

جميل . كانت مديحاً من نظم خالد الذكر حافظ وخطه ، وكان السلطان أحمد قد دعاه إلى زيارته في بغداد منذ وقت طويل . وقال حافظ في رسالته :

أحمد ، يا ابن سلطان عويس.
الملك وابن الملك.
عاشق الأيّام المترعة خمراً.
حبّذا لو يأتيك الحظ بشيراً.
بمجد جنكيز وعرش الأكاسرة! .

مضى الوقت ، وبدأ أحمد يشعر بالأمان ولكن إلى حين ! . لقد أفاق يوماً ، ليباغت بتحطيم آماله وتقوض هدوئه وراحة عزلته بضجيج طبل كبير . . لقد عاد تيمور ، وهو الآن على أبواب بغداد! .

الفصل العشرون

الجولة الثانية في ديار الهوردة الذهبية

١٣٩٥م - ١٣٩٦م

أسباب هذه الحملة - معركة نهر اترك - المطاردة واستغلال النصر - الهوردة الذهبية بعد الحرب - نتائج حروب تيمور في هذه البلاد.

أسباب الحملة

نجح توقتميش ، بعد هروبه المخزي في معركة كوندورتشا ، في ١٩ حزيران عام ١٣٩١م ، باستعادة سيطرته التامة على جميع أراضيه ، وأخذ يستعد لجولة ثانية مع تيمور ، منذ أن انسحب هذا عائداً إلى ما وراء النهر بعد المعركة المذكورة . وقد تحالف توقتميش في حربه مع تيمور مع المماليك في مصر في عهد السلطان برقوق ، وكان المماليك قد ساعدوا السلطان أحمد بن عويس على استعادة عرشه في بغداد التي كان قد طرد منها من قبل تيمور . ويعكس هذا الوضع مدى اضطراب العلاقات الدولية في غرب العالم الإسلامي في ذلك الزمن.

كان تيمور قد علم بالتحالف الذي عقد بين خان الهوردة الذهبية ومماليك مصر وأحمد بن عويس الجلائري ، ولذا أجرى تعديلاً على خططه بدءاً بصرف النظر ولو مؤقتاً عن التحرك إلى بلاد الشام كما كان ينوي من قبل . وقد تحاشى بعد خروجه من بغداد واقترابه من حدود دولة المماليك في بلاد الشام توسيع نطاق الاشتباك الذي وقع بين طلائع من قوّاته ودوريات مملوكية في ضواحي الرها ، إحدى نقاط الحدود في الجزيرة العليا ، مفضلاً أن ينقل عملياته الحربية إلى الشمال ، حيث كان يتوقع أن يقوم توقتميش بعملية عسكرية مباغتة ، كما كان دأبه سابقاً . وبناءً على ذلك فقد مضى يقاتل

في بلاد الكرج القريبة من بلاد الهوردة الذهبية[1] ، بانتظار ما سوف ينجلي عنه الموقف.

كـان توقتميش ، من ناحيته ، مصرّاً على القول بأن منطقة أذربيجان ، التي ألحقها تيمور حديثاً بأملاكه ، هي من الأملاك السابقة لحكّام الهوردة الذهبية ، وبأنه عازم على بذل كل جهد في سبيل استرجاعها . وقد رأى أن غارة يقوم بها على هذه المنـطقة ، وجيوش تيمور على ما هي عليه الآن من تعب وإنهاك ، بعد حروبها في إيران والعراق وبلاد الكرج[2] ، سوف تمكّنه من تحقيق أمنيته في استعادة أذربيجان ، فيفقد تيمـور بخسارتها مزية سرعة التحرّك والتنقل من وإلى ما وراء النهر، كما فعل عام ١٣٨٧م. أضف إلى ذلك أنه بوجود قوّات توقتميش في أذربيجان ، فإن بلاد ما وراء النهر تصير تحت رحمة خان الهوردة الذهبية.

لـذلك ، وعندما حاولت قوّات توقتميش الاقتراب من أذربيجان عبر بوّابة دربند ، في تشرين ثاني عام ١٣٩٤م ، فإن القوّات ، التي أرسلها تيمور وهو في ضواحي تفليس في بلاد الكرج ، نجحت في شمال أذربيجان بالتصدي للقوّات المُغِيرة . ولما وصل تيمور ، في إثر طلائعه ، إلى ضفاف نهر «كـر» في شروان ، كان توقتميش قد قفل راجعاً عبر بوّابة دربند.

[٢]
معركة نهر ترك

رأى تيمور ، وهو في شمال أذربيجان ، في منطقة شروان ، أن يرد على تحرش خان الهوردة الذهبية بضربة تستهدف عاصمته بركه سراي ، مستفيداً من وجوده قـريباً منها ، ومن إمكان الوصول إليها دون أن يكون مضطراً إلى عبور الصحاري والقفار التي عبرها في حملته السابقة ، والتي استنفدت منه ومن قوّاته جهداً كبيراً . لكنه لم يتحرك على الفور ، بل أقام ينتظر ، في منتجع شروان ، انقضاء شتاء عام ١٣٩٤ - ١٣٩٥م ، حاصلاً من وراء ذلك على مزيد من الراحة والاستجمام والاستعداد للمعركة القادمة . وأرسل في الوقت عينه يطلب من سمرقند أن تبعث إليه بقوّات جديدة.

مـع إطلالة الربيع ، في آخر آذار عام ١٣٩٥ ، بدأ تيمور حركته إلى الشمـال .

---

(١) بعضهم يشير إلى بلاد الهوردة الذهبية . . ببلادالكيبتشاق، وإلى أقوامها بالكيبتشاق، أي سكان الصحراء.
(٢) جورجيا.

وحاول توقتميش ، كما فعل في المرة الأولى ، أن يثني تيمور عن عزمه عن غزو بلاده ، بتوجيه رسالة إليه ، بعبارات منمّقة ، يعبّر فيها عن ندمه ، وينسب ما وقع منه ضد تيمور إلى عناد أمرائه وإفسادهم.

التقى تيمور ، بعد خروجه بقوّاته من بوابة دربند ، بجيوش توقتميش على ضفاف نهر ترك . ودارت هنا ، في ١٦ نيسان ١٣٩٥م ، معركة كانت فاصلة بين الفريقين . ولم يسبق لتيمور ، في أية معركة سالفة ، أن تعرّض إلى الهزيمة والقتل ، كما تعرّض في هذه المعركة . وتفصيل ذلك أن ميسرة تيمور تعرّضت إلى ضغط متزايد من العدو ، فأمر عدداً من فرق القلب ، حيث كان موجوداً ، بالتوجه لتخفيف الضغط عن ذلك الجناح . وحصلت لبعض الوقت ثغرة ، فاستغلّ توقتميش الفرصة ، واستطاع على رأس بعض قوّاته أن يشقّ طريقه باتجاه تيمور ، في غفلة عن حرّاسه المشغولين بالقتال . كان تيمور في ذلك التاريخ في الثانية والستين من عمره ، وما شعر إلّا وهو معزول ومطوّق يُهاجم من كل جانب ، وقد انقصف رمحه ، وكُسِر سيفه ، وأدركه الأمير شيخ نور الدين وبعض رجاله فترجّلوا وشكّلوا حلقة حوله . وجاء نور الدين بثلاث عربات من تلك التي استعملها توقتميش في هجومه الصاعق ، فجعل منها نوعاً من حاجز حائل دون وصول الأعداء إليه . وأخيراً استطاع المدافعون ومن لحق بهم من القِطعات التيمورية الأخرى أن يصدّوا الهجوم ويردّوا توقتميش على أعقابه ، في الوقت الذي كان فيه القتال على أشدّه في كل جزء من ساحة المعركة . وقد جرح في هذه المعركة ابن تيمور ميران شاه والأمير سيف الدين.

كانت معركة ضارية . وتحوّل ميدان القتال إلى مذبحة جماعية . وكانت خسائر توقتميش جسيمة . ولما يئس من إحراز النصر بعد فشل محاولته في الوصول إلى تيمور وقتله ، عمد فانسحب إلى الغابات الشمالية ، وانفرط جيشه وتبعثرت قبائله ، وانطلقت مهاجرة بجملتها ، بعضها إلى القرم ، وبعضها إلى أدريانوبل وهنغاريا ، وانضمّ كثير منها إلى تيمور.

[٣] المطاردة واستغلال النصر

سار تيمور ، على أعقاب العدو ، حتى نهر كورا ، حيث كان يقع معسكر توقتميش ، فاستولى عليه وكان مليئاً بالغنائم ، وتابع المطاردة إلى الشمال ، عبر وادي الفولغا ، دون أن يتمكن من إدراك خصمه.

وجد توقتميش ، في غابات البلغار ، على ضفاف نهر كاما ، مخبأ أميناً حامياً له من تعقب أعدائه . واكتفى التيموريون باجتياح المناطق التي وصلوا إليها ، ثم عادوا أدراجهم جنوباً ، حيث كانت قوات تيمورية أخرى عاملة على تنظيف المناطق من جند توقتميش وأنصاره.

أما تيمور ، مع كوكبة قواته ، فقد أمضى فترة استراحة واستجمام على ضفاف نهر كورا ، ثم تحرك عقيئذ شمالاً ، وتقدم في الحوض الأعلى لنهر الدون ، وصارت بلاد الهوردة الذهبية الواسعة ، حتى نهر دنيبر ، تحت حكمه.

في هذه الأثناء ، كان ابنه ميران شاه يتابع اجتياحه للجناح الغربي لامبراطورية توقتميش ، فأغار على منطقة قراشو (أوكرانيا الحالية) ، واستولى على عاصمتها شهر - سراي ، ووصل حتى الحدود البولندية ، ثم قفل راجعاً ليلتحق بقوات أبيه على مقربة من موسكو ، مثقلاً بأحمال الغنائم ، وجاراً معه قوافل الأسرى والسبايا . وهناك اختلاف بين المؤرخين عند هذه النقطة ، فبعضهم يقول إن تيمور دخل موسكو ونهبها ، والبعض الآخر يقول إنه غادر ضواحي موسكو مسرعاً ، متوجهاً إلى إيران للقضاء على ثورة قامت هناك . وهناك قول بأنه لم يكن هنالك ، في موسكو وضواحيها ، ما يغري بمتابعة الزحف في ذلك الاتجاه ، ولذلك فضل تيمور أن يتجه بقواته إلى الجنوب ، نحو المستعمرات التجارية الإيطالية الغنية في القرم ، قبل أن يحل برد الشتاء القاسي.

أما سكّان موسكو ، فقد راحوا نهباً للهلع والذعر عندما تحركت أعلام تيمور على ضفاف نهر الدون . وقد استعد حاكم المدينة ، الدوق الأكبر ، وخرج بجيشه إلى الميدان ، وهو فاقد الأمل بالنجاح . وأرسلت زحافات إلى فيشيكورود للإتيان بالصورة القديمة للعذراء . وجيء بالصورة ، وجرى سحبها على الزحّافة ، في احتفال مهيب ، إلى موسكو بين صفوف من الناس الركّع ، الصارخين تضرعاً عند مرورها:

« - يا أم الإله! . انقذي روسيا! » . وإلى هذه العذراء يعزو الروس خلاصهم . فقد

غيّر تيمور وجهته عند الدون . وكما قلنا فإنه لا يُعرف بالضبط لماذا فعل ذلك . وقد نجت موسكو ، ولكنها خسرت جميع المستوطنات الأوروبية القائمة على شواطئ بحر أزوف ، والتي كانت مشغولة بجنود بندقيين وجنويين ولتوانيين وباسك ؛ فقد ذهبوا جميعاً طعماً لسيف تيمور.

بتاريخ ٢٦ آب ١٣٩٥م ، توجّه تيمور نحو المستعمرة الجنوية تانا ، على ساحل بحر أزوف ، بالقرب من مصبّ الدون ، وكانت مستودعاً للبضائع الآتية من مصر وفارس وإيطاليا واسبانيا . وقد أغار على هذه المدينة ، بعد أن وعدها بالأمان ، فقتل سكّانها غير المسلمين باسم الجهاد ، وترك المدينة طعماً للنيران.

تابع زحفه بعد ذلك ، عبر سفوح جبال القوقاز ، قاضياً على كل مقاومة قد اعترضته . ومن ثم عاد إلى الاتجاه نحو الشمال من جديد ، فحاصر مدينة حاجي ترخان (استراخان الحالية) الواقعة على مصبّ نهر الفولغا في بحر الخزر (قزوين) ، وسقطت المدينة بيده ، وساق جميع سكّانها بعيداً عن المدينة التي كانت تحترق على مرأى من هؤلاء السكّان.

عاود تيمور سيره على ضفاف الفولغا ، إلى مدينة بركه سراي ، عاصمة الهوردة الذهبية . وكانت تدافع عنها قوّات مملوكية وكيبتشاقية . وتمكّن الفاتح من احتلال المدينة ، فطرد سكّانها من حمى مدينتهم ليهلكوا في برد الشتاء وزمهريره ، وليجعل من المدينة مشعلاً ملتهباً من الأبنية الخشبية . وكان ذلك بمثابة ردّ على اعتداء توقتميش ، قبل سبعة أعوام ، على مدينة زنجير سراي ، في بلاد ما وراء النهر . وقد دمّر تيمور ، هذه المرة ، كل مدينة معادية وُجدت على طريق زحفه.

كانت القوّات المملوكية ، التي اشتركت في الدفاع عن بركه سراي ، بإمرة قائد يدعى طولو ، وقد فرّ هذا القائد ، بعد سقوط العاصمة ، إلى مدينة كافّا ، فاعتقله حاكم المدينة وفي نيّته أن يسلّمه إلى تيمور ، لكنه تخلّص من ذلك بأن افتدى نفسه بمبلغ خمسين ألف درهم . وقد ذكر طولو ، عند عودته إلى القاهرة ، أن فشل توقتميش في الدفاع عن عاصمته كان بسبب التحاق قسم من قوّاته إلى تيمور أثناء القتال . وقد عُثر فيما بعد ، في مكان قريب من سراي ، على هياكل عظمية بشرية كثيرة ، مقطوعة الرؤوس والأقدام والأيدي ، ويُعتقد أنها من آثار الاجتياح والتنكيل اللذين أنزلهما جند تيمور بالمدينة.

بانتهاء العمليات على ضفاف الفولغا ، كان برد الشتاء قد حلّ ، لذا قرر تيمور أن

يعود إلى إيران ، جنوباً عن طريق استراخان وبوّابة دربند . ووصل إلى أذربيجان في ربيع عام ١٣٩٦م .

[٤]
الهوردة الذهبية بعد الحرب

عاد توقتميش إلى خرائب بركه سراي ، وأخذ يسعى لإعادة بناء دولته من جديد . ولكن جهوده لم تثمر كما ينبغي ، وأخذت أحواله تسير نحو الاضمحلال ، بسبب الحروب التي وقعت بينه وبين منافسيه من أفراد البيت المالِك ، من أحفاد جوشي بن جنكيزخان ، وبينه وبين الحكّام الذين أقامهم تيمور قبل انسحابه حكّاماً في تلك البلاد . وقد شجعت هذه الحالة أمراء الروس المحكومين على التحرك ونبذ الطاعة . وظهر أمير قوي من ليتوانيا ، يُدعى فيتورسك ، فانتهز الفوضى التي حلّت بالبلاد بسبب غزوات تيمور ، واستطاع أن يفرض نفوذه على بقية الأمراء الروس . وقد لجأ إليه توقتميش فارّاً من منافسه قتلغ تيمور ، الذي كان الفاتح الطوراني قد أقامه خاناً على البلاد . ثم عاد توقتميش إلى محاربة قتلغ تيمور لتحلّ به الهزيمة مرة ثانية ، في معركة على ضفاف نهر وورسكلا ، أحد روافد نهر الدنيبير ، في ١٣ آب ١٣٩٩م . وعاش توقتميش بعد ذلك حياة التشرّد والمغامرة . وتقول مصادر إنه قُتل في تيومن إحدى مدن سيبيريا ، عام ١٤٠٦م ، حيث كان يلجأ إلى هناك فارّاً من شادي بك ، شقيق قتلغ تيمور وخليفته .

[٥]
نتائج حروب تيمور مع الهوردة الذهبية

كان من أهم ما تمخضت عنه غزوات تيمور ، لأمبراطورية الهوردة الذهبية ، تقويض سلطات خانات الهوردة على أتباعهم من الأمراء الروس ، وإتاحة الفرص أمام هؤلاء للعمل على التخلّص من نفوذ الهوردة الذهبية وسيطرتها عليهم ، والبدء ببناء الدولة الروسية . ومن نتائجها أيضاً تغيير في التوزع البشري في أوروبا الشرقية وآسيا الصغرى ، وذلك بسبب فرار الناس والقبائل من وجه الجيوش التيمورية . نزلت بعض القبائل الهارِبة على سواحل بحر قزوين الشرقية ، وتقدّم بعضها إلى دبرودجه ومولدافيا ، في رومانيا اليوم ، وإلى ليتوانيا على شواطىء البلطيق ، حيث لا يزال أحفادها هناك حتى

الوقت الحاضر ، وحيث لا تزال أسماء كثير من المواقع الجغرافية هناك من أصل مغولي . وكذلك استقرت ، بسبب غزوات تيمور لبلاد الهوردة الذهبية ، بعض القبائل المغولية في منطقة تراقيا ، وعلى سواحل بحر إيجة ، حول إزمير في آسيا الصغرى.

[٦]
ملاحظة

يستفاد من سير الأحداث أن معركة نهر «ترك» قد جرت على تشكّل ونحو مماثلين لمعركة كوندورتشا، وقد ترك تيمور ، كعادته ، ميسرته في حالة ضعف عددي لاستغواء الخصم . وقد نجح توقتميش ، هذه المرة ، في شقّ طريقه ليصل إلى تيمور ويكاد يقتله ، دون أن يُصاب هذه المرة أيضاً بالذعر لمرأى عدوه . أما الجديد في هذه المعركة فهو استعمال جيش الهوردة الذهبية لنوع من عربات القتال ، وأغلب الظن أنها كانت شبيهة بعربات السيثيين القدماء.

امبراطورية تيمورلنك من زيستان إلى البحر الأبيض المتوسط ومن دلهي حتى موسكو

الفَصْل الواحِد والعشرُون

الحَرْبُ في الهند، ١٣٩٨ - ١٣٩٩م

الوضع في الهند - أسباب الحرب - بدء الحرب - معركة دلهي - بعد المعركة - نتائج حملة الهند.

[١] الوضع في الهند

كانت الهند ، منذ عام ١٣٢١م ، تحت حكم أسرة «تغلق» المغولية المنحدرة من جغطاي بن جنكيزخان. وقد استطاعت هذه الأسرة في أول عهدها أن تفرض سلطتها على معظم أنحاء الهند، إلا أنه سريعاً ما دب الضعف والانحلال في صفوف هذه العائلة، فتضعضعت الدولة، ونحا معظم حكام الولايات إلى الاستقلال، كما كثرت ثورات الهنادكة ، وهم السكان غير المسلمين. ودأب وزراء الحكومة المركزية في العاصمة دلهي على الخصومة والتنازع، وكثيراً ما شهدت شوارع هذه العاصمة اشتباكات دامية بين الوزراء المتنافسين

[٢] أسباب الحرب

لم تكن الهند في ذلك الحين لتشكل خطراً كبيراً وشيكاً على ممتلكات تيمور. ولذا فالدافع الأولي البادي للحرب كان الطمع في ثروات هذه البلاد الأسطورية، وكذلك تدريب الجيش وتعويده على العمل في مناخات قاسية وأراض صعبة. وكان التخطيط لكل حملة مقبلة صعبة يبدأ، كما يتراءى من تتبع الأحداث، بحملة سلب ونهب ضد أطراف ضعيفة سهلة المنال

[٣]
بدء الحرب

بدأت الحرب بقيام محمد سلطان ، حفيد تيمور ، باجتياح الحدود الهندية واحتلاله لمدينة ملتان ، بناء على مبادرة منه . ولما أراد تيمور أن يسير بدوره ، جُوبِه بمعارضة من قوّاده ، بحجة صعوبة البلاد ووعورتها ، وضخامة أنهارها ، ومناخها الحار الذي يدعو إلى الخمول ، وكذلك بسبب كثرة السكّان . وأصرّ تيمور ، ولجأ إلى التهديد لبعض قوّاده ، ومضى في استعداداته ، واجتمع لديه ، في ربيع ١٣٩٨م ، ٩٢ ألف مقاتل . وفي نيسان من ذلك العام ، عبر نهر أموداريا متوجهاً إلى الهند ، مارّاً بمدينة كابل.

وعبر نهر السند ، في ٢٤ أيلول من ذلك العام . والتقى عند حصن ثلجي ، عند ملتقى نهر جين ـ أب برافده نهر «راغي» ، بقوّات حفيده سلطان محمد ، القادمة من ملتان . ثم تقدّم إلى فتح ـ أباد ، فاتكاً في طريقه بسكّان بهاتنير وسرسطي ، دون تفريق بين مسلمين وغير مسلمين.

أمضىٰ تيمور شهر تشرين الثاني ١٣٩٨م في احتلال المناطق المحيطة بدلهي ، قبل الإغارة على هذه العاصمة . واتخذ من قرية كهيتال قاعدة له . ثم عبر نهر جمنه ، وهو من روافد نهر الكانج وتقع دلهي على ضفّته ، من نقطة شمال المدينة ، واستولى على حصن لوني شمال شرق دلهي ، ونقل قيادته إليه.

أحاطت القوات التيمورية بدلهي من الغرب والشمال . وتقرّر أولاً القيام بعملية سريعة لجمع الأقوات والمؤن والأعلاف اللازمة . وفي ١٤ كانون أول ، قام تيمور بنفسه بحركة استطلاع ، ومعه ٧٠٠ من فرسانه ، فعبروا نهر جمنه إلى ضفّته الغربية ، للقيام بدراسة ميدانية وتحديد المكان المناسب لمهاجمة العاصمة منه . وبينما هم في سياق ذلك وإذ بالعدو يفاجئهم بحوالي أربعة آلاف فارس ، وألف من المشاة و٢٧ فيلاً . وتمكّن تيمور من الفرار والعودة إلى الضفة الثانية من النهر . وكان في قبضة الفاتح حوالي مئة ألف من الأسرى الهنادكة، وقد فرحوا بسبب الكمين الذي تعرّض له تيمور، وخشي هذا أن يقوموا بإرباك قوّاته أثناء القتال المقبل مع العدو ، ولذلك أصدر أمره بقتل الذكور ممن يتجاوز عمره خمسة عشر عاماً . وقد هدد من يخالف هذا الأمر بقتله مع زوجته وأولاده ، ولذلك اضطر كل من كان تحت تصرّفه عدد من هؤلاء العبيد الأسرى إلى قتلهم حفاظاً على حياته وحياة أسرته.

[٤]
معركة دلهي

بدأت المعركة في ١٨ كانون أول عام ١٣٩٨م . وقد تواجه الطرفان بتشكل مماثل ، جناحين وقلب . كان عدد القوات التيمورية يتفوّق على قوّات الطرف الآخر بمقدار الضعفين تقريباً ، وكانت هذه القوات كلها من الخيّالة . أما القوّات الهندية فتألّفت من ٤٠ ألفاً من الفرسان ، و ١٠ آلاف مشاة ، و ١٢٥ فيلاً . وكانت بقيادة السلطان الصغير محمود خان ووزيره.

استطاعت قوّات الجناحين التيموريين ، بعد وقت قليل من بدء القتال ، أن تشتّت شمل القوّات المعادية المقابِلة لها ، في حين كان القلب التيموري يعاني من ضغط العدو بواسطة الفيلة . وبعد أن تمكّن التيموريون من قتل بعض الفيلة ، وحمل البعض الآخر منها على الهروب ، تضعضعت قوّات دلهي ، وما لبثت أن تقهقرت بالفوضى ، وهرب السلطان ووزيره إلى داخل المدينة ، ثم افترقا وهربا إلى خارج دلهي . وكان تيمور يقود قوّات القلب ، وعلى جناحيه حفيداه سلطان محمد وسلطان حسين.

يتحدث مؤرِّخو الشام ومصر عن الطريقة التي استطاع بها تيمور أنْ يتفادى خطر الفيلة . قالوا إنه على الرغم من الأجراس الكبيرة التي عُلِّقت على أعناق هذه الحيوانات ، والتي كانت تصدر منها أصوات مزعجة ، وعلى الرغم من أبراج القتال التي ركبت على ظهورها ، فقد أمر تيمور بنشر كميات كبيرة من القطع المعدنية الحادّة المثلثة الأطراف على الطريق التي كانت ستغير منها الأفيال المقاتلة . وعند هجوم هذه الأفيال ، تظاهر الفرسان التيموريون بالهزيمة بسبب خوف الخيول من الأفيال . ولما مرّت هذه الحيوانات على القطع المعدنية الحادّة المُشار إليها أعلاه ، وكانت تُعرف باسم شوكات ، اضطرت إلى البروك على الأرض من شدّة الألم في أقدامها . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن التيموريين كانوا قد هيّأوا أعداداً من الإبل ، واضعين على ظهورها فتائل من القطن المغموس بالدهن . فلما هاجمت الفيلة أشعل الجند النار في الفتائل ، ثم نخزوا الإبل في أدبارها ، فاندفعت تطلق أصواتاً هائلة من ألم الاحتراق نحو الفيلة الهائجة بسبب ما أصاب أرجلها من جروح . وقد استعمل جيش دلهي ، بالإضافة إلى الفيلة ، سهاماً تنفجر عندما تلامس الأرض ، وقذفوا أيضاً بقدور نفط مشتعل.

[٥]

بعد المعركة

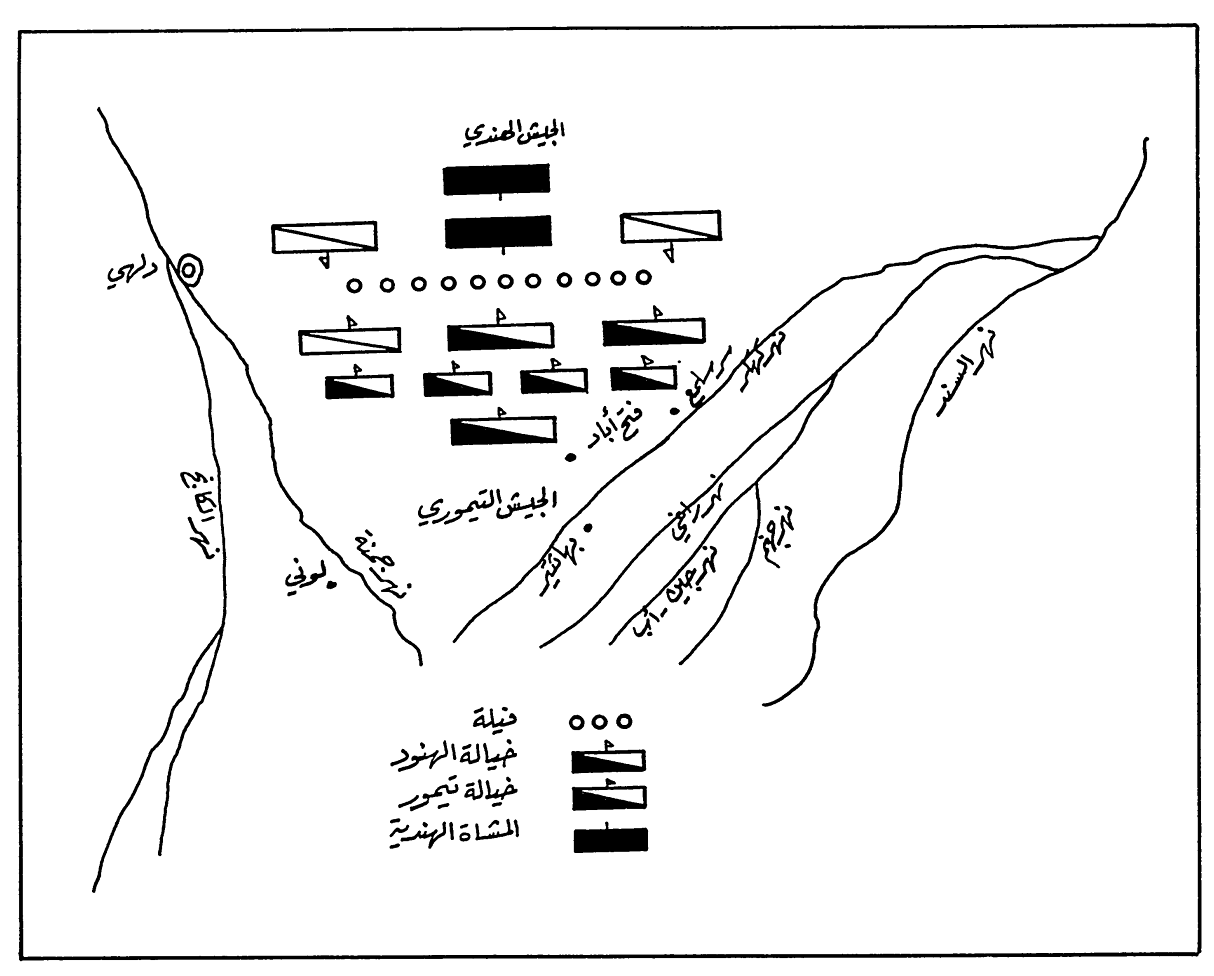
فرض تيمور إتاوة على المدينة ، وكان يُشار إلى ذلك باسم أموال الأمان ، وصلى في الجامع ، ودعى الخطيب له ، وذكر اسمه مقروناً بالألقاب التي كانت له ، وهي صاحب الزمان ، ملك الأقاليم السبعة وذو الاسم المبارك ، وقال إن الله تعالى قد استخلفه على الأرض .

قد بدا كل شيء في دلهي يسير على ما يُرام . ولكن بعد مضي أسبوع على احتلال المدينة ، في ٢٧ كانون أول ، انفجر الموقف فيها نتيجة لمجموعة من الحوادث . فقد تصادف القيام بجمع أموال الأمان مع جمع المؤن اللازمة للجيش به وحدث في نفس الوقت أن دخلت قطعة من الجيش كانت تعسكر خارجها ، وأخذت بنهب بضائع التجار ومعروضاتهم . فاشتبك الجند مع أصحاب البضائع ، وتطور الأمر وتفاقم ، ولم يدر أحد ما حدث بالضبط ، كل ما هنالك أن أفلت زمام الأمن والإنضباط ، وراح الجنود التيموريون ينهبون ويقتلون ويغتصبون ويأسرون ، وبلغ عدد القتلى من الأهالي حوالي مئة ألف ، وأقيم عدد من الأبراج من رؤوس الضحايا ، مما يحمل على الظن بأن ما حصل كان مبيتاً ، وأن الجند قد قام بفعل ما فعل بناء على أوامر معطاة .

تحرك تيمور مغادراً دلهي في ٢٠ كانون ثاني ١٣٩٩م وقد قام بعد معركة دلهي ببعض العمليات العسكرية القليلة الأهمية ثم بدأ رحلة العودة إلى بلاد ما وراء النهر . وكانت ضفاف نهر الكانج أقصى نقطة وصل إليها في الهند . وكان السير أثناء العودة بطيئاً ، بسبب ما كانت تحمله القوات وتجره من الغنائم ، وكان الجيش لا يقطع في اليوم أكثر من عشرة كيلو مترات ، ويسير وكأنه هجرة شعب بكامله ترافقه قطعان الماشية والأفيال والأسرى وقوافل العربات . وفي ٢٩ نيسان ١٣٩٩م ، وصل تيمور إلى سمرقند . وكان الأسرى الذين جيء بهم من الهند من كثرة العدد إلى حد عظيم ، مما جعل أسعار العبيد في أسواق العاصمة تنخفض انخفاضاً شديداً .

[٦]
نتائج حملة الهند

كانت حملة الهند كارثة بالنسبة لمسلمي هذه البلاد . فقد تعرّض المسلمون الهنود إلى التنكيل على قدم المساواة مع غير المسلمين . وكان من نتيجة ذلك أن أنزلت ضربة قاصِمة بالإسلام الهندي . لقد جاء تيمور وحارب حكّام الهند المسلمين ، وأجرى مذابح في هنود مسلمين كانوا أحسن إسلاماً منه ومن جنوده الذين قاتلوهم بحجة هدايتهم إلى الإسلام . وقد ظلّت الهند في حالة التجزئة والفوضى التي سيطرت على البلاد نتيجة للاجتياح التيموري حتى قيام دولة سلاطين المسلمين ، التي أسّسها أحد أحفاد الفاتح ، ببير ، عام ١٥٢٥م.



معركة دلهي ١٨/١٢/١٣٩٨م.



الفَصْل الثاني وَالعشرُون

في أذربيجان وجيورجيا
والجولة الأولى مع العثمانيين

الأسباب والوضع العام - الخروج إلى أذربيجان وتراسل مع بايزيد - الغارة الثالثة على جيورجيا - غارة رستم على بغداد - في الأناضول - ملخص عن الوضع بين تيمور والعثمانيين.

[١]
الأسباب والوضع العام

عاد تيمور منتصراً إلى سمرقند ، في أيّار ١٣٩٩م ، وغادرها في أيلول على رأس جيشه ، ليظل غائباً عنها ثلاث سنين . وقد بدأت بهذا الخروج عمليات عسكرية امتدت حتى العام ١٤٠٥م . وتمتاز هذه العمليات بأنها جرت ضد جيوش نظامية لدولتين قويتين هما الدولة العثمانية في آسيا الصغرى ، ودولة المماليك في مصر والشام . كان تيمور يفكّر في اجتياح الصين ، تقليداً وسيراً على طريق جدّه وأنموذجه جنكيزخان . ولكنه لم يكن ليشعر بأنه حرّ في التحرك شرقاً ضد الصين ، طالما ظل التحالف المعادي في الغرب مهدِّداً لحدوده . كان حلمه أن يقيم حلفاً مع خانات المغول ، لكن هذا الحلم لم يتحقق بسبب تصرفات توقتميش . وقد بدأ فأزال من الساحة سلطان دلهي ، أقرب أعدائه المحتمَلِين إليه . ثم توجه ، مع غنائم الهند ، نحو الغرب لضمان حدوده هناك . وواضح أنه ما كان ليريد نزاعاً مع الأتراك ما ظلّوا داخل أوروبا ، لكنهم اضطروه ، بتقدمهم في آسيا ، أن يتوجه حالتئذٍ إلى لقائهم.

كان الوضع الذي يواجه الفاتح غريباً . فقد كان عليه ، لكي يصل حتى أعدائه ، أن يسير أكثر من ١٧٠٠ كيلومتر . وهنا، كانت حدود الحلفاء ممتدة على طول نصف دائرة عظيمة ، من جبال القوقاز حتى بغداد.

كـان طريق الحركة ، أمام الجيش التيموري ، هو طريق خراسان الكبير . وكان من تفوّق تيمور وتميّزه أنه يتصرف بجيش محنّك متمرِّس ، وهو وحده قائده ، ضد عـدو منقسم . والبلاد التي كان عليه أن يتحرك ويناور عليها لم تكن من النوع الذي عرفه . فعوضاً عن أرض مسطحة مزروعة وموصولة بشبكات من الطرق والقرى المفتوحة ، فإنه كـان الآن مواجهـاً بكل آسيـا الغربيـة مع أنهـارها ، وسـلاسل جبـالها ، وصحـاريها ومستنقعاتها . وكان عليه أن يختار بين عدة طرق ، والطريق التي سيختارها ستكون محور حركته ووجهته معظم الوقت . وكانت توجد على هذه الطرق التجارية ، التي تسلكها القوافل ، مدن محصنة ، ولكل مدينة جيش للدفاع عنها . وكان على الفاتح الطوراني ، أيضـاً ، أن يسير وعينـه على التقويم الـزمني ، مفكّراً في المحـاصيل وفي المـراعي للخيول . وكان لا يمكن اجتياز بعض المناطق في الشتاء ، ومناطق أخرى تستعصي على الاجتياز في الفصل الحار .

على طول نصف هذه الدائرة من الحدود كانت تنتظر تيمور دزينة من الجيوش . كان الجيورجيون ، المتمرِّسون في المحاربة ، قد خرجوا من معاقلهم في القوقاز . وجاءت بعدهم حملة قوية من الأتراك ، مرسلة لاحتلال منابع الفـرات . وكان قـره يوسف ، كعادته ، يتجول مع رجاله التركمان بحثاً عن فريسة . وكان جيش مملوكي قوي يحتلّ سورية ، وإلى الجنوب كانت بغداد والسلطان أحمد . فإذا تحرّك تيمور على بغداد ، فإن بوسع الأتـراك أن يهاجمـوا مؤخرتـه من جهة الشمـال . وإذا هو حـاول الدخـول إلى الأناضول ، أرض الأتراك ، فإن الجيش المصري سيكون عند ظهره . وفي هذا إحدى نقاط ضعفه بالمقارنة مع جنكيزخـان . فقد كان باستطاعة الفاتح المغولي أن يضرب في عدة اتجاهات[1] ، وكان لديه القادة الأكفاء لذلك .

كـان موضوع الماء جزءاً من كل تفكير . كانت للجيش قافلة من الجمال ، وأتى تيمور معه بالفيلة من الهند . وهذا الجيش كان كله من الخيالة ، مع حصان إضافي أو حصانين لكل خيال . ولكي يمكن تحريك نحو ربع مليون حصان أو أكثر ، فموضوع يتطلّب عناية فائقة ومعرفة كاملة بالمنطقة . وكان تيمور يستشير جغرافييه والتجار كل يوم . وكانت تتقدّم الكوكب طليعة كشّافة ، وأمامها روّاد جوّالة للبحث عن مواقع العدو وموارد المياه . وكان الجواسيس والعيون يعملون داخل حدود العدو .

(١) انظر كتاب جنكيزخـان للمؤلِّف.

[٢]

الخروج إلى أذربيجان وتراسل مع بيازيد

تحرك تيمور من سمرقند في ١٠ أيلول ١٣٩٩م . وكان يتقدم ببطء ، وبصورة مريحة ، وفي عظمة وأبهة . مرّ بالري ، وقضى فيها بعض الوقت في أعمال عائلية تتعلّق بسوء تصرّف ابنه ميران شاه في مناطق حكمه. وكان قد بعص بتعليمات لإعداد تبريز لتكون قاعدة للعمليات في الغرب ، ولجعل سهل قراباغ مركز تجميع لقطعان الخيل . ثم تقدم إلى قراباغ دون أن يعرج على تبريز . وكانت قراباغ منتجعاً ومركزاً وسطاً بين بلدان الترك والروم والغرب.

في منتجع قراباغ قضى تيمور بعض وقته في كتابة الرسائل . وقد أرسل بصورة خاصة رسالة إلى خان المغول الذي كان وقتئذٍ حاكماً في السهوب الروسية ، وكان يدعى إيديكو . وقد تلقّى من هذا الخان جواباً يدعو إلى الدهشة ، جاء فيه:

« ـ أيها السيد تيمور! .

ـ إنك تتكلّم عن الصداقة. . ولكني أعرفك جيداً ، وقد أقمت في بلاطك عشرين سنة ، ومطّلع لذلك على حِيَلِك ومخاتلاتك! . فإذا كان علينا أن نكون أصدقاء فيكون ذلك والسيف في أيدينا».

لكن بالرغم من لهجة هذه الرسالة ، فإن قبائل السهوب سهرت على أن تظل بعيدة عن طريق تيمور ، وبقيت محايدة في العمليات المقبلة . وإلى بايزيد ، الملقّب بالصاعقة ، أمبراطور الأتراك ، كتب تيمور رسالة لطيفة ، لكن مع الطَلب بأن لا يُعطي أي عون لقره يوسف وللسلطان أحمد ، اللذَين كانا قد وضعا نفسيهما في حماية الأتراك ، وكانا يومئذ في تحالف عملي فعلي مع بايزيد . لم يحدث لتيمور ، لتاريخه ، أي نزاع مباشر مع بايزيد . وكان يقدّر قوة الأتراك العسكرية ويحترمها ، ولربما كان يود لو يُترك دون إزعاج في ناحيته ، ببقاء اهتمام الأتراك موجهاً إلى أوروبا . ولكن جواب بايزيد لم يكن سياسياً ولا مكتوباً بأسلوب حبي مسالم . ومما جاء فيه:

« ـ إعلم ، أنت أيها الكلب العقور المدعو تيمور ، أن الأتراك لم يتعوّدوا أن يضنّوا بالملجأ على أصدقائهم ، ولا أن يهربوا من مواجهة الأعداء في المعركة ، ولا أن يلجأوا إلى الحيل والأكاذيب والمخادعات!».

وقد استدعى هذا الجواب ردّاً مهيناً من تيمور . فقد ندَّد تيمور في ردّه بانحدار

سلاطين الأتراك من بدو التركمان ، ونصح بايزيد بالتفكير ملياً قبل أن يغامر ضد فيلة قد تسحقه . وأضاف قائلاً إنه لا يستغرب ما ورد في رسالة السلطان من بذاءة وسوء أدب ، فالتركمان لم يُعرفوا قط من قبل بحسن التصرّف والتقدير . وأنهى تيمور رسالته بقوله :

« ـ إذا أنت لم تتبع نصائحنا فستكون من النادمين! . فكّر إذن ، وافعل ما تراه مناسباً! » .

رد بايزيد على الرسالة الثانية لتيمور ، بعرض لائحة طويلة لانتصاراته ، منوِّهاً بأنه الآن سيد أوروبا معقل الكفّار ، وبأنه ابن لشهيد في سبيل الدين الصحيح ، والحامي الحقيقي للإسلام . واختتم رسالته قائلاً :

« ـ كنّا منذ زمن نَتُوق إلى خوض الحرب ضدك . وقد تحققت رغبتنا الآن ولله الحمد . وإذا أنت لم تأتِ في طلبنا ، فإنا سوف نطاردك حتى السلطانية ، وسوف نرى عندئذٍ مَنْ هو الذي سيغتبط بالنصر ومن سيغتمّ بالهزيمة» .

لم يُجِبْ الفاتح الطوراني فوراً على هذه الرسالة . ولكنه كتب فيما بعد رسالة مختصرة كان فحواها أن بوسع بايزيد أن يتجنّب الحرب إذا هو تخلّىٰ عن قره يوسف وعن السلطان أحمد بن عويس . وأجاب الصاعقة بسرعة وعنف . ويقول المؤرِّخون بأنهم لم يجرأوا على قراءة الرسالة للفاتح بحرفية الكلمات التي وردت فيها . لقد كتب بايزيد اسمه بأحرف ذهبية في أعلى الرسالة ، ووضع اسم تيمور فيها بالأسود وبأحرف صغيرة . وقد توعّد تيمور فيها بأنه سيغتصب زوجته المفضّلة . وقد دفعت هذه الرسالة بالفاتح المسنِّ إلى منتهى الغضب والهياج .

لكن ، وبينما كان يجري تبادل هذه المراسلة النشطة ، فإن تيمور كان يعمل ويحقق الشيء الكثير . كانت قوّاته تتهيأ وتستعد في قراباغ . وكانت الأخبار تصله إلى هذا المنتجع عن أحوال الممالك المحيطة بدولته من الشرق والغرب . وقد علم أن المنية وافت كلا من خضر خواجا خان جغطاي الشرقية ، والسلطان المملوكي برقوق ، كما توفي أمبراطور الصين وحاكم الكيبتشاق[1] تغلق تيمور ، وأن الفتن والاختلافات تعمّ هذه الممالك ، وأن أحفاده الذين أقامهم في أنداكان لحماية البلاد من هجمات مغول الجات استطاعوا استغلال حالة الفوضى هذه ، فتقدّموا حتى بلغوا خوتان وكشغر . وقد ارتاح تيمور لهذه الأخبار، فهي تصوِّر حالة دولية ملائمة لأن يتحرّك في الغرب بقلب مطمئن .

---

(١) الهوردة الذهبية سابقاً.

العمليات في جورجيا والأناضول

[٣]
الغارة الثالثة على جيورجيا

استهلّ تيمور غارته بالهجوم على وادي خمشا الخصيب الكثير الغابات ، والذي يقع إلى الشرق من العاصمة تفليس ، في الجزء الشمالي من مقاطعة كاخيثيا . وكانت قوّاته تشقّ طريقها خلال المضائق المشجرة . وقد تشتّت شمل الجيوش المسيحية ، وراحت جيورجيا خراباً بالنار وحدّ السيف . أُحرقت الكنائس ، ودُمِّرت الحدائق والبساتين . لم تعرض شروط صلح أو مهادنة كما في سنوات سابقة . ففي الميدان ، ضد الأعداء المحتشدين ، كان تيمور بلا رحمة.

استغرقت الغارة شهراً كاملاً ، خلال شتاء عام ١٣٩٩م . وكانت الغنائم كثيرة . وبحلول ربيع عام ١٤٠٠ ، نهض تيمور في غزوة ثانية حتى العاصمة تفليس فاحتلّها ، ومضى يطارد ملكها الذي هرب أمامه ، وينهب في طريقه كل شيء تقع عليه يده . وأخيراً قَبِل بمصالحة الملك الكرجي ، وقفل عائداً إلى قراباغ . وكانت ضحاياه من الناس كثيرة.

على هذا النحو بزغ فجر القرن الخامس عشر . ومع ابتداء ذوبان الثلوج ، كانت فرق تيمور قد تحرّكت إلى داخل آسيا الصغرى ، بطريق وادي أرضروم.

[٤]
غارة رستم على بغداد

من آسيا الصغرى ، وجّه تيمور ، بقيادة حفيده رستم ، قوّات من شيراز إلى بغداد . وبلغت هذه القوات ، في كانون ثاني ١٤٠٠م ، موقع مندلي بجوار بغداد ، قادمة بطريق تستر. وأرسل أحمد جلاير بن عويس حاكم بغداد، قوة لمقابلة المغيرين، فوقعت معركة عند مندلي، وفشلت القوة البغدادية في مهمتها. واكتشف أحمد في هذه الآونة مؤامرة حاكها تيمور ضدّه، بواسطة أحد أتباعه ويُدعىٰ شروان. وتلت ذلك حملة تطهير واسعة قتل فيها ألفان من أُمراء أحمد وقوّاده خلال أسبوع، كان من بينهم شروان عميل تيمور، ونساء من البلاط.

استطاع أحمد أن يخترق حصار رستم ، في زيارة سريعة إلى ديار بكر ، حيث

اجتمع بقره يوسف زعيم الغنمة السوداء[1] ، ليطلب مساعدتـه لحمايـة بغداد ، لقـاء كميات كبيرة من الأموال والأقمشة والأسلحة والخيول العربية ، واستجاب قره يـوسف له . ولكن وصلت في هذه الأثناء إلى الحليفين أخبار تفيد بأن تيمور يعتزم الآن غزو سيواس ، وأن قسماً من قوّاته قد اتجه نحو حدود الشام . وحيال هذا التطور أقرّ الحليفان أن ليس بوسعهما الصمود أمام القوات التيمورية المُغِيرة . وقد فتّ في عضدهما نجاح تيمور في تقدّمه نحو الغـرب ، قاطعـاً عليهما طـريق الفرار إلى بـلاد الروم ، أو إلى الأراضي الـواقعة تحت سلطان الممـاليك ، ممـا يؤدِّي إلى حصـرهمـا في العـراق ، ووقوعهما في الأسر.

لـذلك فقد أوكل أحمد جلاير أمر الدفاع عن بغداد لأحد معاونيه ويُدعى فرج ، واتجه هو مع أسرته وأمواله إلى حلب ، ورافقه في رحلة الفرار حليفه قره يوسف . وعند بلوغهما أبواب حلب ، لم يبدِ حاكم المدينة المملوكي تيمورطاش ترحيباً بهما ، ولم يسمح لهما بالدخول إلى حاضرته . وكتب يسأل سلطات القاهرة عن الموقف الذي يجب أن يتخذه من سلطان بغداد وحليفه . وكان جواب السلطان المملوكي الناصر فرج غامضاً وغير محدّد ، تاركاً تقدير الموقف إلى حسن رأي تيمور طاش . وعندئذ دارت معركة بين قوّات حاكم حلب وقوّات الحليفين في ظاهر المدينة ، فهزم الممـاليك . ورغم هـذا النصر فقد فضّل الهاربان أن يتابعا السير إلى الأناضول ، للدخول في حماية السلطان بايزيد.

أما عن الحصار حول بغداد ، فبعد تسعة وخمسين يوماً ، اضـطر رستم إلى رفع الحصار لورود أخبار عن تمرّد قـادة شقيقه الكبيـر سلطان محمد بن عمـر شيخ ، في شيراز.

[٥]
في الأناضول

في منتصف صيف عام ١٤٠٠م ، كان تيمور قد استولى على جميع المدن حتى سيواس . وكانت هذه المدينة مفتاح آسيا الصغرى . وقد تراجع جيش الحدود التركي مسرعاً ، في حين هاجم التيموريون أسوار المدينة ، فكشفوا عن أساسـاتها ودمّـروها

---

(١) قرة قيونلو.

بالمتفجرات . تساقطت الجدران واحتلت المدينة . لم يمسّ السكان المسلمون بسوء ، لكن قوة من ٤٠٠٠ خيّال ، من المرتزقة الأرمن ، وكانوا قد أزعجوا المهاجمين كثيراً ، فقد جرى دفنهم أحياء في الخندق المحيط بأسوار المدينة . ثم أمر تيمور بإعادة بناء الدفاعات ، وشتت شمل جماعة من التركمان كانوا قد جاءوا إلى المسرح . ومن ثم ، وبمسيرات قسرية ، تحرّك مسرعاً ليفاجىء ملطية بوابة الجنوب ، ويدخلها في نفس اليوم الذي هرب فيه الحاكم التركي مع جنوده.

بعد احتلال ملطية ، وبدلاً من التوغل في آسيا الصغرى ، أصدر تيمور أمره إلى الجيش بالاستعداد للمسير جنوباً إلى سورية . لقد صار الآن آمناً في ميمنته وجبهته ، ولم يكن ليقدم على متابعة التوغّل في آسيا الصغرى والمماليك في سورية يهددون ميسرته ومؤخرته.

واجتمع إليه الآن قادة جيوشه شاكين قائلين:

« ـ لقد انتهينا من حرب الهند منذ سنة . ومنذئذٍ والجنود في حركة دائبة وقتال مستمر ، وقد قطعوا ثلاثة آلاف وخمسمئة كيلو متر في حملتين جديدتين . العدو في سورية كثير ، والمدن محصّنة ، ورجالنا ومطاياهم بحاجة إلى الراحة!».

وردّ تيمور شكواهم بقوله:

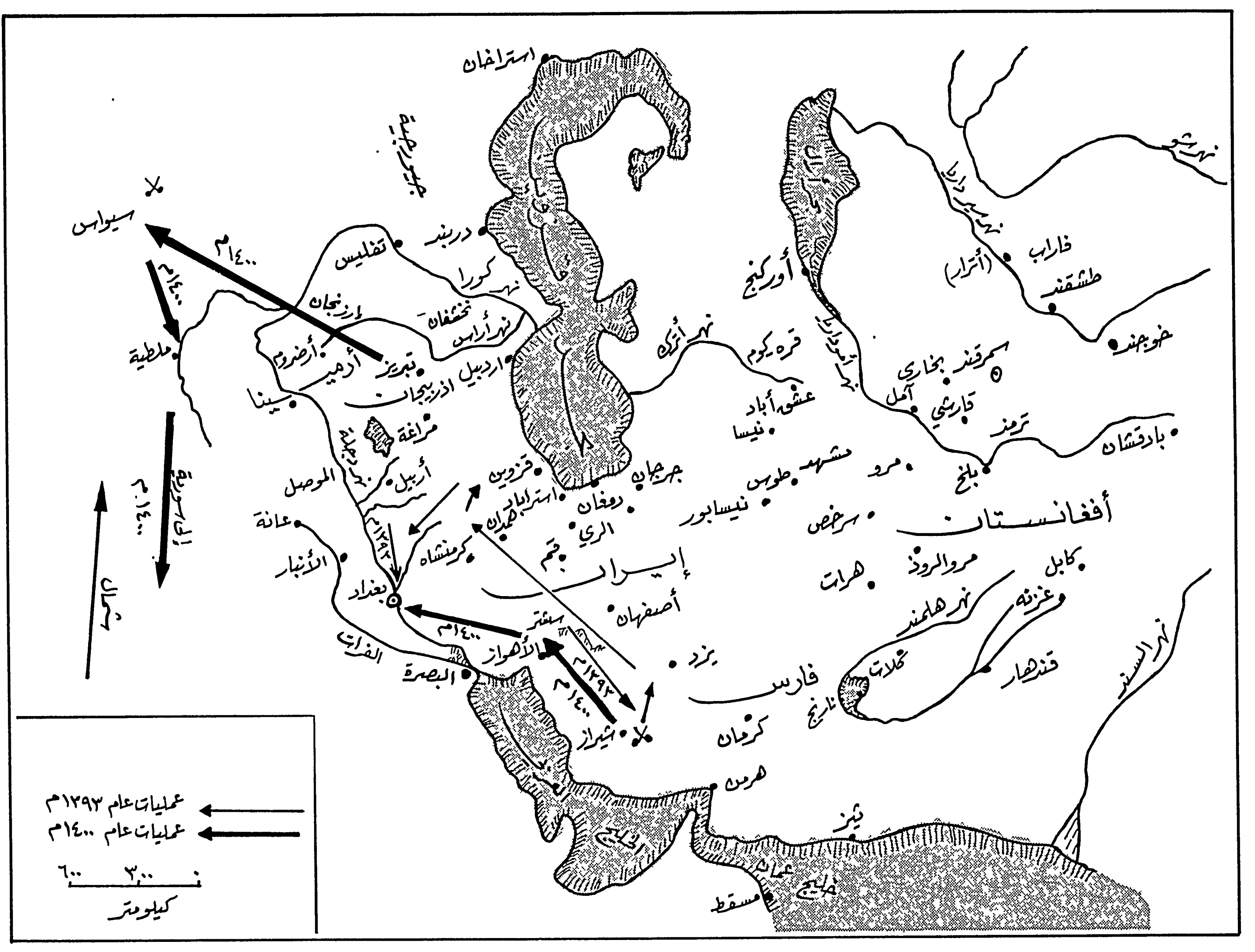
« ـ الأعداد لا تعني شيئاً!».

وبدأ الجيش حركته إلى سورية.

[٦]
ملخّص عن الوضع بين تيمور والعثمانيين

قطعت الدولة العثمانية شوطاً بعيداً في التوسّع في البرّ الأوروبي ، ونجح السلطان مراد الأول وابنه بايزيد الأول في اقتطاع أجزاء هامّة من شبه جزيرة البلقان . وصارت الدولة العثمانية نتيجة لذلك دولة كبيرة ، تمتد من ساحل بحر الأدرياتيك حتى هضبة أرمينيا الفاصِلة عن أملاك تيمور . وقد لُقِّب بايزيد بالصاعقة «يلدرم» ، وأخذ يتدخّل في شؤون الدولة البيزنطية الداخلية . وكان على وشك الاستيلاء عليها عندما ظهر تيمور على رأس قوّاته ، على حدود الدولة العثمانية الشرقية.

مرّ الصراع بين تيمور وبايزيد بمرحلتين تفصل بينهما عمليات تيمور الحربية في بلاد



في إيران والعراق والأناضول ١٣٩٢ - ١٣٩٥ - ١٤٠٠م.

الشام والعراق وجيورجيا ، في بحر عامي ١٤٠١ ـ ١٤٠٢م . وكان السلطان العثماني قد اعتدى على حاكم إزرنجان ، طهارتن تابع تيمور ، وعلى تابعه الآخر عثمان قره يلك ، حاكم آمد ، واستطاع ، أثناء غياب تيمور في الهند ، أن يدفع بحدود الدولة العثمانية حتى المجرى الأعلى لنهر الفرات . وقد نتج عن ذلك اشتراك بالحدود على مسافات واسعة بين الدولتين . وكان من المشكوك فيه أن يتوقف السلطان العثماني عند هذا الحدّ . وكان تيمور يخاف على أذربيجان ، التي تلي إمارة طهارتن في إزرنجان ، من ناحية الشرق.

كان تيمور ، في الوقت نفسه ، يطَمح إلى احتلال بلاد الروم كوارث لجنكيزخان . وكان المنجّمون قد تنبأوا له بأنه سيستولي على هذه البلاد حوالي العام ١٤٠٠م . وقد أفصح عن مطامعه هذه في رسالة بعث بها إلى بايزيد ، حاول فيها أن يقنعه بالتوسع من ناحية الغرب ، وبالتخلّي لتيمور عن المناطق التي استولى عليها من ناحية الشرق . وكان مما كتبه له:

« ـ إنك رجل مجاهد في سبيل اللّه . وليس غِرضي قتالك . ولكني أُريد منك أن تقنع بالبلاد التي كانت مع أبيك وجدّك ، وتتخلّىٰ عن مدن سيواس ، ملطية ، إبلستين وكماخ»[1] .

كان السلطان العثماني قد عقد تحالفاً مع أحمد جلائر سلطان بغداد ، ومع قره يوسف رئيس التركمان في دولة الغنمة السوداء ، ومع مماليك مصر . وعلى الرغم من أن تيمور وبايزيد ينحدران من أصول متقاربة ، ويدينان بدين واحد ، فإن كلاً منهما كان يعكس نوعاً من الحضارة يختلف عما يعكسه الآخر . لم يكن بايزيد ، في نظر تيمور ، إلاّ ذلك التركي الخلاسي المنحطّ المطعون في أصله ، والذي أفسده الوسط الحضاري الذي يعيش فيه . ومن الجهة الثانية فإن تيمور لم يكن في نظر بايزيد إلاّ سيد طوران المتوحش ، القادم من أعماق آسيا لسفك الدماء وهتك الأعراض . وكان يرى أن وقوفه في وجه هذا الفاتح الغاشم إنما هو دفاع عن الحضارة . وقد صَوَّرَ السلطان العثماني ، في رسائله إلى حلفائه في إيران والعراق ومصر ، تيمور بأنه «سفّاك الدم هتّاك الحرم ، شرّ الأشرار ونار الفتنة ، مدّع الإسلام معتد على البلدان الإسلامية» ، في الوقت الذي يرى فيه بايزيد نفسه أنه بطل الإسلام ، وابن الشهيد الذي قضىٰ وهو يُقاتل أعداء الدين.

---

(١) وهي المدن والمناطق التي كان بايزيد قد ضمّها إلى أملاكه في الآونة الأخيرة، وتقع جميعها في شرق الأناضول.

أول ضربـة مؤلمة كالها تيمور للعثمانيين كان احتلاله لمدينة سيواس في ٢٧ آب ١٤٠٠م ، بعد حصار استمرّ ١٩ يوماً . وعلى الرغم من أن السلطان بايزيد قد أرسل خمسة آلاف فارس نجدة لابنه حاكم المدينة ، قبل أن يبدأ تيمور حصاره لها ، فإن ابن السلطان فرّ منذ اليوم الأول للحصار . وقد استخدم التيموريون آلات الحصار ، ونقبوا أسوار المدينة ودمّروا هذه الأسوار بالمتفجرات ، وكان عدد سكّان المدينة مئة ألف . ويغالي مؤرّخو الشام ومصر في ذِكر ما ارتكبه الجنود التيمـوريون من تخـريب وتنكيل ومذابح . وتشير المصادر الأرمنية إلى أن القوات المغِيرة قتلت ، بعد احتلال المدينة ، حاميتها من الجند الأتراك والأرمن على السواء ، وتَقَدّر عدد القتلى بأربعة آلاف.

تقـول المصادر التيمورية أنه بعد أن دكّت المنجنيقات والعرادات أسوار المدينة ، خرج الأكابر والعلماء والقضاة إلى معسكر تيمور لتقديم خضوعهم . وأصدر تيمور أمره بأن المسلمين من سكّان المدينة آمنون إذا دفعوا ما فُرض عليهم من أموال الأمان . أما الأرمن من السكّان فقد فرض عليهم الأسر . وأما عساكر الأتراك ، وكان عددهم أربعة آلاف ، فإنهم أُبيدوا عن آخرهم . وأرسل تيمور تسعة آلاف عذراء إلى بلاده.

تمّ لتيمور ، بعد احتلال سيواس ، استـرجاع إبلستين (البستـان) وملطية . وكـان السلطان بايزيد يُحاصر القسطنطينية عندما بدأ حصار تيمور لسيواس . وقد حاول نجدة المدينة بقوّات جديدة ، ولكن فرقة من القوّات التيمورية تصدّت في الطريق لهذه النجدة وردّتها على أعقابها . واضطرّ بايزيد إلى رفع الحصار عن القسطنـطينية ، والانـطلاق مسرعاً إلى البرّ الأسيوي للتصدِّي لقوّات الخصم ، ولكنه لم يعثر لها على أثر.

وكان تيمور قد علم بتوتر العلاقات بين المماليك والعثمانيين ، بسبب إقدام السلطان العثمـاني على ضمّ مدينـة ملطية ، التي كـانت تابعـة لولايـة حلب المملوكيـة ، إلى سلطنته . وقد استغلّ الفرصة لتوجيه ضربة إلى المماليـك ، ليكون آمنـاً على مؤخرة جيوشه في الصراع الحاسم المقبل مع يلدرم بايزيد ، ولذلك يمّم بلاد الشام ، على الرغم من معارضة قوّاده.

الفصل الثالث والعشرون

الحرب مع المماليك

دولة المماليك ـ الاستعداد للقتال ـ معركة حلب ـ الحركة إلى دمشق ـ معركة الكسوة واحتلال دمشق ـ معاملة تيمور لدمشق ـ أسباب هزيمة المماليك ـ مناقشة.

[١]
دولة المماليك

كانت هناك مرحلة من الاحتكاك والاتصال مع المماليك . وأعمال الفاتح الطوراني ، في السياسة والحرب ، في بلاد الشام مع دولة المماليك ، لا تقلّ أهمية عن أعماله في آسيا الصغرى مع العثمانيين.

كان المماليك يتميّزون بنظامهم العسكري . وكانت جيوشهم مدرّبة تدريباً عالياً ، وقد استطاعت ، قبل مئة وخمسين عاماً ، أن توقّف الزحف المغولي ، وأن تنتصر على المغول في عين جالوت ، ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م . وقد نجح المماليك ، منذ ذلك التاريخ ، وعلى مدى قرن من الزمن ، في ردِّ حملات الإيلخانيين المتكرِّرة على بلاد الشام ، وقضوا على آخر معقل للصليبيين في عكا ، عام ١٢٩١م . ولكن دولة المماليك ، في منتصف القرن الهجري الثامن ، كانت تُعاني من فِتنٍ واضطرابات داخلية كان لها تأثير سيِّء على مقدرتها العسكرية . وبعد حقبة من النزاع والتنافس ، استطاع الأمير الشركسي برقوق أن يحسم النزاع لصالحه ، عام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م ، ليبدأ به حكم السلاطين الشراكسة ، الذي استمر حتى احتلال العثمانيين لمصر ، عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٧م . غير أن السلطان الجديد لم يوفّق في قطع دابر المشاكل التي كانت الدولة تُعاني منها . ويصف ابن تغري بردى حالة البلاد ، عندما بدأ الفاتح الطوراني زحفه نحو الغرب ، فيقول:

« ـ لم يتأهّب أحد من المصريين لقتال تيمور ولا التفت إلى ذلك . كان همّ كل واحد منهم ما يوصله إلى سلطنة مصر وإبعاد غيره عنها» .

اكتفت سلطات القاهرة بتتبّع أخبار تيمور في إيران والعراق . وكان الحكّام في هٰذين البلدين يرسلون بأخبار تيمور العسكرية إلى القاهرة . ولم تكن لدى السلطات المملوكية ، في هذه الآونة ، خطة عمل حيال الفاتح الطوراني ، لا حرباً ولا لتقديم المساعدة إلى حكّام إيران والعراق . وكان تيمور يظهر الاحتقار والازدراء للمماليك في كل مناسبة . وقد اتهمهم ، في رسالة إلى برقوق ١٣٩٣م ، بالرشوة وأكل مال الأيتام . وكان من الأسباب التي دفعت تيمور إلى احتلال سيواس ، والتنكيل بسكّانها ، هو إرسال هؤلاء هدايا إلى سلطان مصر ، ولذا وجبت معاقبتهم.

دفع الحرص واليقظة بتيمور لأن يظل على اطلاع على أحوال دولة المماليك ، بواسطة شبكات من الجواسيس بثّها في بلاد الشام ومصر ، وذلك قبل بدء الصراع المسلّح بوقت طويل . كان يطمع باحتلال سورية ومصر ، ويهدف من وراء الاستيلاء على مصر الوصول إلى منصب الخلافة ، لأن القاهرة كانت مقرّ الخليفة العبّاسي منذ أن قام هولاكو بتدمير بغداد في منتصف القرن الميلادي الثالث عشر . وكان لذلك يصرّ ، في كل بلد يحتلّها ، أن تكون الخطبة والسكة باسمه ، على اعتبار أنه قد اصطلح على أنهما من علامات الخلافة.

أما خصم تيمور ، في القاهرة ، فكان السلطان الناصر فرج بن برقوق ، وكان في العاشرة من عمره عندما اعتلىٰ العرش ، في آب عام ١٣٩٩م . وكان ، بحكم صِغر سنّه ، مستسلماً لمن هم أكبر منه من الأمراء ، الذين اختلفت أهواؤهم وتضاربت مطامعهم . وقد تفاقمت لذلك حالة الفوضى والفتن في البلاد . وكانت أهمّ الفتن الثورة التي قام بها نائب الشام تنم ، عام ١٤٠٠م ، ووقف معه نوّاب طرابلس وحماه وحلب ، مما اضطر السلطان إلى القدوم إلى سورية ، حيث انتصر على الثوّار في غزة ، وقتل زعيمهم تنم مع بعض أعوانه ، في وقت كان فيه الخلاف على أشدّه بين عشائر العرب والتركمان في بادية الشام . وكان السلطان العثماني بايزيد قد انتهز فرصة هذه الثورة فأقدم على احتلال ملطية ، التي كانت تابعة لدولة المماليك ، في العام نفسه ١٤٠٠م .

[٢]
الاستعداد للقتال

مهّد تيمور لغزو بلاد الشام بتوجيه رسالة إلى القضاة ورجال الدين في دمشق ، يقول فيها إن هدفه هو الوصول إلى مصر ليضرب بها السكّة[١] ، ويذكر اسمه في خطبة الجمعة.

أما السلطان فرج فقد اكتفى ، عقب ورود خبر استيلاء تيمور على ملطية ، بإيفاد أحد أمراء عسكره إلى بلاد الشام للحصول على مزيد من المعلومات ، وتجهيز القوّات الموجودة فيها للقتال . وعهد بالقيادة العسكرية ، في بلاد الشام ، إلى نائب[٢] دمشق الجديد الأمير سودون، فنهض هذا بقوّاته إلى حلب. وقد وصلت إلى حلب أيضاً قوّات نواب حماه وطرابلس وبعلبك وصفد وغزة ، في أيلول ١٤٠٠م . وكان الجيش التيموري يضم أخلاطاً من أقوام متعددة ، فكان فيه الترك والفرس والمغول والجات ، كما ضمّ أعداداً ممن كانوا لا يزالون على الوثنية . وكان معه عدد من الأفيال جيء بها من الهند.

[٣]
معركة حلب

تحرّك الجيش التيموري من بلاد الأناضول ووجهته الشمال السوري ، منطلقاً من ملطية كما يظن . وقد اقتحم عينتاب ، وتقدم منها صوب حلب ، حيث كان ينتظره جيش سلطان مصر.

يقدّر ابن الشحنة[٣] عدد القوات التيمورية بثمانمئة ألف مقاتل ، ويصل ابن خلدون بهذا العدد إلى مليون ، وهذا قول هراء . ففي معارك تيمور السابقة في إيران وبلاد الهوردة الذهبية والهند وآسيا الصغرى ، فإن جيشه لم يكن ليتجاوز حدود مئة ألف ، وهو اليوم في سورية لا يخشىٰ شيئاً من قوة دولة المماليك الغارقة في الفوضى والفتن ، ولا من سلطان ابن العشر سنوات ، وإنما هو في سورية كمقدمة لتحرّكه المقبل ضد بايزيد ، بتأمين مؤخرته بالسيطرة على بلاد الشام ، وبالحصول على أموال وغنائم

(١) العملة.

(٢) بمعنى والي.

(٣) قاضي حلب في ذلك الوقت.

لعملياته القادمة في الأناضول . وتبدو سخافة تقدير ابن الشحنة وابن خلدون[1] عندما يقدّران عدد القوّات الموجودة في حلب للدفاع عن هذه المدينة بثلاثة آلاف فارس.

كان جيش تيمور يقترب من حلب على مهل ، دابًا إلى الأمام كل يوم ، حافراً خنادق ومقيماً حواجز حول منازله . وقد رأى المماليك والسوريون في ذلك إشارة ضعف ، فتشجعوا وقرّروا ، رغم معارضة تيمورطاش نائب حلب ، الخروج من المدينة للتصدّي للقوّات الغازية ، فحفروا الخنادق ، وأرسلوا يطلبون من العشائر التركمانية والأعراب أن يقوموا بمناجزة العدو ، وذلك اعتماداً على جهله بأحوال البلاد وطبيعة أرضها . وتقرّر أيضاً أن يشترك سكّان حلب مع العسكر في عمليات الدفاع . وقد نصبت المنجنيقات والعرادات على الأسوار ، وأُوصدت الأبواب ، وتولّى سكان كل حي مهمة الدفاع عن حيّهم . وعلى الرغم من كل هذه التدابير فإن الروح المعنوية للحكّام والسكّان كانت متداعية والعزائم محلولة . وكان تيمور ، في هذه الأثناء ، قد بعث برسول إلى سلطات المدينة يدعوها إلى المصالحة وحقن الدماء ، فقتل الرسول . وللحال تقدّم التيموريون من خلف حواجزهم ، وحصل بين الفريقين مناوشات في يومي ٢٩ و ٣٠ تشرين أول ، وكانت مناورات تماس وجسّ نبض من لدن الطرفين . ووقعت المعركة الفعلية في اليوم الثالث ، في ٣١ تشرين أول ١٤٠٠م.

نظّم تيمور قوّاته ، للمعركة ، على النحو التالي :

- الميمنة بقيادة ولديه ميران شاه وشاه رخ.
- القلب بقيادته مباشرة.
- الميسرة بقيادة السلطان محمود بن سيورغتميش خان.
- ووضع في مقدمة القوّات ٢٨ فيلاً.

أما المماليك فكان تنظيمهم كما يلي :

- الميمنة بقيادة نائب الشام سودون.
- الميسرة بقيادة تيمورطاش.
- قوات بقية الولايات في القلب.
- وتجمّع من خرج من أهالي حلب للقتال ، وكانوا مشاة ، في المقدمة.

---

(١) كاتب عسكري عربي ، غزير الإنتاج ، يقول بمروق كل من يخامره شك بأقوال أمثال هؤلاء المؤرّخين الثقاة.

بـدأ القتال ، واستمرّ لمدة ساعة ، انهارت بعدها مقاومة المماليك ولاذت قوّاتهم بالفرار . فرّت أعداد من جُند المماليك باتجاه دمشق ، وقفل القسم الأعظم راجعاً إلى حلب والتيمـوريون يـطاردونهم على الأعقاب . وحـال الازدحام عنـد أبواب المـدينة والفوضى الناتِجة من استطاعة الحامية إغلاق هذه الأبواب ، فدخلتها القوّات الغازية في إثر الفارِّين ، تقتل وتأسر . واحتمىٰ الأمراء المماليك في القلعة ، ومعهم أعداد كثيرة من السكّان .

خضعت حلب للتنكيل بالأهالي لمدة يومين . وجرى الاغتصاب والنهب على نطاق واسع ، وامتلأت الطرقات بجثث القتلى ، وأُقيمت أبراج من رؤوس الموتىٰ . واستمرّ حصار القلعة ثلاثة أيـام ، استـسلم بعدهـا المحاصَـرون وأرسلوا مفاتيـح القلعة إلى تيمور ، وطلبوا منه الأمان ، فـأجابهم إلى طلبهم . وأرسـل قوة استـولت على القلعة وجمعت ما كان فيها من أموال وذخائر . ولما اطّلع تيمور على مقدار ما أُخذ من القلعة ، قال متعجِّباً :

« ـ ما كنت أحسب أن في الدنيا قلعة فيها مثل هذه الذخائر! » .

[٤]
الحركة إلى دمشق

أ ـ المماليك :

وصلت أخبار سقوط حلب إلى دمشق ، فاختبطت المدينة ، وهرع سكان الضواحي إليها للاحتماء بأسوارها . وكانت تتردّد شائعات عن قـرب وصول السلطان المملوكي على رأس قوّاته من مصر . وقد مُنِـع السفر من المـدينة ، واتخـذت بعض إجراءات الدفاع ، وحملت الأطعمة والتجهيزات إلى القلعة ، وأقبل الناس على التطوّع بـرغبة للاشتراك في الدفاع . ولم يلبث أن اتضح للسكان أن السلطان لا يزال في القاهرة ، وأن في المدينة سلطتان تعملان بشكل متعارضٍ ، وهمـا السلطة الإدارية المقتنعـة بعدم جـدوى المقاومـة والداعيـة إلى تسليم البلد بالأمـان ، والسلطة العسكريـة المتحمِّسة للقتـال . وكان تيمـور ، من ناحيتـه ، يسعىٰ بـدوره إلى بلبلة الأوضـاع في دمشق ، والتشويش على السكّان برسائل التهديد ، وبالأخبار التي عمل على ترويجها وهو في طريقه من حلب . ولم ينجح فريق الثبات والدفاع إلاّ بضغط العامة من سكان دمشق .
وفيما يتعلّق بمصر، فعندما وردت الأخبار إلى القاهرة بأن تيمور قد افتتح آسيا

الصغرى ودمّر سيواس واحتلّ ملطية، وإنه في طريقه إلى سورية، عمد السلطان المملوكي الناصر فرج بن برقوق إلى جمع جيوشه، ودفع رواتب وعلاوات، وأعلم الجيش بأنه سيتحرك إلى سورية. وبالفعل فقد غادر السلطان، مع جيشه النظامي والأمراء والقضاة، القاهرة في ٣ ربيع الثاني ٨٠٣هـ/ ١٩ تشرين أول ١٤٠٠م، وتوجهوا إلى الريدانية، وهي المحل لأول تعسكرٍ نظامي عندما يتحرك الجيش لحملةٍ ما، ويقع المكان على بُعد كيلومترين من العاصمة. وتحركت الطليعة من الريدانية يوم الجمعة في ٨ ربيع الثاني، ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠/١٠/٢٦م، في طريقها إلى سورية.

أخذت طلائع الجيش المملوكي تصل إلى ضواحي دمشق في ٢٣ كانون أول ١٤٠٠م/ ٦ جمادى الأولى ٨٠٣هـ. ووصل السلطان فرج بعد يومين من ذلك، ومعه كوكب الجيش، فنزل عند قبّة يلبغا، عند مسجد القدم، جنوب دمشق. وتُقدّر القوات التي جلبها معه باثنين وأربعين ألفاً.

ب ـ التيموريّون:

تحرّك تيمور وجيشه من بعلبك إلى دمشق، في ٣ جمادى الأولى ٨٠٣هـ/ ٢٠ كانون أول ١٤٠٠م. وكان يتقدّم في سهل البقاع مسرِعاً لبلوغ الحاضرة السورية قبل أن تصل إليها القوات المملوكية، وكانت وجهته قطنا. وعند وصوله إلى هذه البلدة، في ٢٢ كانون أول، أرسل جمهرة إلى قبّة السيار في سفوح قاسيون، للإطلال على دمشق، ونزل بباقي قوّاته في قطنا، حيث حفر خنادق حول معسكراته، وأحاطها بسور يرتفع مقدار مترين. وباحتلال تيمور لقرية داريا أصبحت قوّاته تطوّق دمشق من جميع الجهات، وازدادت قُرباً من مكان نزول السلطان المملوكي عند قبّة يلبغا.

جـ ـ معركة الكسوة واحتلال دمشق:

كان المعسكر الرئيسي لتيمور، أوّل الأمر، في الربوة على مسافة ٣٥٠٠ متر من قبة النصر. وفي ١٥ جمادى الأولى ٨٠٣هـ/ ١٤٠١/١/١م، نقل هذا المعسكر جنوباً إلى قطنا، على بُعد حوالي ٢٠ كيلومتراً غرب قبة النصر، ثم إلى الكسوة في ٢٠ جمادى الأول ٨٠٣هـ/ ١٤٠١/١/٦م. وكانت، في هذه الأثناء، مفارز من جيشه تطوف وتتجوّل في كامل المنطقة، من داريّا حتى بحيرة الحولة، جنوب جبل حرمون، وقد وصلت أحياناً حتى حوران.

اشتبك الجيشان ثلاث أو أربع مرّات خلال هذه المدة. وكانت بعض هذه الاشتباكات بين طلائع الجيشين. إلّا أنه كانت هناك اشتباكات أكثر خطورة، كتلك التي

وقعت في مرج النجوم، في ١٥ جمادى الأولى ٨٠٣هـ/ ١/١/١٤٠١م. وقد نجح التيموريون، في هذا الاشتباك، في حمل ميسرة الجيش المصري على الفرار، لكنّهم عجزوا، بقيادة تيمور نفسه، عن اختراق ميمنة هذا الجيش في محاولة للمرور عبره حتى دمشق.

وقع الاشتباك الأخير بين الجيشين، في ١٩ جمادى الأولى من السنة نفسها. فقد ترك تيمور معسكره، وتحرّك جنوباً صوب شقجب، ونجح فأخفى قوّاته خلف تلة الكسوة. وظنّ المصريون أنه يمضي هارباً، فقام بعض أمراء الجيش بمهاجمة مؤخّرة تيمور. ولكن صفوفاً إثر صفوف أخذت تخرج من الكمين. وحاول المصريون أن يصمدوا، فلم يتوفقوا، وأخيراً تقهقروا بالفوضى إلى المدينة. وتبع تيمور على الأعقاب، يقتل وينهب. وتوقفت المطاردة عند قبة النصر، وعسكر تيمور في الكسوة. وأُسِر في هذا الاشتباك حفيد تيمور، السلطان حسين، وكان قد فرّ والتحق بالمماليك ويقود الميسرة السورية أثناء القتال.

استؤنف القتال في اليوم التالي، الخميس ٧ كانون ثاني ١٤٠١م، وتقدّم التيموريون حتى قبة يلبغا، مما اضطر السلطان فرج إلى التراجع باتجاه دمشق، إلى موقع بئر الأعمىٰ جنوب قبة يلبغا، وظلت هذه القبة بين الطرفين. وكان تيمور طوال هذه المدة مداوِماً على عرض مقترحات للسلام، قائلاً إنه سيغادر سورية، ويُطلق سراح أسراه من السوريين فيما إذا أفرج عن ألطميش، أحد قادته، وكان قد أُسِر عند حلب، وأنه سيكتفي بأن تضرب النقود باسمه وبأن يُدعىٰ له في خطبة الجمعة.

توجّه السلطان المملوكي في الليل إلى قلعة دمشق. وهنا علم أن بعض قادته يعدّون لمؤامرة، ويخطّطون للهروب إلى مصر حيث ينفذون مؤامرتهم. وبناءً على ذلك فقد قرّر السلطان الرجوع إلى القاهرة مع أنصاره لمواجهة المتآمرين ومَنْعهم من تنفيذ مؤامرتهم. وقد تحركوا ليلاً، في فجر يوم الجمعة ٢١ جمادى الأولى ٨٠٣هـ، صاعِدين إلى جبل الصالحية، ونازلين من ممرّاته حتى ميسلون، ثم سيراً على ساحل البحر حتى غزة، حيث لحقوا بالفارّين. وأفاق سكّان دمشق في الصباح يتملّكهم الخوف والقلق. كانت الأنباء بما حدث مُبْهَمة وغير واضحة. ثم اتفق القضاة والوجهاء على إرسال وفد إلى تيمور لتأمين سلامة منازلهم وعائلاتهم. وتوجّه الوفد برئاسة القاضي إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي وبرفقته ابن خلدون الذي كان يومئذٍ في دمشق، وحملوا معهم هدايا من الأقمشة والفراء والأطعمة. وكان تيمور ينزل في القصر الأبلق.

منزل الدروي ومسجده
جادة ابن صبيح
نهر بردى
القصر الأبلق
باب الفراديس
باب السلامة
باب الحديد
القلعة
نهر بانياس
قصر نائب السلطان
باب توما
الشمال
باب النصر
الجامع الأموي
باب الزيارة
البيمارستان
باب الجابية
طريق البحر
باب شرقي
الشارع المستقيم
تربة فرج بن منجك
الباب الصغير
باب كيسان
داريا
قطنا
طريق الحج
الكسوة

دمشق في نهاية القرن الميلادي الرابع عشر

وبعدئذٍ استسلمت المدينة ، لكن القلعة قاومت واستمرت على المقاومة مدة قِيل إنها ٢٩ يوماً ، وقِيل ٤٠ يوماً ، وقيل ٤٣ يوماً.

كانت شروط تيمور أن يؤتىٰ إليه بكل ما خَلّفه السلطان المملوكي وأُمراؤه من أموال وذخائر ، وأن يَدفع له أهل دمشق أموال الأمان . وجاء في نصّ الأمان ، وكان يقع في تسعة أسطر ، ما يلي:

« ـ ليعلم سكّان دمشق أن اللّه تعالى ملّكنا بلاد الشام بفضله العميم ، علماً منه بما في قلوبنا من الرحمة للرعية. . ليعلم الأشراف والشيوخ والتجّار والعوام أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وحريمهم. . ».

تعـهّد تيمور بأن لا يظلم دمشق ، وأن لا يتعرض إلى مساجدها ، وهكذا استطاع أن يدخل المدينة.

د ـ معاملة تيمور لدمشق:

نكّـل الفاتـح بالسكّـان ، وفرض عليهم الأمـوال الباهـظة ، وعُـذِّب وشُنق منهم كثيرون ، ممن لم يستطيعوا دفع ما فُرض عليهم من مال . وكان من الطبيعي أن تتأثّر الحياة العامة ، فتعطلت حركة البيـع والشراء ، وكثـرت المصادرات ، وظهـرت بوادر المجاعة . واختفى الخبز من الأسواق من يوم هروب السلطان . وتعطّل الأذان والصلاة في أغلب المساجد . واتخذ شاه ملك ، حاكم دمشق العسكري ، من المسجد الأموي مسكناً له .

وهناك روايتان للأحداث بعد ذلك. رواية تقول إنه بعد أن أنهى أمراء تيمور وقوّاده جمع الأموال من سكّان دمشق ، أراد تيمور أن يُنعِم على جنده بما قد يمكن أن يكون قد بقي فيها ، فأمر هذا الجند بالقيام بغارة عـامة على المـدينة للسلب والنهب استمرت ثلاثة أيام ، ١٦ و١٧ و١٨ آذار عام ١٤٠١م . قام الجند بنهب ما تبقّى في المدينة من مال ومتاع ، وأسروا وقتلوا أغلب من بقي من سكّانها حياً . وأفحشوا علناً بالنساء والأطفال . ولم ينج من سكان المدينة إلاّ من احتمى بكبراء أمراء الغزاة ، أو من كان دون الخامسة من العمر . ثم أُضرمت النيران في البلد ، وظلت مشتعلة ثلاثة أيّام بسبب اشتداد الريح ، وكانت أغلب البيوت من الخشب والطين ، فـأتت النيران على داخل المدينة بأسرها تقريباً . وتعلّل المصادر التيمورية تلك الأعمال بعدالة تيمور ، التي رأت محاسبة سكّان دمشق ، لوقوف أسلافهم إلى جانب معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد ضد علي بن أبي طالب وولده الحسين.

أما الرواية الثانية ، وهي الأصحّ في رأيـي ، فتقول إن تيمور ترك في المدينة حاكماً وحامية ، ثم غادرها باتجاه حمص . وما كاد يبتعد حتى ثارت الغوغاء في دمشق ، لتقتل الحاكم والحامية . وتصادف ذلك مع قدوم قوّات مملوكية جديدة وشروعها بمهاجمة القوّات التيمورية المنسحبة من الخلف . دبت الفوضى بادىء الأمر في هذه القوّات ، لكن تيمور سريعاً ما سيطر على فرقه ، فارتدّ في هجوم مضاد ، وأخلىٰ الميدان من كل عدو . ثم قفل راجعاً إلى دمشق ، فانقضّ عليها وأباحها للنهب والسلب والاغتصاب . شبّت الحرائق ، واستمرت متأجّجةً أيـاماً ، دافنـة تحت الأنقاض جثث الضحـايا من كل نوع .

هـ ـ الانسحاب :

تراجعت بقايا الجيش المصري خلال فلسطين . وجرت ، بأمر من سلطان مصر ، محاولة أخيرة لإيقاف تيمور . فقد كلّف أحد الإسماعيليين، مشرباً مخموراً بالحشيش ، بقتل الفاتح ، فحاول الـوصول إلى القـائد الأعـرج ليغمد خنجـرة في صدره ، ولكن اكتُشف أمر الرجل ، فأُلقي القبض عليه ، وتناوله الحرّاس بسيوفهم .

وبينما كانت دمشق تُدمّر وتُحرق، استحوذت قبّة غريبة الشكل على انتباه تيمور ، فأمر بأن تُؤخذ رسوم لها. كانت القبّة تغطي قبراً يُشاهد فى السهل من بعيد ، ولم تكن شبيهة بالقبب المسنّنة الباركة مقوّسة على الأرض، كالتي عرفها التيموريون. إنها تنتفخ متضخّمة من القاعدة، وتستدقّ لتنتهي بمسلّة بشكل ثمرة الرمّان. وقد حظيت هذه القبّة الدمشقية التي كانت على شكل بصلة، وهي تحترق بالنار، بإعجاب الفاتح واستحسانه، وغدت نموذجاً هندسياً مفضّلاً لتيمور وذرّيته من بعده. ونُقلت بعد قرن من الزمن إلى الهند، لتشكّل قمة تاج محل، وقصور الموغول. وهي، في روسيا، موجودة فوق كل كنيسة.

غادر تيمور دمشق يوم السبـت ، ٢٠ آذار ١٤٠١م . توجّه الفاتح بقوّاته أول الأمر جنوباً ، فمرّ بقرية القبيّات ، وتوقّف برهة قصيرة في الغوطة . وكما كان قد أمسك عن المغامرة بعيداً في الأراضي التركية ، فها هو الآن يعود راجعاً من البلاد السورية . أرسل فرقة واحدة إلى الأراضي المقدّسة ، لمطاردة المصريين حتى عكا ، وأمر أكثر الفرق الأخرى بالتحرّك شرقاً ، في اتجاه بغداد.

أما هو ، مع بعض الجيش ، فقد قفل راجعاً على الطريق التي جاء منهـا ، مارّاً بالنبك وقارا حتى حمص . وسلمت هذه المـدينة من التنكيـل مرة أخـرى حرمـة لقبر

خالد بن الوليد ، بينما نهبت ضواحيها . وأرسل تيمور من حمص فرقة من فرسانه إلى تدمر ، فعادت تسوق أعداداً كبيرة من الأغنام . وتقدمت فرقة إلى أنطاكية ، وفرقة أخرى إلى وادي الفرات لمقاتلة العشائر التركمانية النازِلة حول قلعة الروم . وتابع هو طريقه فمرّ بحماه التي أظهرت بعض المقاومة ، فأحرق بعض مساكنها واستاق بعض أهلها أسرى . ووصل إلى حلب لكنّه لم يدخلها بل نزل في ضواحيها . ثم أمر باستدعاء الحامية التي تركها في القلعة لحراسة أكداس الغنائم التي جمعها أثناء اجتياحه للمدينة . ويُقال بأنه أحرق حلب مرة أخرى . وبعدئذٍ توجهت جميع القوى التيمورية صوب الفرات ، لتعبره على زوارق كبيرة ، عند البيرة إلى الرها (أورفة) ، وتقدّمت من هنا إلى ماردين.

و ـ أسباب هزيمة المماليك:

يعزو المؤرِّخون هزيمة المماليك إلى سوء الإدارة المملوكية ، التي كان على رأسها سلطان سنّه عشر سنوات . ويعتبر بعض المؤرِّخين أن وصول هذا السلطان إلى الحكم كان شؤماً على البلاد السورية . وهناك أيضاً جهل القيادة المملوكية بحقيقة العدو الذي كانت تواجهه ، فضلاً عما كانت تتصف به هذه القيادة من قلّة الإخلاص والولاء للبلاد والحكم. ولم تكن أعمال السلطات المملوكية والزعامات الشعبية المتمثِّلة برجال الدين في ذلك الوقت ، إلّا ردود فعلٍ تتصف إلى حدٍ كبير بطابع السذاجة والارتجال والعشوائية . ويظهر ذلك في ركون الإدارة المملوكية والسكّان إلى الأمان الذي منحه الفاتح ، ثم استمراره على التنكيل بالسكّان ، كما يظهر أيضاً في نجاح تيمور في فرض مكان المعركة الفاصِلة وزمانها مع القوّات المملوكية في ضواحي دمشق ، وفي الطريقة التي انسلَّ بها السلطان فرج عائداً إلى مصر.

ز ـ مناقشة:

استمرت المبادرة ، السياسية والإدارية والعسكرية ، في يد الفاتح الطوراني طوال جريان الأحداث . كانت القيادة الفاعِلة موجودة لدى هذا الفريق ، ومفقودة لدى الفريق الآخر . وكانت القوىٰ العسكرية لدى الطرفين متعادِلة تقريباً: ٤٢ ألفاً + الحاميات السورية المتجمِّعة في دمشق ، مقابلَ ٧٠ ألفاً ، وهي مجموع القوى التي خرجت مع الفاتح من أذربيجان.

تميَّز الجانب الطوراني بالبراعة في المناورة السياسية والدعائية والعسكرية ، وفي الاستعلام ، في وجه طرف كان يفتقر إلى كل هذه الأشياء . كان للجيش المملوكي عسكرية نظامية ، ولذا فقد كان ، نظرياً على الأقلّ ، أقوىٰ من الجيش التيموري القائم

على عسكرية قبلية يحرّكها حب الغنائم والأسلاب . لكن القيادة الواعية القديرة لدى التيموريين ، وغياب مثل هذه القيادة لدى المماليك ، كان كافياً للتعويض عن ضعف البنية العسكرية التيمورية حيال العسكرية المملوكية ، وأدّى إلى انتصار تيمور بكل سهولة . لقد انتصر تيمور في عدد نقاط التفوّق قبل أن ينتصر في تعداد الضربات القاصِمة . وكانت أهم نقاط التفوّق ، للتذكير ، هي :

- الاستعلام القادِر.
- والاحتفاظ بزمام المبادرة.
- وتعيين مكان وزمان المعركة الفاصِلة.

ومن الأمور التي تتوضّح لنا ، في سياق هذه الأحداث ، هو تجاهل المؤرِّخين المحليِّين للمنطق والواقع في روايتهم للأحداث التاريخية ، العسكرية منها بوجه خاص. فالقوات التيمورية، عند حلب، كانت تعدّ سبعين ألفاً، ولكن ابن الشحنة، قاضي حلب قدّرها بثمانمئة ألف . وابن خلدون ، ذلك المؤرِّخ الذائع الصيت ، يصل بهذا العدد إلى مليون . ثم يقولون إن حامية حلب ، وعددها ثلاثة آلاف ، خرجت من المدينة ، خارج حماية الأسوار ، لتنازِل مليوناً! . فإذا كان هذا هو التأريخ ، من قِبل عالِم فيلسوف كابن خلدون ، وكان شاهِداً للأحداث ومعايِشاً لها ، فما هي إذن قيمة التأريخ من قِبل أناس لم يكونوا أصحاب اختصاص ، ولا شهوداً عياناً للأحداث ، وقد رووا عن قيل وقال ، وبعد قرون من وقوع الحدث! .

لم يكن بالمستطاع إعطاء وصف لمراحل تطوّر الاقتتال في معركة الكسوة ، التي اعتُبِرت فاصِلة وإن لم تكن كذلك بالمفهوم العسكري المُتعَارَف عليه . لم يحقّق تيمور في هذه المعركة نصراً حاسماً ، ولم ينهزم المماليك ويفرّوا من ميدان القتال بالذعر والفوضى . لقد اعتُبِرت هذه المعركة حاسمة فقط لأن المماليك تخلّوا عن المواجهة ، فغادروا سورية راجعين إلى مصر دون تفكير بعودة قريبة.

كانت قوّات المماليك ، بمعظمها من الخيّالة ، أما القوّات التيمورية فكانت جميعها من الخيّالة . وكان التشكّل العسكري لدى الجانبين متشابهاً ، أما التنظيم فكان مختلفاً نوعاً ما . فالعسكرية المملوكية كانت قائمة على أساس جندية احتراف وطريقة حياة ، وكانت عناصرها أطفال يُشْتَرون من خارج البلاد ، من الصقالبة والقفقاسيين بصورة خاصة. أما العسكرية التيمورية فكان قوامها عساكر قبليون يتجنّدون للقتال لمدة حملة من الحملات ، ورائدهم الربح والمغنم.

الفَصل الرّابع وَالعشرُون

الحملة الثانية على العراق
٨٠٣هـ/ ١٤٠١م

الأسباب ـ معركة بغداد ـ الانسحاب

[١]
الأسباب

كان تيمور عازماً على الانتهاء من خصمه بايزيد يلدرم . ولكن بغداد كانت قد عادت فتنكّرت لسلطته ، وصارت بؤرة خطر على مؤخّراته ، خاصة عند الاصطدام القادم مع السلطان العثماني ، ولهذه الأسباب فقد تحوّل من سورية إلى العراق . وكان قد بارح الرها لجولة في منطقة الجزيرة العليا ، ثم تابع حركته فمرّ بماردين ، ونصيبين ، وعبر دجلة بالقرب من الموصل على جسور من القوارب والعبّارات ، واستمر العبور أسبوعاً كاملاً .

وكان، وهو في ماردين، قد وجّه أمامه، إلى بغداد، تومانتين (فرقتين بمجموع عشرين ألفاً) ، بقيادة حفيده رستم بن عمر شيخ ، وقد وصلت هذه القوة وعسكرت جنوب بغداد . وكان أحمد جلائر ـ السلطان أحمد بن عويس ـ قبل هروبه إلى آسيا الصغرى لاجئاً إلى بايزيد ، قد أناب عنه في حكم بغداد أحد أمرائه ، ويدعى فرج ، وأوصاه بالاستسلام لتيمور إذا كان هذا قادماً بنفسه على رأس قوّاته . ولكن فرج اختار أن يعصى أوامر سيّده السلطان الغائب ، فيدافع ولا يستسلم مع المدينة . وقد أرسل يطلب مدداً من المدن المجاورة ، فجاءه ثلاثة آلاف فارس من مدن مندلي وبعقوبة والحلة . ووقع اصطدام بين المدافِعين عن بغداد وبين جيش رستم ، فانهزم العراقيون واعتصموا بأسوار المدينة . وأرسل رستم إلى جدّه يعلمه بعزم بغداد على المقاومة .

وكان فرج، آمر حامية بغداد، قد اختار المقاومة إمّا تخوّفاً من غدر تيمور، أو أنه كان يأمل بأن الحرّ، الذي يجعل من وادي دجلة أتوناً مشتعلاً في الصيف، سيحمل التيموريين على الانسحاب. ولكنه كيف جهل أو تجاهل أن هؤلاء، على مدى أربعين عاماً، لم يتراجعوا أمام أية قلعة أو مدينة محصّنة!. وأمّا سكان بغداد فقد علّقوا آمالهم بحجار أسوار بغداد الضخمة، وبمناعتها على الصمود ضد الغزاة.

آخر شيء كان يريده تيمور كان حصار بغداد . فمنذ سنتين وجيشه في الميدان دون توقّف . وكان قد حشد قوّته الرئيسية في تبريز احتياطاً لقدوم الأتراك ، وخطّط ليكون هناك في مثل هذا الوقت . وقد فشلت مسيراته القسرية المروعة في استباق حرّ الشمس ، وها هو الآن في سهول جرداء مطروقة بِحَرٍّ لا يُطاق ، ومواجهاً بنقص في الطعام والمرعىٰ.

لكن بغداد كانت مفتاح دجلة ، ونقطة تجمّع للجيوش المعادية التي قد تأتي من مصر ، آخر معقل لأعدائه في آسيا . وبناءً على ذلك فقد عمد ، في ظرف ساعة ، إلى إدخال تعديل على خططه . سارعت رسله على خيولها السريعة تحمل أمراً إلى ابنه شاه روخ بمغادرة تبريز والتوجّه إلى بغداد مع عشر فرق من الجنود المتمرِّسين ، وقافلة المهندسين وتجهيزات الحصار ومعدّاته . وأرسل عيوناً إلى آسيا الصغرى لمراقبة حركات الأتراك ، وأمراً إلى سمرقند ، إلى حفيده السلطان محمد ، للحركة في اتجاه الغرب ، مع القوّات التي كانت متوفِّرة في العاصمة.

[٢]
معركة بغداد

سارع تيمور إلى التوجّه صوب بغداد ، متحرِّكاً على وجه السرعة ، فوصل إلى حاضرة الرافدين ، ونزل بجوار قرية العقاب في ٦ شوال ٨٠٣هـ/ ٣ أيّار ١٤٠١م . وبدأ بحصار بغداد . وعندما وصل شاه روخ وفرقه العشرة ، أمر تيمور بإجراء استعراض لفرسانه أمام أسوار بغداد . وعلى عزف الموسيقىٰ ودقّ الطبول وخفق الأعلام ، أخذ مئة ألف خيّال تيموري يتحرّكون استعراضاً تحت أنظار السكّان فوق الأسوار . ولمّا لَمْ يؤدِّ هذا المشهد إلى إرهاب بغداد وحملها على الاستسلام دون مقاومة، انصبّ تيمور حائلذٍ على العمل بعنف ووحشية.

ألقى بجسر من القوارب عبر دجلة ، تحت المدينة ، ليتمكّن المُحَاصِرون من

الحركة من ضفة إلى أخرى ، ولمنع الهروب بطريق النهر . ونصبت آلات الحصار من منجنيقات وعرادات وأبـراج ، واقتحمت الضواحي ومسحت واحتلت . وأحيط بـدائرة المدينة ، وهي أكثر من عشرين كيلو متراً ، بإحكام من كل جانب . وأخذ يؤتى ، من غابات بعيدة ، بجذوع الأشجار ليصنع منها أبراج على مرتفعات قريبة . ووضُعت ، في أعلىٰ هذه الأبراج ، معـدّات حصار متنـوعة ، بحيث صـار من الممكن قصف بغداد بالقذائف من علٍ على الأسوار وإلى داخل المدينة.

فـي هذه الأثناء ، كان الملغِّمون ينقّبون تحت الأسوار ويدمِّرون ، في غضون بضعة أيام ، أجزاء كاملة من الحيطان الخارجية . ولكن البغداديين ، خلف هذه الفجوات ، كانوا قد أقاموا جدراناً داخلية جديدة من الحجر والملاط ، محمية بمقذوفات نارية .

طلب القادة من تيمور وألحّوا عليه بأن يأمر بهجوم عام، فالحرّ أصبح كابوسـاً لا يُطاق. ففي ذلك المناخ الخالي من الهـواء، أخذت العصـافير، كمـا يقول المؤرِّخ، تتساقط على الأرض دون حياة. والجنود التيموريـون، العامِلون عنـد أسفل الجـدران الساخنة، تحت الحرّ المنعكس من الطوب المحروق، كانوا بمثابة من يشتوى داخـل دروعهم.

لم يُوافق تيمور على طلب قادته بهجوم عام . ومضى أسبـوع ، وفي حين كانت معدات الحصار مستمرة على القصف والدقّ ، كان الجنود ينسحبون إلى الملاجىء ما بين منتصف الصباح وأواخر بعد الظهر . وفي يوم ٢٧ ذي القعدة ، ٨٠٣هـ/ ١٠ تموز ١٤٠١م ، ترك المدافعون عند أحد الأبراج ، برج العجمي ، مواقعهم وذهبوا إلى بيوتهم لتناول الطعام، بعد أن أعيتهم شدّة الحرّ، وبعد أن تركـوا خوذهم على عصي أسنـدوها إلى حائط سطح السور، إيهامـاً للعدو بـأنهم لا يزالـون في أماكنهم. ولكن سـرعان مـا اكتشفت القوة المحاصِرة هذه الحيلة، فتسلّقت السور على سلالمها عند هذا البرج بقيـادة نور الـدين بهادور، وتمكنت من السيطرة عليه، ومن فتح البوّابة عند هذا البرج.

عندئـذٍ دق الطبل الكبير ، فاندفعت من تلك الجهة جميع الفرق التي كانت موجودة هناك . واندفع نور الدين ورجاله بشكل إسفين من المحاربين المدجّجين بالحديـد . وقبيل العصر ، في أتون من الحرّ الخانق، كان التيموريون يسيطرون على ربع المدينة ، ويدفعون بالبغداديين باتجاه النهر . وصارت المدينة عبر النهر مفتـوحة للهجـوم ، وما مضى النهار حتى كانت بأكملها بأيدي الغزاة . وتبعت فظاعات ومشاهـد رعب يعجز الإنسان عن وصفها . فجنود تيمور ، مسعورين بالمكابدة والمعاناة وبكثرة من سقط من

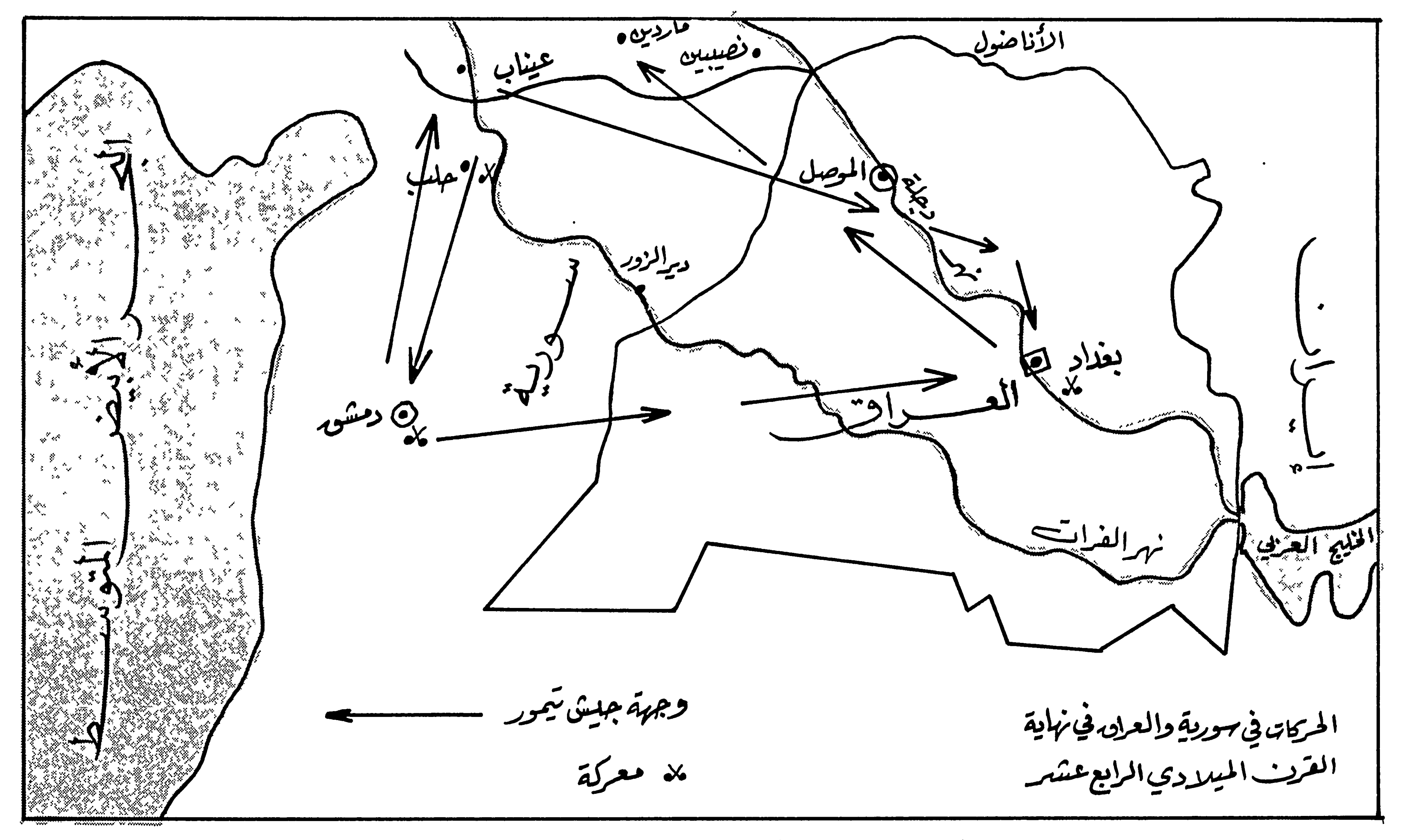
رفاقهم أثناء عملية احتلال المـدينة ، راحـوا كأبـالسة مبتهجين يعملون بـالناس ذبحـاً وتقتيلاً . وفرج ، قائد الحامية ، قُتل وسحب جسده إلى الشـاطىء . كانت المجـزرة عامة ، فلا تفريق بين كبيـر وصغير ، أو غني وفقيـر ، وأضحت المدينـة خاويـة على عروشها . ولم يسلم من التنكيل سوى رجال الدين الذين احتموا بمعسكر تيمور . وصدر الأمر إلى الجنود بأن يأتي كل منهم بعدد من الرؤوس البشرية . كان عدد القتلى كبيراً ، وقد أُقيم من رؤوس القتلى ١٢٠ برجاً . وقد أدّىٰ انسياب دماء الضحايا إلى دجلة إلى عفونة في الهواء ، فانسحب الفاتح الطوراني بعيداً عن المدينة لمسافة ستة كيلو مترات.

درست الأسوار ، وحُرقت جميع المباني ، وحرثت باستثناء الجوامع والممتلكات العائدة إليها . وهكذا زالت بغداد من صفحات تاريخ ذلك الزمان . وقد سكنت خرائبها فيما بعد ، لكنها بقيت منذ ذلك اليوم ، ولمدة ستة قرون تقريباً ، مكاناً لا أهمية له في أحداث العالم . وأرسلت أنباء بسقوطها إلى جميع المدن في إمبْراطورية تيمور ، وإلى السلطان بايزيد الملقّـب بالصاعقة . أما السلطان أحمد ، عاهل بغداد الغائب ، فقد عاد بعد مرور العاصفة . وسمع تيمور بهذا الأمر ، فأرسل على الفور رتلاً من الخيّالة لأسر هذا الأمير الكثير الهروب . ولكن أحمد تمكّن من الفرار هذه المرة أيضاً ، وهو عارٍ من ملابسه تقريباً ، ولم يعد بعد ذلك إلى خرائب بغداد قطّ.

بعـد سقوط بغداد ، وردت رسالة من سلطان المماليك ، وفيها يعترف عاهل القاهرة بتبعيته لتيمور ، ويتعهد بعدم السماح لأعداء الفاتح باللجوء إلى بلاده.

[٣]
الانسحاب

ترك تيمور بغداد ، مخلِّفاً وراءه كوكب الجيش وقوافل الحصار والأمتعة والمنهوبات ليلحقوا به على مهل ، وأسرع هو شمالاً بشرق إلى شهرور ومنها إلى منتجع جغاتو ، جنوب بحيرة أورمية ، حيث قضىٰ عشرين يـوماً في عقـد حلقات بحث ومنـاظرة في المسائل الشرعية . ثم تحرّك إلى تبريز مع شاه روخ وبعض جنرالاته ، ومنها في جولة استجمام في ربوع جيورجيا ـ بلاد الكرج ـ إلى أن استقرّ به المقام أخيراً في منتجعـه المفضّل ، قراباغ ، في ٢٢ ربيع ثاني ٨٠٤هـ/ ٣٠ تشرين ثاني ١٤٠١م . ووافاه إلى هنا حفيده سلطان محمد ، على رأس عدد من القوّات ، تمهيداً للحملة التي ينوي القيام بها على بلاد الأتراك العثمانيين.



الحركات في سورية والعراق في نهاية القرن الميلادي الرابع عشر

الفَصْل الخامِس وَالعشرُون

الجولة الثانية مع الأتراك العثمانيين
٨٠٤ ـ ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢ ـ ١٤٠٣م

الموقف ـ لمحة عن بايزيد ـ الأطراف المتقابلة وتحرّكاتها ـ معركة أنقرة ـ بعد المعركة ـ مناقشة.

[١]
الموقف

من خريف عام ١٣٩٩م إلى خريف عام ١٤٠١م ، كانت كل حركة لتيمور مخططة احتياطاً لاحتمال تعرّض من بايزيد . وفي الوقت الذي كان فيه تيمور يحاصر بغداد ، كان السلطان العثماني يتحرّك ، ببطء وراحة ، منتقلاً من أوروبا إلى آسيا . ولو حدث وتحرّك العاهل التركي بمزيد من النشاط والحيوية ، ليظهر على المسرح قبل أن تسقط بغداد ، لكان من المحتمل أن يجد تبريز مدينة مفتوحة ، خالية من التيموريين . وكان باستطاعة تيمور ، في ذات الوقت وبواسطة عيونه وشبكات جواسيسه ، أن يطّلع في الوقت المناسب على تحركات خصمه ، وأن يكون بوسعه ، في غضون أسابيع ، تلقّي تعزيزات من سمرقند والإسراع إلى ملاقاة بايزيد ، ولكن هذا السلطان لم يتحرك بحيث يستحق لقب الصاعقة.

كانت مواقع أعداء تيمور تقوم على الخارطة على شكل قوس . وقد تحرّك الفاتح الطوراني من طرف هذا القوس إلى الطرف الآخر ، وخاض ، في غضون ١٤ شهراً ، معركتين رئيسيتين وعدداً من الاشتباكات الصغيرة ، وأخذ بالاقتحام نصف دزينة من المدن الحصينة . وهذا الإنجاز ، كعملٍ عسكري ، غاية في الروعة والإبداع ، وقد أزال من الساحة جميع حلفاء بايزيد قبل أن يظهر الصاعقة على المسرح.

كان تيمور ، في مطلع عام ٨٠٣هـ/ آب ١٤٠٠م ، قد انسحب من الأناضول وفي نيّته أن يعود إليها مرّة ثانية للبتّ في النزاع مع السلطان العثماني بايزيد . وكان تخوّفه من قيام تحالف عثماني مملوكي قد دفعه إلى الإسراع لاستغلال سوء العلاقات الذي ظهر فجأة بين الدولتين المعاديتين له ، والذي نتج عقب وفاة السلطان المملوكي برقوق ، وإقدام السلطان العثماني على احتلال ملطية التي كانت تابعة لولاية حلب المملوكية . وقد حاول بايزيد إقامة تحالف مع المماليك ، وعرض أن يتقدّم بقوّاته على سيواس ، ليغير على مؤخّرة تيمور بينما كان هذا يزحف على حلب ، ولكن حادثة ملطية السابقة الذكر حالت دون تحقيق هذا الغرض . واستمرت القاهرة معادية للعثمانيين ، وربما كانت تعتبرهم أشد خطراً عليها من الفاتح الطوراني ، أو أنها تستطيع ردع هذا الأخير دون حاجة إلى مساعدة من بايزيد.

والآن ، بعد غياب سنة ونصف وأزود تقريباً ، وبعد عملياته الناجحة ضد المماليك في سورية ، وضد بقايا خصومه في العراق وأذربيجان وجيورجيا، والتي جعلته مطمئناً إلى سلامة مؤخراته ، يعود تيمور إلى الظهور من جديد على رأس قوّاته ، في شرق آسيا الصغرى ، قادماً من بلاد الكرج (جيورجيا).

[٢]
لمحة عن بايزيد

كان أباطرة القسطنطينية ، طوال جيلين ، يرون سلطانهم يمرّ باضطراد وتدريج إلى أيدي الأتراك ، الذين طلعوا من آسيا الصغرى ، ويسيطرون الآن على البلقان وشواطىء البحر الأسود . سحق العثمانيون صربيا في ميدان كوسوفا ، ودخلوا بعد ذلك إلى هنغاريا . كانوا مقاتلين متزمّتين ومنضبطين ، ممتلئين حماساً وحيوية وشديدي الإخلاص والولاء لسلاطينهم . وكانت خيّالتهم ، وبخاصة السباهي ، أحسن من جيدة ، ولكن مشاتهم ، المعروفة بالإنكشارية[1] ، كانت رائعة.

تزاوج العثمانيون مع جميع المشرقيين ، وشكّلوا من مواليد إمائهم المسيحيات ـ يونانيات وسلافيات ـ نسلاً جديداً . وكان بايزيد يتمتع بمناقب شعبه وأخطائه . كان متسرّعاً وباسِلاً ، قديراً وفظّاً قاسياً . وكان أول عمل له ، عندما اعتلى العرش ، أن خَنَق

(١) تحريف لتعبير تركي يعني الجيش الجديد.

أخاه . كان فخوراً بانتصاراته ، يتبجح متباهياً بأنه سَيَسِير ، بعد هزيمة النمسا ، إلى فرنسا وإنه سيطعم خيله عند مذبح القديس بطرس ، في روما . وكان سيداً للقسطنطينية في كل شيء عدا الاسم . وكانت أراضيه تمتد حتى أسوار المدينة ، وقضاته يأخذون مكانهم في العديد من محاكمها . وكان المؤذِّنون ، من مأذنتين فيها ، يدعون الأتراك إلى الصلاة . الإمبراطور الحالي ، مانوئيل ، يدفع له جزية كل سنة . وكانت البندقية وجنوه تتعاملان معه كالسيِّد المقبل للقسطنطينية . وكان بايزيد على وشك امتلاكها عندما انطلقت الدعوة إلى صليبية ضد الأتراك في عموم أوروبا . وسيكيسموند ملك هنغاريا ، الأكثر تضرّراً بالزحف التركي ، كان عرّاب هذه الدعوة ، كما كان فيليب البوركاندي محاميها لأسباب تخصّه . كانت قضايا الساعة ، في أوروبا ، هي الانشقاق الكبير ، وحرب المئة عام ، والمنازعات في المجالس الإمبراطورية ، وحنين الطبقات الشعبية إلى حقّ التملّك بعد محنة الموت الأسود . وقد أدّت الدعوة الصليبية إلى هدوء في مختلف الممالك لبعض الوقت ، وأعطى النبلاء سمعهم استجابة لنداء الكنيسة.

حوالي عشرين ألف فارس خيّال ، متطوّعين من مختلف أنحاء أوروبا ، مع خدمهم وحاملي أسلحتهم ، تحرّكوا وانضموا إلى جيش سيكيسموند . وبلغ المجموع حوالي ١٠٠ ألف . وكانوا كما يبدو مزودين بأعداد كبيرة من النساء وكميات وفيرة من الخمرة . وبلغ من عنترية الفرسان ، مغترين بكثرة عددهم ، أن قالوا إنه لو سقطت السماء فبوسعهم إسنادها برماحهم.

كان هؤلاء الخيّالة الصليبيون ، على ما ظهر ، لا يعرفون شيئاً عمّا قد يواجهونه . كانوا يعتقدون أن سلطان الأتراك قد حشد لمقابلتهم جميع المحاربين المسلمين ، وأنه يتربّص بهم على مقربة من القسطنطينية ، وكانوا متلهفين للوصول إليه قبل أن يهرب ، وكانوا ، بعد ذلك ، سيواصلون مسيرتهم حتى القدس . تحرّكوا نزولاً على الدانوب ، ببطء وتراخٍ . وسارعت قوّات البندقية صاعدة للإنضمام إليهم . وجرت الأمور كما يشتهون . استسلمت المحطات التركية الأمامية ، وفتك الصليبيون بعددٍ من سكان البلاد ، دون اهتمام بكونهم صربيين ومسيحيين . خيّموا في مكان فسيح جميل ، وضربوا الحصار على نيقوبوليس ، ثم سمعوا أن بايزيد قادم مع جيش عظيم.

لم يصدِّقوا ذلك في أول الأمر ، ولكن سيكيسموند أقنعهم بأن الأمر حقيقة . انتظموا للمعركة . وسيكيسموند ، العارِف بقوة الأتراك ، توسّل إلى الخيّالة الفرسان أن يأخذوا مكانهم مؤقتاً في المؤخرة ، تاركين لمشاته ، الأقوياء الأجسام ، عبء تلقّي صدم

الهجوم الإسلامي . غضب الفرسان النبلاء لهذا الطلب المهين ، وحصلت مشادة عنيفة ، بينما أخذت طلائع بايزيد تظهر للأعين . ويبدو أن الفرسان الفرنسيين والألمان ظنّوا أن سيكيسموند كان يحاول خديعتهم بإبقائهم بعيداً ، في حين يقوم هو بقطف مجد اليوم .

وبمبادرة من قائد الفرسان الفرنسيين، حمل جميع الفرسان كتلة واحدة، بعد أن قتلوا أسراهم من الصربيين والأتراك . طردوا من أمامهم كشّافة الأتراك ومناوشيهم ، ومضوا صاعدين على سفح جبل فسيح حيث أبادوا عدداً من النبّالة المشاة ، ثم أعادوا تنظيم صفوفهم ليهجموا على خيّالة الأتراك الخفيفة ، السباهي ، التي ظهرت الآن لمواجهتهم .

اخترقوا صفوف السباهي وبدّدوها ، وتابعوا هجومهم . كان هذا الهجوم عملاً مسرحياً بديعاً ، ولكنه تسبّب في خسارة المعركة . فالخطوط الأمامية التركية الثلاث ، كشّافة ومناوِشين ونبّالة وسباهي ، لم تكن سوى طليعة بايزيد . وعندما وصل الفرسان الصليبيون إلى المرتفع التالي ، وجدوا أنفسهم وجهاً لِوجهْ مع نخبة الجيش التركي ، حوالي ٦٠ ألفاً من الإنكشاريين ذوي العمامة البيضاء ، وعلى جوانبهم خيّالة بايزيد الثقيلة . لم يتحرك الجنود الأتراك من مواضعهم ، وإنما أخذوا يفتكون ، بخيول المسيحيين بنبالهم . ودبّت الفوضى في صفوف هؤلاء ، وقد صاروا راجلين مرتبكين ومثقلين بدروعهم المزعجة ، فقاتل بعضهم قتال اليائس ، وهرب آخرون قبل أن تسقط خيولهم .

لم يتمكن سيكيسموند من مساعدة الفرسان الخيّالة نظراً لاندفاعهم الجنوني دون تعاون معه . وهزيمة هؤلاء الفرسان أدّت إلى خسارة المعركة . فرجوع الفرسان الصليبيين والأتراك على أعقابهم زعزع ثقة المشاة الهنغارية بنفسها وفتّ في عضدها ، فهربت الأجنحة . وحاول سيكيسموند مع ما تبقّى من جيشه أن يثبت ، لكن لوقتٍ قصير ، وسريعاً ما أخذ هو وضبّاطه يعدون على ظهور خيولهم باتجاه القراديس البندقية للاحتماء بها . وقتل الأتراك جميع الأسرى عقاباً لهم على ما كان مِنْ تقتيلهم للسكان المدنيين . وقد أبقىٰ الأتراك على ٢٤ من نبلاء الصليبيين من أجل الفدية ، وطلبوا مئتي ألف قطعة ذهبية لفدية حفيد ملك فرنسا ورفاقه . وهذا المبلغ لم يكن جسيماً بالنسبة للأتراك ، ولكنه ضعضع الخزينة الفرنسية . وقد دفع هذا المبلغ أخيراً ، وأطلق سراح الأسرى . وهكذا انتهت الصليبية الأخيرة بهذه الصورة المخزية .

[٣]
الأطراف المتقابلة وتحرّكاتها

أ ـ بايزيد :

في مستهل صيف عام ١٤٠٢م ، جمع فاتح أوروبا الشرقية قواه لمواجهة فاتح آسيا . اجتمع لدى الأتراك جيش مؤلّف من ١٢٠ ألفاً ، كان منه عشرون ألف خيّال ثقيل من صربيا ، بقيادة بيتر لا زاروس . وكان هذا الجيش قد اعتاد على الانتصار سنوات طويلة . وكانت المشاة الإنكشارية ـ أي مشاة الجيش الجديد ـ والخيّالة الخفيفة ، السباهي ، تحت السلاح دائماً . كان الانضباط صارماً ، والطاعة لبايزيد شبيهة بالعبودية . وكان بايزيد واثقاً من نفسه وقوّته ، وأخذ يقيم احتفالات ضخمة وولائم عظيمة بانتظار خصمه . وكان تيمور في الطريق إليه . وقد سُرَّ الأتراك لذلك . فقوّتهم الأساسية مكوّنة من المشاة ، وهي مشاة كانت في أفضل حالاتها في الدفاع عادة . وكان القسم الأعظم من آسيا الصغرى وعراً ، مشجراً ، ومثالياً لحرب المشاة . وكانت هناك ، للحركة غرباً ، طريق واحدة تبدأ من سيواس ، وكان الأتراك يتوقعون أن يلتقوا بتيمور على هذه الطريق.

تحرّك بايزيد بجيشه بطيئاً ، بعيداً حتى أنقرة . أقام هنا معسكره الرئيسي ، ثم عاد إلى الحركة ، متقدِّماً ليعبر نهر هاليس ويدخل منطقة الروابي والتلال ما وراء النهر . وهنا وردته ، من محطاته المتقدِّمة ، أن تيمور موجود في سيواس ، على مسافة مئة كيلو متر منه وأمامه . وعندئذ كفَّ بايزيد عن التقدّم ، ووضع قطعاته في أماكن ملائمة للقتال ، وأقام ينتظر.

انتظر ثلاثة أيام ، ثم أسبوعاً . وجاءته كشّافته ببعض سكّان سيواس مع أنباء مقلقة . ففي سيواس لا توجد للطورانيين سوى حامية صغيرة . وقد غادر تيمور وجيشه هذه المدينة منذ وقت طويل ، ووجهته بايزيد . ولكن تيمور لم يكن بين سيواس وبين المعسكر التركي . فأين هو إذن؟! . راح الكشّافة يسابِقون الريح على خيولهم ، يبحثون خلال التلال والأودية عن أثر للتيموريين ، وعادوا بخفّي حنين . لقد اختفى هؤلاء في مكانٍ ما ، آخذين معهم فيلتهم.

كان الموقف ، بالنسبة للأتراك ، جديداً لم يعرفوا مثله من قبل . كانوا متمركزين على تشكيل القتال ، في منطقة وعِرة ، في قلب المنحنى الكبير لنهر هاليس ، الذي ينبع على مقربة من سيواس ، ويتدفق جنوباً ، ثم يدور على عقبيه شمالاً ، على مرأى من

أنقرة تقريباً ، ليفرغ مياهه في البحر الأسود . انتظر بايزيد حيث كان ، مصمِّماً على أن لا يبرح مكانه إلى أن تصله أخبار محدّدة عن التيموريين.

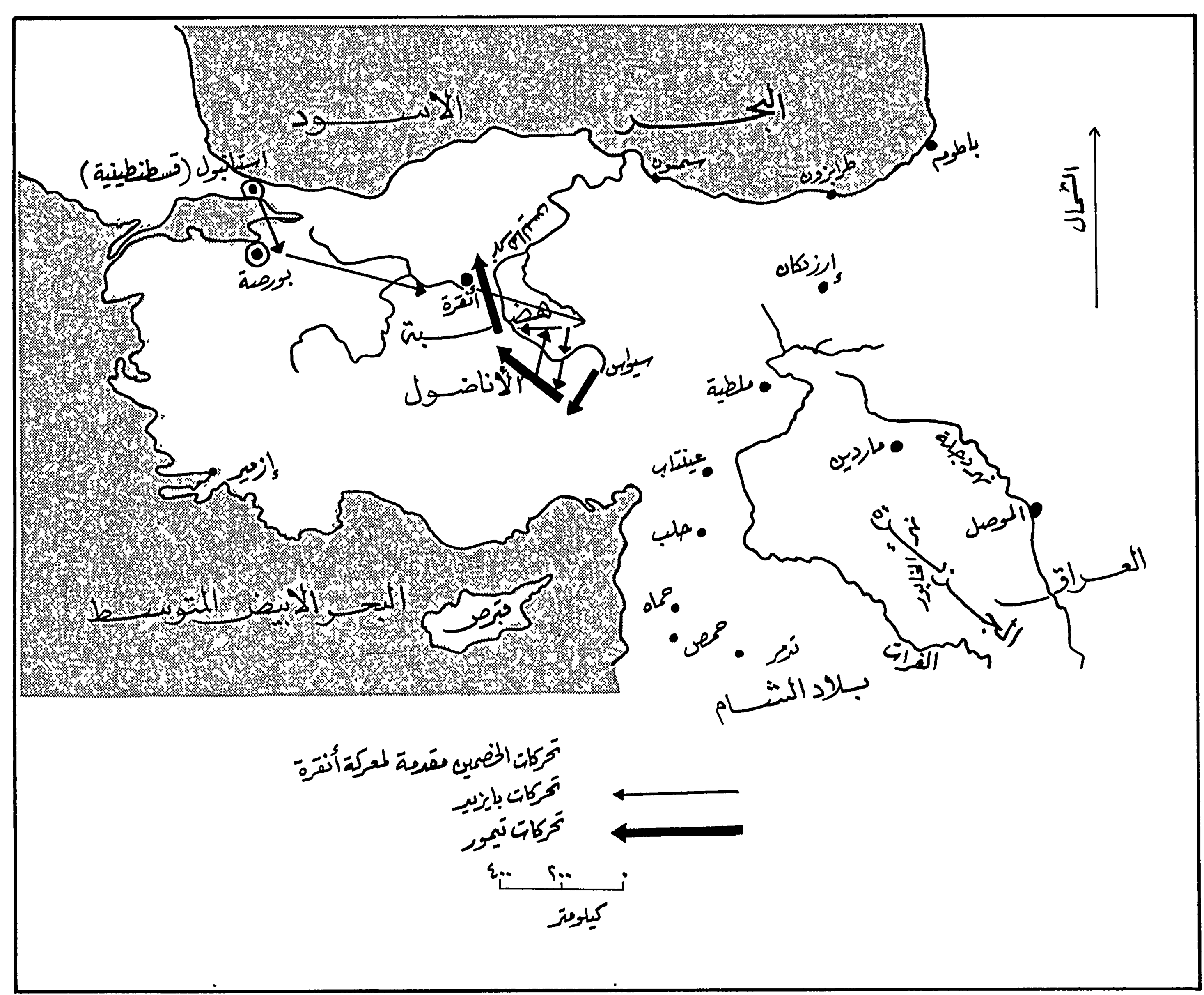
في فجر اليوم الثامن ، سمع بايزيد عن خصمه . فقد ظهرت فجأة جمهرة تيمورية ، بقيادة جنرال ، لتنقضّ على المحطّات المتقدِّمة في الجهة القصوى من ميمنة بايزيد ، فتأخذ أسرى وتعود فتختفي دون أن تخلف أثراً . واعتقد الأتراك واثقين بأن تيمور موجود إلى الجنوب منهم ، وسريعاً ما تحرّكوا في ذلك الاتجاه . وصلوا إلى ضفاف النهر في غضون يومين ، دون أن يلتقوا بأحد من التيموريين . وهنا عمد بايزيد فأرسل طليعة من خيّالته عبر النهر للبحث والاستطلاع ، بإمرة ابنه سليمان ، وكان قائداً قديراً .

عاد سليمان ولم يغب طويلاً. عاد ليقول إن تيمور لا يريد الآن مجابهة مع الأتراك كما يبدو ، وأنه الآونة يتحرّك مسرعاً باتجاه أنقرة ، خلفهم . وانتفض السلطان أخيراً من جموده ، وانطلق للحال يسير على الأثر الذي خلّفه عدوه ، باتجاه معسكره الرئيسي الذي سبقت الإشارة إليه . ولكن جيشه كان يتحرّك على رجليه ، وجيش خصمه يعدو على ظهور الجياد.

ب ـ تيمور:

بدأ تيمور عمليّاته بالتوغّل غرباً حتى سيواس . وكانت ، في أثناء ذلك ، تدور بينه وبين بايزيد مراسلات بقصد التفاهم والحفاظ على وحدة العالَم الإسلامي . وكان قد أرسل وفداً للتباحث مع بايزيد بهذا الخصوص . وعند وصوله إلى سيواس ، التقى بوفده العائد وبرفقته وفد عثماني يحمل ردّ سلطانه ، وخلاصته أن تيمور ماكر خدّاع وغير مخلص في حديثه عن السلم والمصالحة . وبهذا الردّ صارت الحرب بين الدولتين أمراً لا مفرَّ منه.

في سيواس ، وبحضور الوفد العثماني المذكور ، أقام تيمور عرضاً لقوّاته استمر طوال النهار . مرّت الفرق العسكرية بكامل أسلحتها ، وكان لكل فرقة لونٌ خاص يميزها ، ويلوِّن راياتها وأسلحتها وثياب الجند وسروج الخيل . وجاءت الأخبار إلى تيمور ، وهو في سيواس ، بأن بايزيد قد رفع الحصار عن القسطنطينية ، ويتقدّم على رأس قوّاته متوجِّهاً إلى ملاقاته ، وأنه الآن على مسيرة خمسة عشر يوماً من سيواس . وكان بايزيد يخطّط للتصدِّي للقوات التيمورية في ضواحي سيواس ، منعاً لها من التوغّل



تحركات الخصمين مقدمة لمعركة أنقرة

في بلاد الأناضول وتخريبها ، لا سيما وقد حلّ في هذا الوقت موسم الحصاد ونضجت الفواكه.

لكن تيمور كان يهدف إلى التوغل عميقاً في أملاك العثمانيين لتحقيق المزيد من الارتباك للسلطان العثماني ، وليس في نيّته الآن أن يتحرك بقوّاته من سيواس باتجاه الشمال الغربي ، إلى حيث يقف بايزيد بانتظاره على رأس قوّاته . والذي فعله من أجل ذلك كان بسيطاً إلى درجة تبعث على المرح والفكاهة . كان قد درس منطقة الروابي والتلال ، الواقِعة غرب سيواس ، ووجد أنها غير مؤاتية لحركة خيّالته . ولذلك ، وعندما قرّر الحركة ، فقد اتّجه جنوباً ، وسار على طول وادي نهر هاليس[1] ، جاعِلاً النهر بينه وبين الأتراك طوال الوقت . وهكذا فإنه كان يتحرّك جنوباً غرباً حول الإنحناءة الخارجية للنهر ، في حين كان بايزيد ينتظر في وسطها.

في ذلك الوقت كانت الغلال جاهزة للحصاد والالتقاط ، والمرعى متوفِّر للخيول . وكان تيمور قد أفرز أحد جنرالاته لتحقيق تماسٍ مع الأتراك . وقد اشتبك هذا الجنرال لفترة مع الطليعة العثمانية التي كان بايزيد قد أرسلها عبر النهر بقيادة ابنه سليمان ، وعاد القائد الطوراني إلى تيمور مع بعض الأسرى . الفاتح معسْكِر الآن في قرية كوش حصار ، وقد جمع ضبّاطه وأحفاده في مجلس حرب لوضع اللمسات الأخيرة على خطّته واستراتيجيته . قال لهم:

« ـ أمامنا خياران . . فباستطاعتنا أن نتوقف هنا ، فنريح خيلنا وننتظر قدوم الأتراك إلينا . هذا هو الخيار الأول . . وباستطاعتنا أيضاً أن نبعد متوغلين في بلادهم ، فنخربها وننهبها ، ونحملهم على ملاحقتنا . إن جيشهم مشاة بمعظمه ، والسير سيتعبه وينهكه . وهذا هو الخيار الثاني . . ».

وأضاف بعد فترة توقّف:

« ـ وهذا ما سنفعله».

بهذا القرار تغيّرت وتيرة حركة تيمور . غطّى خلفه بمؤخرة قوية ، وأرسل أمامه فرقتين مع تشكيلة من الهندسة لاختيار أماكن التعسكر اليومي ، وحفر الآبار فيها ، وجمع الحبوب والعلف لما يكفي الجيش بكامله . وقد تعمّد تيمور أن يخفي قوّاته وهي تتحرك عن أعين العثمانيين ، وحاول أن يجعل الجبال دائماً فاصِلة بين القوتين . وعملت القوّات

---

(١) قيزيل ـ أرمق الآن.

التيمورية أثناء مسيرها على تدمير البلاد وإتلاف المزروعات التي كانت تمرّ بها ، بحجة جمع الأعلاف اللازمة لخيولها . ووجد التيموريون ، مع تقدّمهم ، أنهم يبتعدون عن النهر . لكن المنطقة صارت أكثر انفتاحاً ، والماء وفيراً كافياً . وهنا علموا من عيونهم أن معسكر بايزيد الرئيسي موجود على مقربة من أنقرة ، على طريقهم . وللحال سارع تيمور في وتيرة تحرّكاته ، ليغطّي المسافة التي كانت تفصله عن أنقرة ، وهي مئة وسبعون كيلو متراً ، في غضون ثلاثة أيام.

وصل تيمور إلى ضواحي أنقرة ، فاستولى على المعسكر قاعدة بايزيد الرئيسي ، وكان مقفراً إلّا من الأتباع الذين تُركوا فيه ، واستقرّ رجاله في هذا المعسكر ، في خيام الأتراك . وكانت أنقرة قد أغلقت أبوابها واستعدت للدفاع ، فأعطى تيمور أمره بمهاجمتها . وأمر كذلك ببناء سدّ على النهر الذي كان يخترق المدينة ، محولاً بذلك مجراه ، بحيث صار يجري خلف معسكره ، وبحيث لم يعد هناك من ماء صالح لاستعمال جيش بايزيد عند وصوله ، سوى ماء أحد الينابيع ، فأمر تيمور بتدميره وبتلويث الماء .

وعلم، قبل أن ينتهي من أسوار أنقرة، باقتراب بايزيد وبأنه صار على بُعد ٢٠ كيلو متراً ، فتخلّى عن محاولة احتلال أنقرة ، وذهب في ذلك حتى إخلاء برج كان جنده قد اقتحموه . وحصن معسكره ، واحتفظ بنيرانه مشتغلة مضيئة ، وعسعست خيّالته في السهل طوال الليل . ولكن الأتراك لم يظهروا إلّا عند الصباح.

لقد مشوا مسرعين طوال أسبوع ، مع قليل من الماء والأقلّ من الحبوب ، على الأرض الخراب التي خلفها التيموريون . كانوا منهكين يعذّبهم العطش وحرّ السهل المحرق . وجدوا التيموريين وقد تربّعوا في قاعدتهم مع مؤونة وفيرة. والأسوأ من كل ذلك أنه لم يكن هناك ماء يمكن الحصول عليه لإرواء ظمئهم إلّا من خلف خطوط التيموريين . ولم يكن أمامهم إلّا خيار واحد لا غير ، وهو الهجوم . لقد اضطر بايزيد إلى فعل ما كان يتحاشىٰ أن يفعله ، وهو قذف خيّالته ضد خيّالة آسيا الوسطى المكتلة المرصوصة . مضى رجاله إلى المعركة وقد أنهكهم التعب والعطش . لقد تفوّق خصمه عليه بالمناورة ، واقتيد أخيراً إلى أنقرة كما لو كان ذلك بواسطة حبل يشدّه ويسحبه . وكان هكذا قد خسر المعركة قبل أن يمتشق حسامه من غمده.

[٤]
معركة أنقرة

انتـظم الفريقـان للقتال كـلاهما بتشكّـل جبهوي مؤلّف من ميمنـة وقلب وميسرة ومؤخّرة . وكانت القيادة لدى الفريقين كما يلي :

أ ـ الجيش التيموري:

ـ **الميمنة** : ميران شاه يعاونه ابنه أبو بكر والأمير طهارتن حاكم إزرنجان.

ـ **القلب** : محمد سلطان ، حفيد تيمور ، مع عددٍ كبير من القادة المحنّكين.

ـ **الميسرة** : شاه روخ بن تيمور مع ابنه خليل سلطان.

ـ **المؤخرة** : قوّات احتياط بإمرة تيمور مباشرة.

ـ **أمام جبهة الجيش** : ٣٢ فيلاً.

ب ـ الجيش العثماني:

ـ **الميمنة** : تحت قيادة الأمير سليمان أكبر أبناء السلطان ، وقد تألّفت من عشـرة آلاف خيّال أناضولي . وكان مع سليمان الصدر الأعظم علي باشا.

القلب : بايزيد نفسه ، ومعه ولداه موسىٰ ومصطفىٰ ، وتحت قيادته فرق الإنكشارية مباشرة.

ـ **الميسرة** : شقيق زوجة السلطان ، الملك الصربي لازارفيلكوفيتش ومعه عشرون ألفاً من القوّات الصربية المسيحية.

ـ **الاحتياط** : بقيادة ابن السلطان محمد جلبي.

ـ **أمام الجبهة** : ١٠ أفيال.

وكانت الجبهة العثمانية على شكل هلال ، تنطوي أطرافه بعض الشيء على أجنحة تيمور.

جـ ـ القتال:

نشب القتال يوم ١٩ ذي الحجة عام ٨٠٤هـ . ففي الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم ، تحت شمس محرقة ، هاجم الأتراك مع ما هو معروف عنهم من شجاعة وشدّة مِراس . كانت جبهة الطرفين تمتد لأكثر من ٢٥ كيلو متراً . وكان جناح للجيش التيموري

يرتكز على نهر صغير ، ويرتكز الثاني ـ وهو غير مرئي من بعيد ـ على مرتفع محصّن . وقد هجم الأتراك ، كما يقول المؤرِّخ ، على دقّ الطبول وصخب الصنوج ، في حين كانت الكتائب التيمورية تنتظر بصمت تام وعام وشامل.

بقي تيمور واقفاً في مرقبه حتى اللحظة الأخيرة . كانت المعركة تدور الآن بإشراف جنرالاته . كان الأمير محمد ، حفيده ، يقود القلب ومعه جيش سمرقند والفيلة ، وقد دُرِّعت هذه الحيوانات بجلد مصبوغ ، للتأثير المعنوي كما يبدو ، وليس لغرض تعبوي من أي نوع كان .

وبعيداً ، على ميسرة التيموريين ، كان الأمير سليمان بن بايزيد يهاجم على رأس الخيّالة التركية. وقد قُوبِل هذا الهجوم بقذف مدمّر من النبال ونيران النفط المشتعل ، فسحقت الخيل والرجال تحت ستار مُتعالٍ من الغبار والدخان . وهكذا فشل هجوم سليمان وخيّالته . وبينما كانت هذه الميمنة تعمل على لَمِّ شعثها وإعادة تنظيم صفوفها ، حملت الميمنة التيمورية ، بقيادة نور الدين بهادور أفضل جنرالات تيمور ، على الميسرة العثمانية في هجوم صاعق ، فتضعضعت هذه الميسرة وتقهقر الصربيُّون بشيء من الفوضى . وكان العثمانيون قد أكرهوا قوماً من مغول آسيا الصغرىٰ على التجنيد في صفوفهم . وقد رأى هؤلاء ، أثناء القتال ، رؤساء قبائلهم الأصلية يحاربون في صفوف قوّات تيمور ، فاغتنموا الفرصة وفرّوا من الصفوف التركية والتحقوا بالصفوف التيمورية.

أُوقِف الهجوم العثماني ولم يكد يبتدىء . وعندما تأكّدت سيطرة نور الدين على الوضع في جهة اليمين ، عندئذ تحرّكت الخيّالة التيمورية في الميسرة ، على ثلاث موجات ، لتسحق الطليعة الأمامية لدى خيّالة سليمان ، ولتمضي متوغِّلة داخل هذه الخيالة بعيداً بحيث غابت عن أنظار تيمور . وعندئذٍ جاء الأمير محمد ، عدواً على جواده ، ليسأل جده الإذن بالزحف مع قوّات القلب لمهاجمة مشاة بايزيد المكتّلة . ورفض تيمور . وبدلاً من ذلك ، فقد أمر حفيده بأن يأخذ فيلق سمرقند وفرقة من المغاوير ، وينطلق حالاً لدعم الميمنة ، التي كانت قد بعدت وتجاوزت إمكاناتها.

انطلق الحفيد الأثير للفاتح ، على رأس نخبة الجيش التيموري ، ليدخل القتال عند أشد نواحي المعركة عنفاً وضراوة ، عند نقطة توقفت عندها الخيّالة الصربيّة المتراجعة ، لتدافع عن نفسها بكل بسالة . وهنا قتل الملك بيتر قائد الصربيين ، واضطر الأمير محمد إلى الترجّل لكثرة جروحه ، وانهارت بدورها ميسرة بايزيد . وانفرد السلطان العثماني مع

معسكرات العثمانيين
الاحتياط
مشاة بيازيد
الأفيال
القوات العثمانية (١٢٠) ألفاً
بيازيد
تيمور
الميمنة
الأفيال
الميسرة
الاحتياط
قيادة تيمور
القوات التيمورية (٨٠) ألفاً
الخيالة الأناضولية
الشمال
نهر أنقرة
قوات حصار أمام أنقرة
أنقرة
نهر هاليس

مخطط معركة أنقرة
- خيالة تيمور
- خيّالة بايزيد
- مشاة بايزيد

مخطط معركة أنقرة

مشاته المتراصّة ، دون تخندق من أي نوع ، وأطبقت عليه الخيّالة التيمورية من اليمين واليسار . وعندئذٍ استلم تيمور قيادة القلب وأخذ يتقدّم .

لم تستطع مشاة الأتراك ـ الإنكشارية ـ الرائعة أن تقوم بأية مساهمة جدية في هذه المعركة . كانت كمن هلك قبل أوانه ، وضعها ميؤوس، وسلطانها بلا حول ولا قوة حيال لاعب الشطرنج الذي لا ندّ له ، في هذه اللعبة ، في كل آسيا . هربت القطعات التركية التي كانت في المؤخرة ، وصمدت قطعات أخرى لتتحطم بهجمات عنيفة متعاقبة ، أينما وُجدت . وكانت الفيلة تجول بينهم ، وأبراجها تقذف بالحمم المشتعلة . وفي جوٍّ كئيب من التقتيل والصراخ والصخب والغبار ، وعلى ذلك السهل المشوي بنار الشمس ، تحطّم الجيش العثماني وزال من الوجود ، ومن استطاع أن ينجو هارباً من المعركة ، فقد مات بفعل العطش والإنهاك . وصمد بايزيد ، عند إحدى المرتفعات ، مع ألف من إنكشاريِّيه ، واستمرّ يُقاتل هناك ، قتال اليائس حتى العصر . وكانت أوامر تيمور أن يؤتىٰ به أسيراً .

وقبيل المساء، امتطى بايزيد وبعض أتباعه خيولهم وحاولوا النجاة بأنفسهم خلال الصفوف التيمورية . ولكنه طُورِد ، وقُتل رفاقه ، ورُمِي جواده بسهم فخرّ وراكبه أرضاً ، فقُبض على بايزيد وَشُدَّ وثاقه ، وأخذ إلى فسطاط تيمور عند غروب الشمس.

كان تيمور ، عندما جيء ببايزيد ، يلعب الشطرنج مع ابنه شاه روخ ، فاستقبل أسيره بلطف وأجلسه إلى جانبه . وكان ابنه موسى أسيراً ، فجيء به وأُعطي حلة فاخرة . وكان له ابن قُتل في المعركة ، لكن لم يُعثر على جثّته . أما أولاده الآخرون فقد كانوا من جملة من استطاع النجاة . وليس صحيحاً أن تيمور وضع بايزيد سجيناً في قفص ، وربّما نشأ هذا الزعم من كون أن بايزيد راح مريضاً بعد هزيمته ، وكان لذلك ينقل في محفّة ، وكان تيمور يبعث إليه بالأطباء لمعالجته ، وقد استمرّ يعامله بلطف وأدب ، باستثناء مرة واحدة ، عندما أجبره على حضور احتفالات النصر في هذه الحملة ، مرتدياً حلّة السلطنة الرسمية ، ماسكاً في يده صولجاناً ذهبياً كان يُعتبر رمزاً لانتصاراته . لم يأكل في هذه الاحتفالات ولا شرب شيئاً ، وكانت نساؤه ، عاريات ، تقوم بخدمة المُنتصرين.

طُورِدت الفلول العثمانية الهارِبة في جميع الاتجاهات، حتى البحر. واحتلّ نور الدين مدينة بورصة عاصمة السلطنة ، وأتى منها بنساء بايزيد وكنوزه، وعاد إلى المقرّ العام وجنوده مثقلون بجميع أنواع المنهوبات والغنائم ، من أموال ونساء ومتاع . أما السلطان العثماني ، الذي كانت قواه متآكلة بالفجور والدعارة ، والذي حطّمته الهزيمة

وأصابت مقتلاً في نفسه وكبريائه ، فإنه لم يعشْ طويلاً ، ومات في الأسر بعد بضعة أشهر من هزيمته.

[٥]
بعد المعركة

كانت معركة أنقرة هزيمة حاسمة نهائية للعثمانيين ، بحيث لم تكن هناك بعدها حاجة إلى معركة أخرى . وقد هرب من استطاع من الأمراء والباشوات إلى أوروبا بمساعدة المراكب البحرية اليونانية والجنوية ، ولم يستطع التيموريون اللحاق بهم لأنه لم تكن لديهم سفن ، ولأن البحّارة الأوروبيين رفضوا أن يعاونوهم في هذا السبيل لأسباب لا تزال غامضة ، وربما كان ذلك تحسّباً للمستقبل.

لم يبقَ في آسيا جيش عثماني ، ولم ينزل في أوروبا ولا جندي تيموري . كان فرسان تيمور يتطوّفون في السهول وعلى سواحل البحر ، متطلّعين بفضول إلى قباب القسطنطينية المذهّبة دون أن يستطيعوا الوصول إلى المدينة ، ولا حاولوا في الواقع ذلك . فتيمور لم يكن يفكّر في أوروبا في ذلك الوقت . كان جلّ تفكيره منصرّفاً إلى الصين ، إلى حملته القادمة إلى هذه البلاد . وهكذا تشاء الصدف ، للمرة الثانية ، أن تنجو أوروبا المسيحية من الاجتياح والتدمير . كانت المرة الأولى عام ١٢٤١م ، عندما استُدعي قواد جنكيزخان إلى كراكوروم ليشتركوا في مجلس الكوريلتاي وينتخبوا خاقاناً جديداً ، وها هي أوروبا ، للمرة الثانية ، تسلم وتنجو لأن الفاتح الطوراني لم يكن يفكِّر إلاّ في الصين.

وصل التيموريون ، في تطوافهم على سواحل الأناضول ، إلى قلعة فرسان القدّيس جون في سميرنا (إزمير). وقيل لهم هنا إن هذه القلعة صامدة في وجه العثمانيين منذ ستّ سنوات . كان الفصل شتاءً عاصفاً ، والأمطار مدرارة . وجاء تيمور بنفسه ليشاهد هذه القلعة القائمة على مرتفع عند الخليج ، والرافِضة أن تستسلم لقوّاته.

حاصر تيمور هذه القلعة . بدأ فبنىٰ منصّات فوق الماء ، وكان يغطِّي مهندسيه بستار من النبال والقذائف النفطية . ثم أخذ في بناء رصيف حاجز لإغلاق الممر البحري الضيّق للخليج . وبعد أسبوعين من هذا العمل ، رأى المدافعون الأوروبيون أن يبادروا إلى الخروج من قلعتهم ، ليشقّوا طريقهم إلى قوادسهم قبل أن يغلق طريقهم إلى البحر . وقد استطاع بضعة آلاف أن يصلوا إلى سفنهم ، رادِّين بالسيوف والمجاديف سكان

المدينة البائسين الذين حاولوا أن يتبعوهم في الهروب والفرار . وعندما انسحب التيموريون من إزمير ، فقد تركوا خلفهم ، كمذكّر بأعمالهم ، إهرامين من الرؤوس المقطوعة.

كان قره يوسف ، زعيم تركمان الغنمة السوداء ، والسلطان أحمد بن عويس ، عاهل بغداد السابق ، لاجئَيْن سيَاسِيَّيْن لدى بايزيد . وقد اضطرّا ، بعد الهزيمة في أنقرة ، إلى الهروب والبحث عن ملجأ جديد . هرب سلطان بغداد السابق إلى بلاط المماليك في مصر ، وأختار قره يوسف ملجأً له في الصحراء العربية . وظهر فيما بعد أن الصحراء كانت أضمن من البلاط المصري . فمصر ، المفتوحة الآن لاجتياح تيمور ، سارعت بإرسال استسلامها واستعدادها لدفع الجزية ، وقرأت اسم تيمور في الصلاة العامة ، وضربت النقود باسمه ، وقبضت على أحمد بن عويس السيء الحظّ ، وأودعته السجن مغلول اليدين والرجلين.

كانت أوروبا مفتوحة في طريق تيمور ، ولكنه لم يقم بأي جهد لدخولها . ولم يكن لديه من حاثٍّ إلى ذلك ؛ فالجيش كان يحنّ للعودة إلى مواطنه ، ومدن بايزيد أعطت ثروات طائلة ، وكان تيمور دائم التفكير في الصين . وحدث في هذه الأثناء أن مات حفيده الأثير محمد ، نتيجة للجروح التي أصيب بها في معركة أنقرة ، وعندئذ دقّ الطبل الكبير إيذاناً بالعودة إلى سمرقند . لقد فقد تيمور بكره جهان كير ، ثم عمر شيخ . وثبت أن لا قيمة لميران شاه . وفي شاه روخ ، الذي تخطّى الآن مرحلة الشباب ، كانت تظهر ليونة ولا اهتمام بأمور الحرب . وكان أثيره ، في هذه السنوات الأخيرة ، حفيده الشجاع محمد ، محبوب الجيش ، وها هو الآن قد مات.

[٦]
مناقشة معركة أنقرة

يقولون عن معركة هانيبال في « كانّة » إنها تحفة تقليدية . ولكن هذه التحفة تفقد كل قيمة بالمقارنة مع معركة أنقرة ، التي هي بحقّ تحفة رائعة . إن معركة «كـانّة» ، في حقيقتها ، ليست سوى تمثيلية مُثلت أدوارها وجرى التدريب عليها كشكل من أشكال النظام المنضمّ ، والعبقرية فيها مقتصرة على رسم الحركة وتطبيقها في ميدان لا يزيد حجمه عن حجم ميدان لسباق الخيل.

أما معركة أنقرة فهي الخيال الواسع ، والتفكير البعيد المدى ، واستجلاب الخصم

إلى حتفه وهو على بُعد مئات الكيلو مترات . ولا عبرة لما يقول المؤرِّخون الأتراك ، تبريراً لخسارتهم ، عن انضمام قسم من جيش بايزيد إلى جيش تيمور أثنـاء القتال . فالجيش العثماني كان محكوماً عليه بالهزيمة ولو بقي بكامله ولم يهرب منه أحد . وهل من الممكن أن يفوز جيش وهو يدخل المعركة وقد أنهكه التعب وأضناه الجوع والعطش وحريق الشمس؟! .

كان الجيش العثماني يشكو من بعض المساوىء في قيادته وفي تأليف عناصره . فبايزيد كان متهوِّراً ، ومغرقاً في الفجور والدعارة . وكان أتباعه ، في نظره ، عبارة عن عبيد أرقّاء . وكان شحيحاً في توزيع مغانم الحرب على هؤلاء العبيد من جنود وضبّاط . أما جيش تيمور فقد كان على أفضل ما يكون من حسن التعبئة والتماسك ومهارة القيادة وإخلاص الأتباع . وعلى الرغم من أن العثمانيين كانوا يُقاتلون في بلادهم ، وقد أظهروا في حروبهم في أوروبا مقدرة وشجاعة فائقة ، فإن تيمـور عمل على دراسـة الوضـع الجغرافي لبلاد عدوّه والوقوف على طبيعتها ومواردها ومسالكها ، واستغلّ هذه الدراسة لصالحه بنجاح . وقد استطاع ، كما فعل مع المماليك في بلاد الشام ، أن يفرض على عدوّه مكان المعركة وزمانها وظروفها ، وأجبره على خوض القتال في أحوال بالغة السوء من التعب والجوع والعطش والذهول . ويستفاد من كُتب مؤرِّخي الشام ومصر أن تيمور كان جيِّد المعرفة بالوضع الجغرافي في آسيا الصغرى في ذلك الوقت . وقد مكّنته هذه المعرفة من سلوك مسالك غير مطروقة ، ومن دفع خصمه ، الذي كان ينزل في مناطق حصينة حول أنقرة ، إلى ترك هذه المناطق ، والسَيْر في مناطق قفراء حيث ضاع فيها وهو يبحث عن عدوّه في بلاده . وكذلك مكّنته معرفته لجغرافية الأناضول من استغلال الجبال للاحتجاب عن عدوه ، والأنهار لإجبار هذا العدو على اجتيازها جيئة وذهاباً ، وهو يبحث عنه . كما مكّنته هذه المعرفة الجغرافية من تحويل النهر الذي كان يجري في ميدان المعركة ، بشكل حرّم على عدوه الاستفادة منه.

كان انتصار أنقرة خطوة حاسمة في مخطط الفاتح الطوراني الهادِف إلى السيطرة على العالم ، وإلى الوصول إلى مركز خلافة المسلمين . وقد ألقىٰ هذا الانتصار الرُّعب في قلب السلطان المملوكي فرج بن برقوق . وكان المماليك يعتبـرون أنفسهم زعماء العالَم الإسلامي لحمايتهم الخلفاء العباسيين القائمين في كنفهم في القاهرة ، وخضوع الأماكن المقدّسة في الحجاز وفلسطين لنفوذهم . أما بعد معركة أنقـرة ، فقد أسـرع السلطان فرج إلى إرسال رسالة تهنئة إلى الفاتح الطوراني ، وفيهـا فقرات يكـرّر فيها

اعترافه ، ولو ضمنا ، بتخلّي دولة المماليك عن زعامة العالم الإسلامي ، والتسليم بهذه الزعامة لتيمور . فقد أقرّ فرج بذلك ، في هذه الرسالة ، بقوله «وقبلنا أبوّته ـ أبوّة تيمور ـ على مدىٰ الأزمان وتوالي الأعصار» . وبذلك بلغ تيمور أوجّ النجاح ، سياسياً وعسكرياً ، بعد موقعة أنقرة.

إن تقارير العرب والعثمانيين والأوروبيين ، عن عسكرية تيمور ، لم تكن غير منحازة ولا غير متجنّية . يقول الناقد العسكري الألماني ، فون هامِّر ، إن تيمور كان قائداً عظيماً ونابغة عسكرياً ، وإن معركة أنقرة واحدة من خمسة عشر معركة فاصلة في تاريخ العالم.

كان الجيش التركي يعد ١٢٠ ألفاً . ويقول الأتراك إن جيش تيمور كان يعدّ ٨٠٠ ألف ، وهو قول هراء . فجيش تيمور لم يبلغ قطّ حدود مئتي ألف إلّا عندما توجّه لغزو الصين . أما في معركة أنقرة ، فإن الجيش التيموري لم يتجاوز ٨٠ ألفاً . ولا شك في أن الجيش العثماني كان أكثر عدداً ، وإلّا لما لجأ تيمور إلى الدفاع كما فعل . والمجمع عليه أن العثمانيين هاجموا على تشكيل نصف هلال ، الأمر الذي يدلّ ، إذا كان صحيحاً ، أن أجنحتهم كانت منطوية على جانبي الجبهة التيمورية.

يقول هربرت أدامس جيبونس إنه كان بوسع بايزيد أن يتفادىٰ الزوبعة التيمورية لو كان وقتئذٍ ذلك الرجل الذي كان في نيقوبوليس (نيقيا) . لقد فشل لأن قواه العقلية والبدنية ـ التي كانت تماثل إن لم تكن تتفوّق على قوى أي رجل آخر في عصره ـ كانت قد تعطبت بحياة التهتك والفجور . ومما لا شكّ فيه أن بايزيد كان أقلّ كفاءة قيادية من تيمور الذي كان يومئذٍ يُقارب السبعين من عمره ، والذي كان في قلب الإمبراطورية التركية العثمانية ، على بُعد ٣٥٠٠ كيلومتر من سمرقند تقريباً . وجاء في التقارير العسكرية التيمورية أن معركة أنقرة كانت قليلة الأهميّة ، وأن بايزيد كان أدنىٰ منزلة من توقتميش من حيث اللياقة للقيادة.

الفَصْل السَّادِس وَالعشْرُون

في الطريق إلى الصين

العالم الأبيض ووفاة تيمور ـ بعد وفاة تيمور ـ تأثير الإعصار التيموري في مصير العالم.

[١]
العالم الأبيض ووفاة تيمور

لبِسَت سمرقند ، بعد عودة الفاتح من حملته المظفرة ضد العثمانيين ، أبهى حللها طوال شهرين من احتفالات وأعياد . ثم استدعى تيمور كبار الأمراء من قادة الجيش ، ليقول لهم :

« ـ لقد افتتحنا كل آسيا ما عدا الصين . وقد تغلّبنا على ذلك العدد الكبير من الملوك العِظام ، وستظل إنجازاتنا حديث الناس على مرّ الزمن . لقد كنتم رفاقي في حروب كثيرة ، ولم تُهزموا قطّ . ولكن رسالتنا لم تنتهِ بعد . فهناك الصين الوثنية القائمة إلى جوارنا ، وهي ضعيفة هرمة ولن يستدعي التغلّب عليها طاقة كبيرة . إنها الهدف لحملتنا المقبلة» .

خطب فيهم محمِّساً ، وقد عزم أمره ، وصوته العميق كلّه حزم وصلابة . كانت الصين مقدّرة لتكون آخر حملاته ، طريقه إلى عبور أرض أجداده وكذلك الجدار الكبير . هتف الجميع موافقين ، وللحال دقّ النفير ورفعت الأعلام ، ولم يكن من حاجة لأكثر من ذلك .

تحرك مئتا ألف ، في عدة فيالق ، إلى معسكرات على طول الطريق . كان الفصل أول الشتاء ، وكان لا بدّ من الانتظار ريثما يذوب الثلج عند سطح العالم . ولكن الفاتح لم يوافق على الانتظار والتأخّر حتى قدوم الربيع .

أرسل حفيده ، الأمير خليل ، مع ميمنة الجيش أمامه إلى الشمال ، وتحرّك هو مع القلب . لقد تحرّكوا مع قوافل كبيرة كانت تبدو كمدينة متحرِّكة ضخمة ، وقد حرص على أن يأخذ معه جميع المتطلّبات واللوازم المعيشية والعملية ، وأن لا ينقصه منها شيء .

عبروا نهر سمرقند . كان الوقت عندئذٍ تشرين الثاني ، والبرد شديد . وعندما اجتازوا المضيق ، الذي عُرف فيما بعد باسم بوّابة تيمور ، أخذ الثلج يتساقط ، وأخذت الرياح القادمة من السهوب الشمالية تسفُّ السهل . وعندما توقفوا ليخيِّموا ، فقد كانوا كَمَنْ فقد الإحساس بفعل الرياح الثلجية الشديدة . وعندما عادوا إلى الحركة من جديد ، كان العالَم حولهم كلّه أبيض بالثلج . اكتست الأنهار معاطف من الماء المتجمّد ، واكتظت الطرق بالثلوج المتراكمة . هلك بعض الرجال والخيل ، ولكن تيمور لم يرجع ، ولا رضي أن يذهب إلى مقرّات شتوية حيث كان خليل قد أسكن جنوده في أكواخ بانتظار مرور الصقيع . قال شارحاً أنه يودّ المضيّ حتى أوترار ، هذه القلعة الواقعة على الحدود الشمالية ، وأمر حفيده باللحاق به إلى هناك حالما تصبح الطرق سالكة مفتوحة .

كان عليهم أن يضعوا اللبّاد على الثلج ، وأن يدوسوها بالأقدام حتى تستطيع العربات والجمال أن تتحرك قُدماً . وكان الجليد بعمق ثلاثة أقدام على وجه سير داريا ، فعبروا النهر مشياً على هذه الحال . ثم حلّ الشتاء بكليته ، مع قصفه الذي لا يرحم . شفشاف ، مطر ، ريح وثلج ، والوهج الأصفر لشمسٍ منخفضة على الجليد . لم يجازفوا بالحركة سراعاً كما فعلوا ، لسنين خلت ، عندما توجّهوا لمواجهة الهوردة الذهبية . كانوا يشقّون طريقهم لبضعة كيلو مترات كل يوم ، باتجاه أوترار وطريق الشمال الكبرى الذاهبة إلى الصين . وأخيراً وصلوا إلى أوترار . وهنا قرّر الفاتح أن يمضي الشتاء مع الجيش ، على أن يعاود الحركة مع أول دفء الربيع . وفي آذار عام ١٤٠٥م ، عاود الجيش مسيره . انتصبت الأعلام ، وأرعد الطبل الكبير ، واصطفت الفرق في السهل للاستعراض . وجمع قادة الفرق جوقاتهم الموسيقية للسلام الليلي على السيد الأمير ، في حين كانت المزامير تصرصر والطبول ترجِّع صدىٰ وقع الحوافر . . .

لكن ذلك كان بمثابة سلام مسبق لراحلٍ من هذا العالم .

فقد توفي تيمور في أوترار . ومشىٰ الجيش ، عملاً بوصيته ، من جديد صوب الطريق الشمالية الكبرى . وكان جواده الأبيض ، مسرّجاً ، في موضعه تحت العلم الأمبراطوري . ولكن لم يكن هناك أحد على السرج .

كانت آخر كلماته:

« ـ حافظوا بشجاعة على السيوف في أيديكم . كونوا على وفاق فيما بينكم ، ففي الشقاق والفوضىٰ خرابكم . لا تتحوّلوا بوجهكم عن السير إلى الصين».

ثم استدعى إليه أمراء الجيش وقادة فيالقه ، ورفع صوته ليقول:

« ـ إني أعيِّن بير محمد بن جهان كير ليخلفني. . يجب أن يقيم في سمرقند ، وأن تكون في يديه السلطة التامة على الجيش والشؤون المدنية . إني آمركم أن تكرِّسوا حياتكم لأجله ، وأن تدعموه . يجب عليه أن يحكم الولايات البعيدة كما يحكم في سمرقند. . وإذا أنتم لم تمنحوه طاعتكم الكاملة فسيكون خصام وحروب».

أقسم القادة الحاضرون ، واحداً تلو آخر ، على العمل بوصيته . ثم طلبوا منه أن يرسل فيستدعي جميع أحفاده ليسمعوا بأنفسهم إرادته . فردّ بشيء من التردّد والمرارة:

« ـ هذه آخر جلسة لنا معاً. . هذه إرادة اللّه».

وبعد فترة قال كمن يخاطب نفسه: «لا أريد شيئاً سوى رؤية شاه روخ مرة أخرى ، ولكن هذا. . . . . . شيء مستحيل».

وربما كانت هي المرة الأولى التي نطق بها كلمة مستحيل!.

[٢]
بعد وفاة تيمور

خسرت الدولة ، بوفاة تيمور ، أكثر من إمبراطور . وهو لم يرضَ قطّ أن يحمل هذا اللقب أو شيئاً شبيهاً به . وقد جعل من سكّان ما وراء النهر قوة عظمىٰ ، وصاروا بواسطته وتحت قيادته أسياداً على منتصف العالم المعروف تقريباً.

كان ضبّاط الجيش أبناءً وأحفاداً لأناس عملوا مع تيمور . وقد استمرّوا ، لحوالي خمسين سنة ، لا يعرفون إرادة غير إرادته . وكان العسكر وسكّان المدن أيضاً مؤلّفين من خليط من الأجناس ، فكان منهم مغول الهوردة الذهبية ، أتراك ، فرس ، أفغان ، وسوريّون ، ولم يكونوا بعد قد انصهروا كاملاً في بوتقة شعب واحد . وكان الاحترام الذي يكنّه الجميع لتيمور عظيماً ، والحزن على موته عامّاً صادقاً ، بحيث لم يفكر أحد ، في الجيش ولدى السكّان ، إلاّ بتنفيذ أوامره الأخيرة . ولو أن خليفته وحفيده بير

محمد لم يكن غائباً في الهند ، ولو كان ابنه شاه روخ منصرفاً بكليته إلى حكومته الخاصة في خراسان ، ولو أن قادة الجيش لم يحاولوا ، بإطاعة عمياء ، أن يستمروا على الطريق إلى الصين ، لولا ذلك لكان من الممكن أن تبقىٰ الإمبراطورية متماسِكة وفي كيان واحد . وفيما عدا بير محمد وشاه روخ ، فإنه لم يكن هناك من كان قادراً على الإمساك بالأعنة التي أسقطها الموت من يد الفاتح الكبير . وهنا كان أول خطأ فادح لتيمور عندما قرّر التوجّه في حملته إلى الصين . كان عليه أن يصطحب بير محمد أو شاه روخ معه ، في هيئة القيادة قريباً منه ، وأن يضع بقية أحفاده غير الجديرين بالثقة ، وبخاصة خليل ، في مراكز بحيث لا يكون لهم فيها حول وقوة بصورة فاعلة . ولكن هذا التدبير لم يحصل ، وكان بنتيجة ذلك أن تداعت إمبراطورية الفاتح كما سيأتي .

قام القادة الكبار بعمل ما رأوه باستطاعتهم . عقدوا جلسة رسمية ، قرّروا على أثرها أن يبقوا وفاة تيمور سرّاً ، وأن ينتخبوا أحد أحفاده لقيادة الجيش ، على اعتقاد بأن الصينيّين لن يفكّروا أبداً أو يعتقدوا بوفاة تيمور فيما إذا ظهر الجيش عند الجدار الكبير . وبدا أنهم واثقون من استطاعتهم على افتتاح الصين ، وكان هذا أيضاً خطأً كبيراً ؛ فقد كان على هؤلاء القادة ، كما أرىٰ ، أن يبقوا حيث هم ، ينتظرون وصول بير محمد ، ويراقبون بعين الصقر تصرّفات وسلوك بقية الأحفاد! .

أُرسل جثمان الفاتح ، مع أولوخ به الابن الأكبر لشاه روخ وقوة كبيرة للمواكبة إلى حيث كانت زوجته الأولى تنتظره . وأرسل السعاة إلى بير محمد بأقصىٰ السرعة . وأرسلت صورة عن تطوّر الأحداث إلى حكّام الولايات البعيدة وإلى أمراء العائلة[1] ، ثم تحرك الجيش في طريقه إلى الصين . لكن ما كاد الجيش يتحرك حتى توقف ؛ فقد جاء الخبر بأن قادة الميمنة قد تعهدوا بالولاء لخليل بن ميران شاه[2] ، وخطّطوا لإجلاسه على عرش سمرقند . وعمد قائد الميسرة ، في نفس الوقت ، إلى تسريح جنوده ، وأسرع عائداً إلى سمرقند .

تداول القادة الكبار ، وعلى رأسهم نور الدين ، فيما بينهم مرّة أخرى . لم يعد بوسعهم المضي في الحركة إلى الصين ، تاركين نزاعاً على السلطة خلفهم . وقرروا أن

---

(١) كان يجب أن يحتفظ بالوفاة سرّاً إلى ما بعد حضور بير محمد.

(٢) انتهى ميران شاه، بن تيمور، إلى حالة من الجنون، وكاد تيمور أن يعدمه لِمَا قام به من أعمال شاذّة شائنة في ولايته.

يعودوا أدراجهم ، واستطاعوا ، بمسيرات قسرية ، أن يلحقوا بالموكب الجنائزي عند سير داريا . وعند وصولهم إلى سمرقند ، وجدوا أبواب العاصمة مقفلة في وجوههم ، رغم أنه كان معهم الزوجة الأولى سارة مولخ خانم ، وجثمان تيمور ، والعَلَم الإمبراطوري والطبل الكبير . كان حاكم المدينة ، وهو آمر الميسرة الذي سبقت الإشارة إليه ، قد وضع نفسه تحت تصرّف خليل ، وكتب إلى القادة قائلاً بوجوب وجود شخص على العرش إلى أن يعود بير محمد.

إلّا أن الفتىٰ خليل ، عاشق الغانية الفارسية الحسناء ، شادية مولخ ، كان يرى أنه أحقّ بالعرش من ابن عمّه بير محمد ، وكانت تدعمه حاشية قوية من النبلاء والضبّاط المكتسبين بتأثير والدته اللعوب خان زاده ، وكانت قد خطّطت لهذا الأمر منذ وقت طويل . وراح سكّان سمرقند في حيرة من أمرهم . فقد مات تيمور بعيداً وراء الحدود ، ولم يسمعوا وصيّته وهو على فراش الموت . وكان أن أُجلس خليل على العرش ونُودي به إمبراطوراً .

كان أول عمل لخليل هو الزواج من شادية مولخ ، التي كان يشغف بها حبّاً ، والتي كان تيمور قد أمر بقتلها فأنقذتها الزوجة الأولى سارة بحجة أنها كانت حاملاً من خليل . وكان هذا صغيراً جداً ليحكم بمقدرة وحكمة ، متعنّتاً ثملاً بالثراء العريض الذي وقع تحت يده ، وواقعاً بكليته تحت نفوذ الفارسية الحسناء ، وقد انصبّ ينتقل من حفلة إلى أخرى ، ينظم الشعر متغزّلاً بإمبراطورته ، ويبعثر كنوز الدولة وأموالها . وقد اكتسب بهاؤه ، لمدة ، وتبذيره الطائش شعبية وأتباعاً على السواء . ثم أخذ يسرّح الضباط الكبار لصالح رجال من اختياره ، من فُرس وندماء وآخرين من هذا النوع . والغانية شادية مولخ ، التي كانت قد أُنقِذت من الموت بفضل زوجة تيمور الأولى ، لا تفكّر الآن إلّا بتحقير سارة خانم . كان الآن حفل من المساخر يحكم في سمرقند . كانت الحجارة الثمينة تبعثر على التراث ليتراكض الناس على التقاطها، وكان الخمر يجري من نوافير البرك.

كان خليل يطرب ، وشادية مولخ تثأر وتنتقم وقد تعاونا فيما بينهما لقيام حرب أهلية .

جاء بير محمد في وقته من الهند، فهزمه جيش خليل. وتتابعت الأحداث بسرعة . فقد تحرّك أمراء الجيش القدامىٰ ، بعد هزيمة بير محمد ، وعمدوا ، مع قسم من الجيش الذي بقي موالياً لهم ، فانقضّوا على سمرقند ، وتغلّبوا على خليل ووضعوه

في السجن ، وقتلوا شادية مولخ . وأخيراً خرج شاه روخ عن صمته وعـدم مبالاتـه ، فتحرّك من خراسان واحتلّ سمرقند ، وعيّن ابنه أولوخ به حاكماً عليها . وقد استطاع شاه روخ وابنه أن يحافظا على دولة تيمور من الهند إلى العراق . ونشطت التجارة والحضارة في أيّامهما واستبحر العمران . كانا رجلي سلام ، يرعيان الآداب والفنون ، ويتجنّبان الحرب ، لكنهمـا كـان حكيمين في سيـاستهمـا وفي اختيـار الأعـوان والمسـاعِـدين والعسكريين المتمرّسين الموثوقين . وفيما بعد ذهب أحفـاد شاه روخ وأولـوخ به إلى الهند ، فأسّسوا العائلة المالِكة التي عرفت باسم موغول الهند ، والتي حكمت هذه البلاد فعلاً حتى العام ١٧٠٧م ، واسمياً حتى عام ١٨٥٨م.

[٣]
الإعصار التيموري وتأثيره في العالم

وكما كان تأثير الجدّ ، جنكيزخـان ، من قبل ، فإن المسير الغربي لتيمور قد غيَّر في مجرى التطور السياسي والاجتماعي للأشياء ، وكان ذا تأثير كبير على مستقبل العالَم ، ومستقبل أوروبا بوجه خاص . فقد أعاد ، بعد انغـلاق لمدة ١٠٠ عـام ، فتح طـرق التجارة بين القارات ، وجعـل تبريـز مركـزاً للتجارة في الشـرق الأدنى ، وفي متناول الأوروبيين عوضاً عن بغداد . ولكن وفاته المفاجئة وما أعقبها من الفتن والاضطرابات في مختلف أرجاء الإمبراطورية أضرّت بالتجارة مع كل آسيا ، وكان ذلك أحد الأسباب التي دفعت بكريستوف كولومبس وفاسكو دي كاما إلى الانطلاق للتفتيش عن طريق جديدة ، عبر البحر ، إلى الشرق الأقصى.

إنّ سحق تيمور للهوردة الذهبية فتح الطريق أمـام الروس ليجعلوا أنفسهم شعبـاً حرّاً . وقد أُبيد آل مظفر في فارس ، وصارت فارس ، بعد مضي قرنين ، إمبراطورية مرموقة بقيادة الشاه عبّاس . وقد سُحق الأتراك العثمانيون في معركة أنقرة ، لكنهم سريعاً ما تمالكوا أنفسهم وتمكنوا من احتلال القسطنطينية عام ١٤٥٣م . وفي مصر ، بعد وفاة تيمور ، سارع السلطان المملوكي في القاهرة إلى تناسي قَسَم ولائه وتبعيته . وفيما يتعلّق بقره يوسف والسلطان أحمد بن عويس ، فقد عادا إلى بلادهما ما بين النهرين ، ليعودا إلى المخاصمة من جديد.

تراجـعت عناصر الجيش التيموري المختلفة ، بقيادة نور الدين ورفـاقه من كبـار القادة ، عائدة إلى السهوب والقلاع الحدودية ، حيث يعيش اليوم خلفهم من قيـرغيز

وكلموك . وحصل ، بنتيجة موت تيمـور كذلـك ، فراق وطـلاق بين محاربي طـوران أصحابِ الخوذ ، وبين الرجال المعمّمين من أهل الجنوب ، من شعوب وأقوام إيران المتحضِّرة . لقد كان تيمور شؤمـاً على العالم العربي . كان مجيـئه كما لو كان للقضاء نهائياً على ما كان قد سلم من تدمير جدّه جنكيزخـان ، من سيادة للعرب ومن حضارة ، ومهّد الطريق لوقوع البلدان العربية تحت السيـطرة العثمانيـة الغاشمـة . وكان تيمـور مسلمـاً ، ومُدَّعيـاً الجهاد في سبيـل الإسلام ، لكنـه كان بـالفعل وبـالاً على جميـع المسلمين .

لَمْ يقم أحد بعد تيمـور ، ليحاول وينجـح في السيطرة على العـالم . لقد سـار الإسكندر الكبير على خطوات قورش العظيم ، وسار تيمور على خطوات جنكيزخـان ، وحقّق أكثر مما حقّقه الإسكندر من فتوحات ، وهو الأخير في سلسلة الفاتحين العِظام . وإنه لَمُسْتَبعد اليوم أن يستطيع مخلوق بشري أن يحقّق بالسيف ما حقّقه هؤلاء الفاتحون .

الفصل السّابع والعشرون

العسكرية التيمورية

التأسيس ـ الرتب ـ الرواتب والمكافآت ـ التموين والإمداد ـ الروح المعنوية ـ الإنضباط ـ التعبئة ـ الاستطلاع والبحث عن المعلومات ـ الخطط والعمليات العسكرية الإسلامية.

[١]
التأسيس

لم يؤسِّس تيمور ، كما فعل جنكيزخان ، عسكرية من تفكيره وعمله ، وإنما أقام قوّاته المسلّحة على قاعدة إشراك القبائل البدوية في غاراته وحملاته لقاء الاشتراك في تقاسم الأسلاب والغنائم . وكانت لهذه القبائل عسكرية موزوثة عن عسكرية جنكيزخان إلى حدٍّ ما ، ولكنها لم تكن كعسكرية الفاتح المغولي شدة وقوة في النظام والانضباط . وكانت اللحمة ، في بادىء الأمر ، مزيجاً من حبّ المخاطرة وشهوة المغنم . ثم أضيف إلى ذلك ، مع تتابع الانتصارات وتكاثر الغنائم ، صيت تيمور وحسن طالعه ونجاح حملاته ، الأمر الذي حمل كل راغب في المخاطرة والغنيمة على الشعور بالفخر والاعتزاز فيما إذا هو استطاع الانضمام كمحارب فرد أو كمجموعة إلى أحد ألوية هذا القائد الذي لا يُهزم .

مع مضي الوقت ، وتعاظم الثروة واتساع رقعة البلدان المكتسبة ، أخذ يظهر بالتدريج شيء من جندية نظامية ، في تشكيلات الحرس لدى الفاتح وأولاده في أوّل الأمر ، وثم في حاميات المدن والقلاع والقوة الضاربة .

كان حرس تيمور الخاص مؤلّفاً من ١٢ ألفاً . وقد اختار الضبّاط من بين البهادور والأفراد من الرجال المشهود لهم بالبطولة وجلائل الأعمال . كانت تُدفع لهم رواتب زمنية ، بالإضافة إلى مكافآت مشجّعة ونصيب من الغنائم والأسلاب . وكان يقول:

«ـ يقتضي للعسكري المتفرِّغ للجندية أن لا يفتقر لا إلى المرتبة ولا إلى الراتب . فالرجل من هذا النوع ، الذي تخلّى عن السعادة الدائمة من أجل شرف قابل للتلف ، يستحق كل مكافأة».

كان يصرّ على هذا الرأي ويعمل بموجبه ، وكان يسهر على تسجيل أسماء جميع المجندين ، وعائلاتهم وأولادهم ، وعلى أن تكون العلاوات والمكافآت والامتيازات مثبتة في السجلات بواسطة الكتبة المختصّين.

[٢]
الرتب

كان فرد الصفّ يُرفع إلى رتبة زعيم العشرة بناء على شجاعته ومهارته الشخصية . وكان آمر الفصيلة يصبح قبطاناً آمراً لمئة ، وهكذا دواليك . وكانت هناك إشارات تمنح تشريفاً ومكافأة ، كحزام مرصّع أو معطف مطرّز مع ياقة مذهّبة ، وأحياناً كسيف أو حصان . وكان يُعطىٰ إلى قائد الفرقة علم وطبل ، وإلى قادة الفيالق علم جيش وطبل كبير . وكان يحقّ لهؤلاء الأمراء أن يأتوا معهم بمئة حصان . وعندما كان هؤلاء الأمراء يحقّقون انتصارات ، فقد كانوا يمنحون مكافآت أعظم وأضخم ، مثل إقطاع مدينة مع عائداتها ، أو ولاية في بعض الحالات . وكان الترفيع للكفاءة فقط ، وذلك رغم أن بعض أمراء الجيش الكبار كانوا من أفراد العائلة المالِكة . وكان القائد جاكو برلاس أحد القلائل الذين ظلوا على قيد الحياة ، وقد تقاعد ، في جلال وعظمة ، مع مرتبة أمير الأمراء[1] ، وحكومة بلخ كَهِبْة إضافية.

كان تيمور يكره الشخص الذي يُوْجِد الأعذار لفشله ، أو الذي يتحاشى المخاطر والأزمات ، أو الذي يتأكّد من طريق تراجعه قبل أن يقدم ، وكان لا يطيق الغباوة والحماقة ، وكثيراً ما كان يقول:

«ـ عدو عاقل أقلّ ضرراً من صديق غبي أحمق!».

---

(١) أعلى رتبة عسكرية.

[٣]
الرواتب والمكافآت

حُدِّدت رواتب الجنود بقيمة الخيول . ويتراوح الراتب بين قيمة حصان واحد وقيمة أربعة أحصنة . كان العريف ، رئيس الحضيرة (زمرة العشرة) يتقاضى عشرة أضعاف راتب الخيّال العادي . ويتناول آمر المئة ضعف راتب آمر العشرة . وكان راتب أمير الألف ثلاثة أضعاف أمير المئة ، وراتب أمير التومان (الفرقة) ثلاثة أمثال راتب أمير الألف ، وراتب أمير الفيلق ضعفي راتب أمير التومان . وكانت الألقاب والمكافآت التي تُمنح للبارزين من أفراد القوّات كثيرة ، أخصّها رايات محلاّة بذيول ، طبول ، لقب بهادور (شجاع) .

[٤]
التموين والإمداد

عريف العشرة مسؤول عن تلافي كل نقص في حضيرته . كان يعطى لكل خيّال في الحضيرة كفايته من الألبسة والأسلحة في كل وقت . وكان اللباس واحداً للجميع ، ويتألّف من قلنسوة مخروطية ـ اللباس التقليدي للجغطائيين ـ ومن معطف ذي قبة رأسية ، وأحذية بِسِيقان طويلة . وكان الخيّال يمتطي جواداً ويجرّ خلفه جواد احتياط . وكان السلاح الفردي مؤلّفاً من سيف وقوس وفأس وجعبة للسهام . وكان يُعطى لكل خيّال مثقاب ، أبر للخياطة ، أداة حفر وجرف وحقيبة جلدية ظهرية . وكانت لكل حضيرتين خيمة للإيواء . وكانت ترافق الجيش فرق إسعاف لتقديم المساعدات على وجه السرعة .

[٥]
الروح المعنوية

كان تيمور يولي المعنوية اهتماماً عظيماً . وكان لذلك يحثّ على النصر ويعمل له ، ويجهد ليكون معروفاً ومحبوباً من الجميع . كان يعامل الجنود كأنّه واحد منهم ، ويردّد أمامهم قائلاً إن كل ما أحصل عليه سأقتسمه معكم . وكان لا يجلس إلى طعام إلاّ ومعه عدد من جنده . وقد نجح في حمل أتباعه على التعلّق به إلى حدٍّ كبير.

كان لا يفرّق ، من أجل النصر ، بين كبير وصغير . وكان أولاده يشتركون مع الجند

في نقب الأسوار واقتحامها . وقد فقد كل أولاده ، باستثناء شاه روخ ، وكثيراً من أحفاده في ساحات القتال . وكان في كثير من المناسبات يضرب المثال لجنده من نفسه . كان يحاول دائماً أن يقنع جنده بأن المعارك التي يخوضها هي سبيل إلى زيادة الغنائم ، وأن من يفرّ من المعركة لا نصيب له من غنائمها . وكان يتقصّد أن ينشر بين الجنود قصصاً عن المآثر الشخصية للمحارب الشجاع ، وأن مثل هذا المحارب يستطيع بلوغ أعلى الرتب.

[٦]
الانضباط

كان الانضباط العسكري في الجيش التيموري ذا مستوى رفيع ، وكانت الإطاعة ، من الأدنىٰ للأعلى ، واجبة في السلم والحرب . وكانت هناك عقوبات لحالات التأخّر عن الالتحاق بالقطعات العسكرية ، والعصيان والفرار والتجسّس . كان بعض هذه العقوبات معنوياً كالتوبيخ والتنديد ، وبعضها مادياً كالحرمان من غنائم المعارك ، وبعضها جسدياً قد يصل إلى الصلب وضرب العنق.

[٧]
التعبئة

كان الجيش ، في الحركة والتوقّف والقتال ، يتوزّع إلى مقدّمة ومجنبتين وقلب ومؤخرة . وكان كل جزء من هذه الأجزاء يتوزّع بدوره إلى مقدمة وميمنة وقلب وميسرة ومؤخرة . وكانت المعسكرات تُحاط دائماً بخندق وبسور من التراب أو من جذوع الأشجار.

[٨]
الاستطلاع والبحث عن المعلومات

كان من مهمات الأجنحة أن تشاغل العدو وأن تحاول تطويقه ، عامِلة في نفس الوقت على استطلاع أخباره وأحواله ، والبحث عن الطرق المؤدية إلى أماكن تجمّعه ، ودراسة مداخل معسكراته ومخارجها . وكان الكشّافة يتتبعون الآثار التي يخلفها العدو ، ويحاولون تقدير حجم قوّاته من دراسة هذه الآثار ، وكثيراً ما كان يُلجأ لذلك إلى استفراد أحد عناصر العدو وأسره.

كانت المعلومات الحاصلة تُرسل إلى القيادة على وجه السرعة ، على صورة عرض يتضمن شرحاً للواقع الجغرافي ، تقديراً للمسافات والطرق ، الأنهار وجسورها ونقاط عبورها ، رسوماً يدوية تحدّد عليها المواقع بأسمائها . وكانت العادة أن يسبق حركة الجيش ، بوقتٍ كافٍ ، إرسال جواسيس وعملاء إلى بلاد العدو ، يتجوّلون في مدنه وقراه منتحلين صفة تجّار أو متصوِّفين أو مهرِّجين ، وقد استخدمت النساء كثيراً في هذا المجال . وكانت تتقدّم الجيش فرق استطلاع خاصة ، لمسافة يوم واحد ، لدراسة الأرض واختيار أرض المعركة ، على أن تتوفر في هذا المكان المياه ، وتكون أشعة الشمس باتجاه وجوه الأعداء.

[٩]
الخطط والعمليات

كانت الخطط توضع بحيث لا يترك فيها شيء للحظ والمصادفة . وكانوا يعلقون أهمية خاصة على لحظة بدء الهجوم ، ويعتبرون الحركة ، عند انطلاق الهجوم ، بمثابة دليل على قيمة القائد من حيث الفن العسكري والمهارة القتالية . والقائد الماهر هو الذي يحرِّك قطعاته ، أثناء القتال ، كما يحرّك يديه ، ويستخدمها كما يستخدم خنجره وهراوته وحربته ، في الوقت المناسب ، وبشكل يضمن تَآزرالقطعات وتعاونها بعضها مع بعض ، كالرجل الواحد الذي يُقاتل بأجزاء جسمه كلّها.

كانت المحاربة النفسية تحتلّ مكاناً بارزاً في تفكير تيمور وتخطيطه . كان يعمل على تحطيم المعنوية وروح المقاومة لدى الأعداء ، كنشر الإشاعات ، والتحريض على الانضمام إلى صفوفه ، والتظاهر بالحيلة بكثرة قواته ، واستغلال المنافسات بين قادة العدو.

[١٠]
العسكرية الإسلامية

منذ الهزيمة المروعة للروس ، عام ١٢٢١م ، على يد مارشالات جنكيزخان ، وسقوط لويس ملك فرنسا في وجه المماليك في المنصورة في مصر ، إلى هزيمة الفرسان الأوروبيين أمام بايزيد عند نيقوبوليس ، كانت العسكرية الإسلامية متفوِّقة في جميع الميادين . والإستثناءان الوحيدان هما نجاح الكتلانيين ـ كانوا جنوداً محترفين

بقيادة ضباط مجرّبين متمرِّسين ـ حول القسطنطينية عام ١٣٠٩ ، وهزيمة العرب في اسبانيا ، عام ١٤٦٩م.

كان المسلمون يستعملون القوس الخفيف والقوس الثقيل . وقد استعمل التيموريون أقواساً متعدّدة الطول والأوزان . كان القوس الكبير ثقيلاً ، بطول خمسة أقدام وما فوق ، وبقوة قذف تبلغ سبعين كيلو غراماً . وكان من الممكن لمثل هذا القوس أن يرمي حتى مسافة ٤٥٠ متراً تقريباً . وكانت هناك ، أيضاً ، للاستعمال رؤوس نبال متعدّدة الأنواع بعضها مصمم لاختراق التدريع ، وبعضها لقذف نبال متفجِّرة ونفط مشتعل . وقد تفوّق التيموريون بمدفعيتهم . فقد استعملوا الراجمات والعرّادات والمنجنيقات المحمولة على ظهر الدواب ، واستعملوا كذلك أنواعاً متعدّدة من قاذفات اللهب . ليس لدينا وصف لهذه القاذفات ، سوى القول بأنها وعاء للنار . ومن المعلوم أن الصينيين ، منذ مئات السنين قبل تيمور ، كانوا يستعملون البارود في الحرب . كانوا يستعملونه كمتفجرات ، وليس من الواضح كيف كانوا يفعلون ذلك . وكان مع جنكيزخان ، عندما غزا الغرب ، عام ١٢٢٠م ، مدفعية صينية تستعمل قاذفات اللهب . وقد عرف تيمور هذا السلاح ، كما عرف واستعمل النفط الذي كان يستعمله العرب والفرس.

استعمل العرب ، أثناء الحروب الصليبية ، عدة أسلحة نفطية ، كان منها عصا تنتهي برأس زجاجي على شكل كرة مملوءة بالنفط . وكان لها فتيل يولّع ثم تُلقىٰ العصا على العدو ، أو تُكسر الكرة الزجاجية فوق درعه ، فيسيل النفط المشتعل على جسمه . ويكون العرب بهذا الاستعمال أول مخترع لما يسمى اليوم «زجاجة مولوتوف» . وكانت هناك راجمات ترمي قذيفة من الفخار محشوة بالنفط أو بالنار اليونانية . وكان هذا النوع كثير الاستعمال في الحصار . وفي رواية عن إحدى الحصارات ، حيث كان الصليبيون قد بنوا أبراجاً خشبية تشرف على الأسوار ، فأخذت ماكينات العرب تقذف هذه الأبراج بعدد من القذائف التي كانت تتحطم عند اصطدامها بالجدران الخشبية في كل برج ، ويخرج منها سائل يتشرّبه الخشب ، لكن دون أن يحدث ضرراً . أخذ الصليبيون يهزأون بالعرب المحاصرين ، واستمرّ هؤلاء على تشريب الأبراج الخشبية بذلك السائل ، وأخيراً أخذوا يلقون على الأبراج بمشاعل مشتعلة ، فراحت الأبراج ومن فيها ناراً متأجِّجة ، وكان ذلك السائل نفطاً.

الفَصل الثامِن والعشرُون

تقييم عام لتيمورلنك

تيمورلنك معلّم أعظم ـ المعلّمان جنكيزخان وتيمورلنك ـ إهرامات الجماجم ـ طباع تيمورلنك ـ ألقابه ـ خلاصة.

[١]
تيمورلنك معلّم أعظم

نستعمل ، في هذا الفصل ، الاسم التاريخي لبطلنا وهو تيمورلنك ، أي تيمور الأعرج . ولدى الأوروبيين اصطلاح «ماستر» ، ويعني السيِّد ، أو المعلّم الأعظم أو الأكبر ، وتيمورلنك ، كجدّة وسلفه جنكيزخان ، معلّم أعظم في العسكرية ، وليس في التاريخ المعروف شخص آخر يستحق أن يُمنح هذا اللقب ، وهو أعلى وصف يمكن أن يُعطى لقائد عسكري .

يقول سير برسي سايكس إنه ليس هناك ، في الأزمنة التاريخية ، من فاتح نجح فحقّق مثل ما حققه تيمورلنك من إنجازات ، وبالتالي فليس هناك من فاتح يحقّ له أن يتمتع بمثل شهرته . إن إنجازات تيمورلنك تصل تقريباً إلى حدود ما فوق الطبيعة البشرية .

[٢]
المعلّمان تيمورلنك وجنكيزخان

يتمتع جنكيزخان وتيمورلنك بعبقرية عسكرية لم تكن لأحد من قبل ولا من بعد . ومهما يكن إعجابنا بفتوحات الإسكندر الكبير، وحملات سيزار الروماني وإنجازات شيبو الأفريقي ، فقد صار الآن واضحاً أن الفاتحين الأسيويين هما من صنف العمالقة وأن الآخرين أقزام بالمقارنة معهما . إنهما أساتذة في فنون الحرب وإدارتها بلا مثيل على

المسرح العالمي. ومن المحتمل أن يكون آخرون قد حاولوا تقليد أعمالهما، لكن بصورة مصغّرة وليس على مسرح الأرض ككل.

تظل شخصية جنكيزخان، لتاريخه، منطوية على مقدارٍ كبيرٍ من الغموض والسريّة. وهناك لدى تيمورلنك شيء كثير مما لا يمكن فهمه. هل كان لدى جنكيزخان مثلاً مخطّط متبحّر لاحتلال العالَم، أمْ كان فقط مجرّد بربري ملهم؟! . لقد كان حكيماً حقّاً، وكانت حكمته كارثة على العالم الذي نعيش فيه!، وكذلك فإن باستطاعتنا أن نقيِّم إنجازات تيمورلنك الجبّارة ونُنْعم التفكير فيها، ونظل رغم ذلك نبحث عبثاً عن السرّ في نجاحه!.

إننا نتفهّم الإسكندر ولا نعجز عن معرفة طموحاته وواقعه. فقد كان ابناً لفيليب الثاني، ووارثاً لجيش قوي. وقد اكتسح فاتحاً، دون توقّف، جميع المناطق المفتوحة قبلاً من قبل الإمبراطورية الأخيمينية، وهي الإمبراطورية التي قامت على أنقاضها فتوحاته وإمبراطوريته. ولكن الأمر ليس بمثل هذه السهولة فيما يتعلّق بجنكيزخان وتيمورلنك؛ فبيننا وبين هذين الفاتحين العملاقين، القادمين من أقاصي آسيا، يقوم حجاب المسافة وغرابة عالم آخر!.

هناك أشياء نستطيع أن نقولها عنهما بسهولة. فَهُمَا، كالإسكندر، كانا يتمتّعان بجَلَد وطاقة احتمال وحيوية دافقة لا تقف عند حدٍ، وهنا يتوقف التشابه؛ فالفاتح المغولي جنكيزخان كان صبوراً متأنّياً، وكان تيمورلنك مندفعاً عنيفاً. وكان المغولي الكبير، بعد سنواته الأولى، يدير حملاته من مقرّاته؛ أما سيِّد سمرقند فكان من عادته أن يوجد بنفسه على مسرح الأحداث. وكان بدوي صحراء كوبي يتقاسم مسؤولياته مع وزراء وجنرالات، أما تيمورلنك فقد كان يأخذ على نفسه جميع المسؤوليات.

هل كان ذلك سياسة؟ أم هل كان جنكيزخان أحسن حظاً في نوعية مُسَاعِدِيه؟ يبدو أن الأمر كذلك. فوزراء الفاتح المغولي، وأبناء الحرب الأربعة: سوبوداي، جيبه نويون، موخالي وبايان، كانوا أكثر من قادرين، كلٌّ بمفرده، على تنظيم حملة وقيادة حرب. وهُمْ بعد موته ـ الأحياء منهم ـ قد توسّعوا كثيراً في حدود إمبراطوريته. أما سيف الدن، جاكو برلاس، وشيخ علي بهادور وأمثالهم من القادة فإنهم لم يحقّقوا قط لتيمورلنك شيئاً شبيهاً بإنجازات أبناء الحرب السابقي الذكر.

مغول القرن الميلادي الثالث عشر، بجهود جنكيزخان وعبقريته، كانت لهم قابلية

خارقة للزعامة والحياة الحربية ، وتماسك نحلي[1] يجعل التعاون تامّاً كاملاً فيما بينهم . أما التيموريـون ، في القرن الميـلادي الرابـع عشر ، فقـد كانـوا ، كجنود هـانيبال ، ملتحمين متماسكين سوية فقط بصورة جزئية . لقد كانوا ، في غياب تيمورلنـك ، سريعاً ما يفقدون فعاليتهم. المغول، من جهتهم، كان باستطاعتهم أن يتحرّكوا ويناوروا في فيالق متفرِّقة متباعدة . أما تيمورلنـك ، في مواجهة عدوّ قوي ، فقد كان يتحرك دائماً بقوة ، بالجيش كله في قبضة يده.

كان جنكيزخـان ذا مهارة خارقة في التنظيم ، وفي تحريك الجيوش . كان يخطِّط لكل حملة من جميع جوانبها ، ويناقشها مفصّلة لأسابيع مع مارشالاته قبل أن يضعها قيد التنفيذ . وكأستاذ حرب ومعـلِّم أعظم في الاستراتيجية ، فإنه كان يتفادى المعركة إذا لم تكن لازمة ، ويتحرك رأساً إلى إبادة قلب المقاومة وموت القائد الخصم . وكان الإرهاب والكتمان يحيطان بتحرّكاته ، ويترك خلفه حصيلة مخيفة من الأموات.

إن شلل الخوف المنبعث عن تقرّب المغول كان يكـاد يكون خـارجاً عن حـدود التصوّر . ومما يروى عن ذلك ، أنه بعد الاستيلاء على إحدى المدن، جمع محارب مغولي واحداً وعشرين أسيراً تمهيداً لقتلهم ، ثم وجد أنه قد نسي أن يأتي بسيفه معه ، فأمر أسراه ، وهم غير مقيّدين ، أن ينتظروه إلى أن يعثر على سيفه ويعود به ، وقد فعلوا ذلك ، ما عدا واحد منهم ، وهو الذي روى الحادثة! .

كان تيمورلنـك حريصاً مدقِّقاً في إعداداته ، كجنكيـزخـان ، لكنّه لم يكن ذلـك الاستراتيجي البالغ حدّ الكمال كالفاتح المغولي . كان جنكيزخـان يتجنّب الصعوبات ، في حين كان تيمورلنـك يواجهها ويتغلّب عليها . ولم يكن المغولي لينطلق قطّ عَدْواً على جواده في طليعة للدخول إلى مدينة ، كتيمورلنـك في بغداد مع مئات من جنوده ، أو ليصعد لوحده متسلِّقاً جداراً كما فعل تيمورلنـك في كارشي.

كان جنكيزخـان يبدأ أولاً بإحلال الخراب والدمار في ولايات وأقاليم بكاملها ، لكي يناور خلال الفوضى الحاصلة من جرّاء ذلك . أما تيمورلنـك فإنه كان يمكِّن خصمه من حشد قوّاته ، ثم يتقدّم إلى لقائه لخوض المعركة . وكان في آخر حياته دائماً منتصراً . كان يتحرّك جاهزاً لمـواجهة كـافة الاحتمـالات ، ويعتمد على كفـاءته لعمـل الشيء الصحيح في الوقت الصحيح لتحطيم قوىٰ العدوّ ، ولم يكن يبدو أن هناك ما يربكه.

---

(١) من نحلة.

إننا لا نعلم يقيناً كيف نَمَتْ وتطورت تلك البصيرة الاستراتيجية لدى جنكيزخـان ، ولا كيف أسّس وبنىٰ ، في صحرائه ، عسكريته الرائعة تلك . وكذلك فـإن السرّ في انتصارات تيمورلنـك يبقى لغزاً من الألغاز! . قد يكون تيمورلنـك أعظم من جنكيز كقائد ميدان ، ولكن عسكريته واستراتيجيته قد لا تكونا من مستوى هذا الأخير.

[٣]

إهرامات الجماجم

كـان الإسكندر الكبيـر أقـلّ الفـاتحين العِـظام سفكـاً للدمـاء ، أمـا جنكيـزخـان وتيمورلنـك فقد بالغا في قتل الناس وإزهاق أرواح الأبرياء ، ولم يعرف التاريخ كثيراً عن إهرامات الجماجم إلاّ بعد جنكيزخـان وتقليداً له . ولكن الفاتح المغولي لم يكن ليقدم على قتل الناس بالجملة إلاّ تأديباً وعقاباً على عصيان وثورة بعد استسلام . أما تيمورلنـك فكثيراً ما يقف المرء عاجزاً عن معرفة السبب في مذابحـه ومجازره . والحـديث عن الجماجم البشرية ، في التاريخ الأوروبي خاصة ، مرتبط باسم تيمورلنـك . ولا شك أن تلك الأعمال كانت فظيعة مروعة ، وتظهر على هذه الصفة في جميع التواريخ.

غير أنه لا يصحّ أن نقيّم تيمورلنـك بمقاييس حضارة اليوم . لقد غالىٰ حقاً في تقتيله للناس ، لكنه لم يبتدع في ذلك ولا كان مخالفاً لتقاليد عصره وعاداته ، فملوك هرات وآخرون كانوا يقيمون إهـرامات من رؤوس بشـرية كـأنصاب تـذكاريـة ، وقد اختلف تيمورلنـك عمّن عاصره فقط بكبر إهراماته وضخامتها . والشيء ذاته صحيـح بالنسبـة للمذابح . يجب أن لا ننسىٰ أن الفاتح السمرقندي كان يعيش حيث كانت الرحمة تُعتبر عادة كبادرة ضعف . ولم يكن الحكّـام الأوروبيون ، في زمـانه ، أكثـر منه ميـلاً إلى الرحمة . فالأمير الأسود[1] جعل من مدينة ليموج الفرنسية مجزرة ومقبرة جماعية لسكّان المدينة . وشارل ، ملك بورغاندي في فرنسا ، فتك في أهالي دينان كذئب بين غنم . وفي معركة أجينكورت قتل الإنكليز جميع الأسرى الفرنسيين للتخلّص منهم عند المرحلة الأخيرة من المعركة . وقتل نابوليون ، ابن القرن التاسع عشر ، أسراه العثمانيين قبل أن يغادر يافـا في طريقـه إلى عكّا . وفي نيقـويا[2] ، قتـل الصليبيون ، إنكليـزاً وألمانـاً وفرنسيين ، جميع أسراهم من صرب وأتراك قبل المعركة . ولا تختلف مذابح تيمورلنـك

---

(١) BLACK PRINCE، أدورار ولي عهد ملك انكلترا ادوار الثالث.

(٢) NICOPOLIE، في الأناضول، عاصمة للبيزنطيين مدة من الزمن.

عن هذه المذابح إلاَّ بالحجم والتاريخ .

يذهب بعض النقّاد والمعلِّقين العسكريين إلى القول بـأن المذابـح التي أمر بهـا تيمورلنـك كانت ضرورية لدواعي عسكرية لا مفرّ منها ، وأنه كان ، رغم ذلك ، أكثر تسامحاً من معظم الحكّام في عصره . وتقول رواية إنه ، في كل حصار ، كانت ترتفع أعلام بيضاء على خيمته ، في اليوم الأول ، إشـارة إلى أن باستطاعة سكّان المدينـة المُحَاصَرة أن يستسلموا ويكونـوا آمنين . . وأعلام حمـراء في اليوم الثـاني ، إعلامـاً للسكّان بأنهم إذا استسلموا ذلك اليوم فإن زعماءهم فقط مقتولون . . . وأعلام سوداء فيما بعد إشارة إلى أنهم سيقتلون جميعاً . لنأخذ على ما تقدّم مثلاً : فمدينـة هرات عُومِلت بِلِيْن في الحصار الأول ، وبصرامة مريعة في الحصار الثاني . وقد نجت بغداد في الحصار الأول بدفع جزية ، ودُمِّرت في الحصار الثاني . ونجت دمشق في الحصار الأول ، ثم دُمِّرت وأُحرقت بعد أن ثارت وفتكت بالحامية . ولو كان تيمورلنـك بمثل قسوة جنكيزخـان لما كان هناك من حاجة إلى حصار ثانٍ ، ولكنه كان ، كجنكيزخـان ، دون رحمة في القضاء على الثورات.

مـن المؤكّد أنه لم يكنْ عديم الشفقة في نظر أتباعه ، أما أعداؤه فيعتبرونه معدوم الضمير . ويتحدث المؤرِّخون الأسيويون عن بديـع إنجازاتـه أكثر ممـا يتحدّثـون عن قسوته ، باستثناء ابن عربشاه الذي كان يكرهه نتيجة لِسَبْيِه وهو صغير إلى سمرقند . كان تيمورلنـك مبذِّراً في حياة الآخرين ، لكنه كان يغامر في حياته . وكان بربرياً مثقّفاً ولذا كان يعرف ماذا يأخذ لنفسه وماذا يترك للنار والدمار.

[٤]
طباع تيمورلنـك

يحظىٰ تيمورلنـك ، في التاريخ ، بالحبّ والكره بقدرٍ عظيم وعلى حـدٍ سواء . والمؤرِّخان الاثنان ، اللذان عاشا في بلاطه ، يقدّمه أحدهما كشيطان والثاني كبطل لا مثيل له . فابن عربشاه يقول عنه إنه سفّاك لا يرحم ، محتال كبير وشيطان رجيم وطاغوت في الشرِّ والأذى . ويقول الثـاني ، وهو شـرف الدين ، «إن شجـاعته رَفَعَتْـه ليكـون أمبراطوراً ، وأخضعت كل آسيا لسلطته ، من حدود الصين حتى حدود اليونان . . . كان يدير الأمور بنفسه دون استعانة بوزير، وقد نجح في جميع مشاريعه . كان لطيفاً كريماً مع الجميع ، باستثناء أولئك الذين كانوا لا يطيعونه ، والذين عاقبهم لذلك بصرامة . كان

محبّاً للعدل ، ولا يسلم ظـالم في ملكه من القصـاص . كان يقـدّر العلم والعلماء ، ويسعى دائماً إلى مساعدة الفنون والعلوم . وكان عظيم الجرأة في تخطيطه ، وفي تنفيذ خططه . وكان لطيفاً مع الذين يعملون في خدمته».

نظـرة شرف الدين هذه يأخذ بها المعلِّقون المعـاصِرون ، من أمثـال سير بـرسي سايكس وليون كاهون . ويقول سير جون ملكولم:

« ـ كـان تيمورلنـك ولا شـك محبوبـاً من جنده . كـان لا يقيم وزنـاً لآراء غيـر العسكريين ، ولم تكن له رسالة غير طلب الشهرة كفاتح . كـان يعمد ، عمـداً ودون اكتراث ، إلى إحراق مدينة عظيمة وتحويلها إلى رماد ، أو إلى قتل سكّان ولاية بأسرها لمجرد إحداث تـأثير مخيف يسـاعد على تمهيـد الطريق إلى تحقيق أهـدافه . ولكن تيمور ، رغم ذلك ، كان أحد أعظم القادة العسكريين في العالم ، وأحد أسوأ الحكّام . كان مقتدراً ، شجاعاً كريماً ، لكن طموحاً قاسياً ومستبدّاً . كان يعتبر سعادة كل إنسان كريشة في الميزان ضد مجده الشخصي . وكان النسيج الضخم لقوّته بلا أساس ، قائماً بصيت الفاتح وشهرته . وقد انفرطت إمبراطوريته حال وفاته . لقد احتفظ أولاده ببعض أجزائها ، واستطاعوا في الهند فقط أن يظلّوا حاكمين لمدة من الزمن».

[٥]
تيمورلنـك والدِّين

كان تيمورلنـك مسلِمـاً ، ولكنه كـان يتقيّد بتعـاليم اليـاسـا ، شريعـة جنكيزخـان اللادينية . وكان ذرائعياً يستخدم الدِّين لمصالحه الخاصة . ولكن كثيراً من المؤرِّخين يقولون إنه كان مسلِماً يعمل مدفوعاً بالغيرة والحماس لأجل مجد الإسلام . وفي رأيـي أنه ليس من الممكن الوقوف على حقيقة مشاعره بخصوص الدِّين ما لم تدلّ على ذلك الأحداث والوقائع ، وأعماله هي أوضح دليل بين أيدينا.

لم يقبل قطّ أن يتبنّىٰ لقباً دينياً ، كما كانت عادة المسلمين الورعين في زمانه ، ولا أعطى لأولاده أسماءً بهذه الصفة ، وإننا لا نجد شيئاً من ذلك إلاّ في أسماء أحفاده ، فنجد محمد وبير محمد . وهو لم يحلق رأسه قط ، ولا لبس عمامة ، ولا تزيّا بألبسة المسلمين الصالحين . وكان وقومه يُدعون أنصاف مسلمين من قِبَل جيرانهم ، هذا إن لم يصفوهم بالضلال وعبادة الأوثـان . كان تيمـورلنـك ، في نظر هؤلاء الجيـران ، وثنياً بربرياً ، وعدواً يقتضي التحسّب له . ولم يكن كل ذلك تجنّياً ، فالطورانيون كانوا حديثي

العهد بالإسلام ، وكانوا جنوداً قبل أن يكونوا رجال دين.

لم يشر تيمورلنـك ، في مراسلاته . إلى نفسه كعاهل مسلم ، كما كان يفعل بقية الحكّام المسلمين . ولم يبد منه أي اهتمام بالأماكن الإسلامية المقدّسة ، مكّة والمدينة والقدس ، ولكنه كان من عادته أن يؤمّ المزارات على طريق مسيره ، سياسةً أم ميلاً؟! . ومن الثابت أنه كانت هناك جاليات يهـودية ومسيحيـة نسطوريـة وملكيت في سمرقنـد وتبريز ، وكانت لهم كنائسهم كذلك ، وقد استعمل مرة كاهناً مسيحياً كمبعـوث له . ولكن النقطة الأكثر حسماً معطاة من قِبل مبجّليه من المسلمين ، الذين فعلوا كل ما في وسعهم ليجعلوا منه مسلِماً معتقِداً متديِّناً . فبعضهم يزعم أنه كان مسلماً سنياً ، في حين يزعم البعض الآخر أنه كان مسلماً شيعياً! ، أما هو فقد قال عن نفسه فقط:

« ـ أنا تيمور ، عبد اللّه!» .

[٦]
سلطانه وألقابه

بنىٰ تيمورلنـك لنفسه سلطاناً كاد يكون بحجم السلطان الذي بنـاه جنكيزخـان . وتيمورلنـك لم يلقّب نفسه خاقاناً ، وقد حكم وعلى رأس إمبراطوريته خان اسمي ، مغولي تـورا ، أي من صلب جنكيزخـان ، وهو الصلب الذي يحقّ له أن يكون خاقاناً في نظر الطورانيين . ولم يتّخـذ تيمورلنـك لنفسـه لقب سلطان إلاّ بعد وفـاة صنيعته سيورغتميش عام ١٣٨٨م ، وقد اكتفى ، حتى ذلك التاريخ ، بلقب الأمير . أما خطباء المساجد فكانوا يغدقون عليه ألقاباً شتى : السلطان العادل ، الخاقان الراشد ، الباديشاه الشهير، الأمير المجيد. وعُرفت له ألقاب أخرى: صاحب القران أو كوركان، وهو لقب مغولي الأصل ويعني صهر الحاكم ، وهو يعادل لقب فو ـ ما ، الذي أطلقه الصينيّون على تيمورلنـك ، وذلك لدأبه الزواج من بنات الملوك . وهناك أيضاً لقب قطب الحقّ والدنيا والدِّين.

[٧]
خلاصة

كان اهتمام تيمورلنـك منصرفاً إلى مضاهاة جنكيزخـان في فتوح البلدان والأمصار . وهو مقلِّد للفاتح المغولي ، ويتشابه معه كثيراً في النشأة والحياة الأولى ، ويختلف عنه

في الثقافة والدِّين والإدارة وتحمّل المسؤولية واستمرار الدولة.

كان جنكيزخـان بربرياً أميّاً ، وثقافته بدوية ، واستمر كذلـك . وكان تيمـورلنـك حضرياً ، وبربرياً مثقّفاً ، ولذا كان بارعاً في السلب والتخريب . فالبري الجاهـل يخرب بصورة عشوائية ، آتياً على الصالح والطالح دون تمييز ، وقد يسلم من تخريبه ، نتيجة الجهل ، بعض النفائس والروائع . أما تيمورلنـك ، البربري المثقّف ، فقد كان يستهل تخريبه بالاستيلاء على الجليل من التحف والفنون ، ومهرة الصنّاع والفنّـانين ، وكبار العلماء والمهندسين ، ثم يأتي على ما تبقّى حرقاً وتدميراً.

كان تيمورلنـك يتكلّم التركية والفارسية ، وقـد ترك مخـطوطتين يزعم أنهمـا من تأليفه ، مخطوطة باسم ملفوظات أي مذكّرات ، ومخطوطة باسم توزوكات ، وقد عبّر فيها عن آرائه في السياسة والحكم والإدارة والمؤسّسات العسكرية والمدنية . ومن أقواله هنا إن على كل إنسان أن يسعى إلى القوة بمختلف السبل ، وأن لا يُحْجِم عن الاستيلاء على السلطة إذا حانت الفرصة لذلك . وقد اتخذ حفيده خليل من هذا القـول ذريعة لمخالفة وصية جدّه تيمورلنـك عند وفاته ، بأن استولى لنفسه على السلطة عوضاً عن ابن عمـه بير محمـد ، الذي كـان الفاتـح قد عيّنـه خليفـه لـه قبيـل أن يفـارق الحيـاة . والمخطوطتان مكتوبتان بلغة سهلة وأسلوب بسيط.

في شخصية تيمورلنـك ازدواجية . فهو اجتياح وهدم ونشاط في العمران . وهـو طاغية يقيم الأبراج من الرؤوس البشرية ، وحاكم يشجّع الثقافة والفنون ، وكانت حصيلة أعماله إساءة إلى الإنسانية لا تغتفر . لقد أوقف انتشار ا لإسلام ، وأنزل اللغة العربية عن مكانها كلغة عالمية ، وأفسح المجال للغة التركية والعقـائد الـدينية الأخـرى كالبـوذية والدالي لامية ، وحال دون استمرار الإسلام في عملية ترويض البدو وتحضيرهم في قلب آسيا ، تاركاً هذه المهمة ليقوم بها الروس والصينيون فيما بعد . ويقول المؤرِّخ توينبي ، في هذا الصدد ، لو أن تيمورلنـك لم يوفّق إلى تدمير إيران لكان موقف بلدان ما وراء النهر من روسيا اليوم مختلفاً . لقد أفقر العالم الإسلامي بتخريب مدنـه وحرمـانه من العلماء والفنانين وأصحاب الحرف.

كان هدف تيمورلنـك ، في كثير من حملاته ، هو السلب والنهب إرضاء لمطالب أتباعه وجنده . وأهم حصيلة لحروبه كانت القضاء على الهوردة الذهبية لصالح الأمراء الروس ، وقضاءهعلى السلطان العثماني بايزيد لصالح بيـزنطة ولـو لمدّة قصيـرة من الزمن . أما سلطانه ، على المدى البعيد ، فإنه لم يستفدْ شيئاً من هذين الانتصارين .

وهو لم يوفّق قط إلى إقامة إمبراطورية خاصة به ، على الرغم من سعيه إلى إقامة إمبراطورية عالمية على الطريقة الجنكيزخانية.

صحيح أنه أقام إمبراطورية ، لكن سوء حظّه بأولاده ، على عكس جنكيزخان ، كان سبب عدم دوام هذه الإمبراطورية التي كانت ، منذ أيام مؤسِّسها ، تفتقر إلى الروابط التنظيمية ، لأن تيمورلنك سعىٰ دائماً لتكون هذه الروابط نابعة من شخصه ، ولذلك فإن هذه الروابط سريعاً ما أخذت بالانهيار بعد موته.

إن شخصية تيمورلنك موضع إعجاب وإجلال من بني جنسه من الطورانيين والجغطائيين . وقد امتزجت أعماله بالأساطير التي تتغنّىٰ بها شعوب سيبيريا وبامير بكل اعتزاز وإكبار . والناس في بلاد ما وراء النهر ، لتاريخه ، ينظرون إلى تيمورلنك نظرتهم إلى وليٍّ من أصحاب الكرامات ، فيترضّون عليه كلما ذُكر اسمه ، بصفته من أولياء اللّه وأصفيائه، ولا يملك الفارس منهم إلاّ أن يترجّل عند مروره على مقربة من قبره في سمرقند.

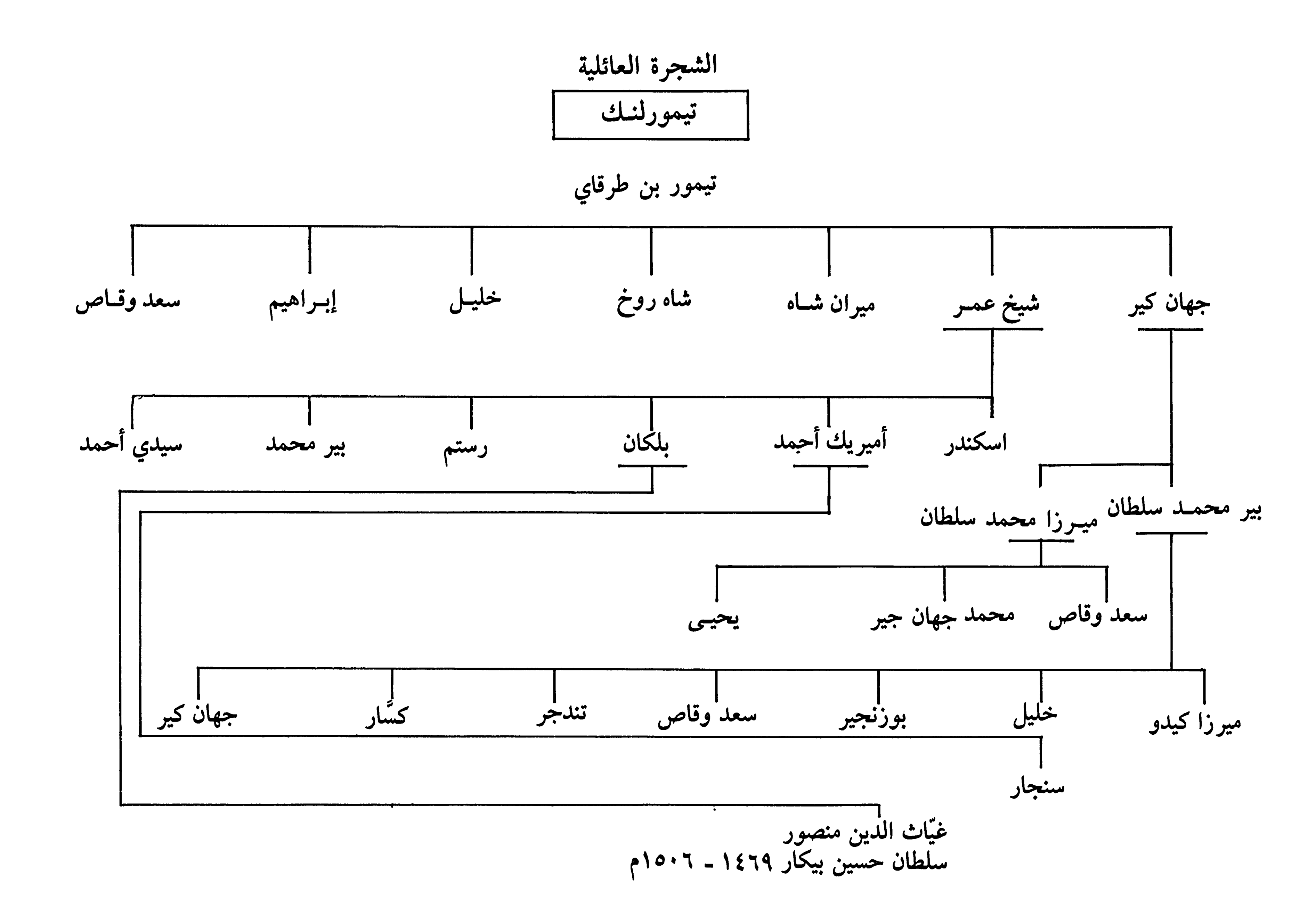
مخطط لحملات ومعارك تيمورلنك
بين عام ١٣٧٣ وعام ١٤٠٥م

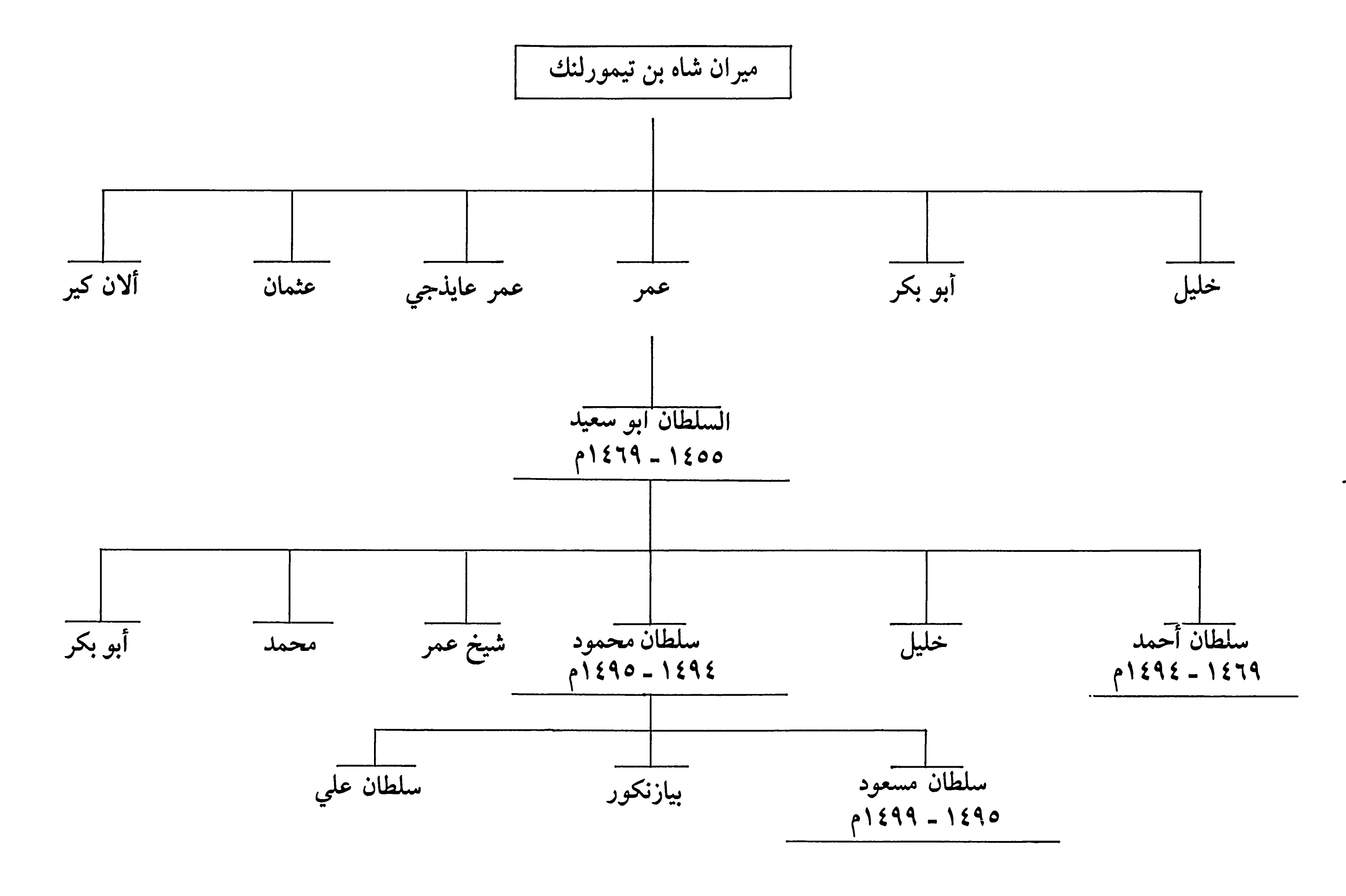
كيلومتر

معركة

مخطط لحملات ومعارك تيمورلنك بين عامي ١٣٧٣ - ١٤٠٥م.

الشجرة العائلية




ميران شاه بن تيمورلنك
خليل
أبو بكر
عمر
عمر عايذجي
عثمان
ألان كير
السلطان ابو سعيد
١٤٥٥ - ١٤٦٩م
سلطان أحمد
١٤٦٩ - ١٤٩٤م
خليل
سلطان محمود
١٤٩٤ - ١٤٩٥م
شيخ عمر
محمد
أبو بكر
سلطان مسعود
١٤٩٥ - ١٤٩٩م
بيازنكور
سلطان علي

شاه روخ بن تيمورلنك
١٤٠٥ - ١٤٤٧م

- اولوخ به ١٤٤٧ - ١٤٤٩م
  - عبد اللطيف ١٤٤٩ - ١٤٥٠م
    - عبد العزيز
- ميرزا إبراهيم سلطان
  - عبد اللّٰه ١٤٥٠ - ١٤٥١م
- بيازنكور
  - إبراهيم
  - بيبر ١٤٥٢ - ١٤٦٠م
    - شاه محمود
  - محمد سلطان
    - يدكيار محمد
- سيوركاتميش
- محمد تشوكي

ملاحظة: الأسماء المشحوط تحتها هي التي حكمت.

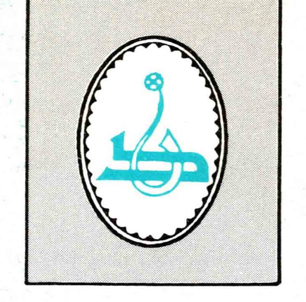
المـراجع

اسم الكتاب	المؤلّف
تيمورلنك	**هارولد لامب.**
أحداث العصر	**جيرار وولتر.**
تيمورلنك	**مارسل بريون.**
تيمورلنك أو الأمير الكبير	**ج . ج . ساندرس.**
حياة تيمورلنك	**أحمد بن عربشاه.**
تيمورلنك	**الدكتور مظهر شهاب.**
تيمورلنك	**موسوعة كولومبيا.**

الفهرس

الموضوع	الصفحة





أعلام الحرب

تتطور العلوم . . ، وتستجد مخترعات . . ، وتدخل المعركة أسلحة جديدة . . ويبقى الإنسان ، على مر الأزمنة والعصور ، سيد المعركة .

والعبقرية العسكرية ، أو القيادية ، ليست حكراً على بلد أو إقليم ، أو أمة . إنها هبة من الله عز وجل لبعض عباده . وبقدر ما هي موهبة ، بقدر ما يحتاج القائد إلى التعلم والدراسة والخبرة للاستفادة من تجارب القادة السابقين .

وهذا ما دعا العقيد المتقاعد « محمد صفا » إلى وضع « سلسلة أعلام الحرب » لتستفيد منها الأجيال العربية الصاعدة في مواجهة العدوان الصهيوني الغاشم ، ومن وراءه ، والذي يهدف إلى انتزاع أرضنا ، والقضاء على مقدساتنا ، ودرس حضارتنا .

والمؤلف عسكري مطبوع . ولد مع اندلاع الحرب العالمية الأولى . وما أن بلغ سن الشباب حتى كان ضابطاً ناجحاً في الجيش العربي السوري . شارك في حرب فلسطين قائداً للواء اليرموك الأول ، وشغل عدة مراكز قيادية . يعمل حالياً رئيس تحرير مجلة «الدفاع الاسلامي» . وله كتابات عسكرية كثيرة منها كتاب « الحرب » الذي نشرته هذه الدار .

الناشر